ميول منحرفة

بقلم ... حنان..s

وعدتك أن لا احبك
ثم أمام القرار الكبير جبنت

وعدتك أن لا أبالي بشعرك
حين يمر أمامي

وحين تدفق كالليل فوق الرصيف
صرخت

وعدتك أن أتجاهل عينيك
مهما دعاني الحنين

وحين رأيتهما تمطراني نجوماً
شهقت

لنزار قباني

تصميم كاردينيا73

تمهيد

في مكانها المعتاد جلست وعينيها ترقبان الممر الوحيد الذي يؤدي إلى حيث تجلس بانتظار أن تهل عليها قامته المديدة .. رفعت يدها لتنظر إلى الساعة التي قيدت معصمها بخفة .. تباً لم يتبقَ وقت طويل إذا لم يظهر ستضطر إلى الذهاب قبل أن تراه .. تململت قليلاً في مكانها لتحرك أحد قدميها المضغوطة بحذاء ضيق .. أخذت تخط بالتراب المكوم بالقرب من المسطبة التي تجلس عليها أثار انتظارها الذي يثير الشفقة .. شفقتها على نفسها .. لكن كلا لن تبحث بهذا الأمر مجدداً يكفي كم السرور الذي سيصيبها عند رؤيته .. تحركت نسمات صيفية عذبة لتبلغها وقد حملت نفسها بعض نفحات من عطره لتشهد بصدقها وهي

تهمس بشغف بأنه قد جاء لترفع سديم رأسها لترقب هطوله كحبات مطر تتلقفها الأرض اليابسة التي تمثلها هي بخشوع الحامدين ..

الفصل الأول

عام ...19

في غرفة نوم متوسطة الحجم مقترة الأثاث بالغة النظافة والترتيب تكلمت الصغيرة ذات الست سنوات ببؤس وهي تشتكي لأمها إزعاج صديقاتها في المدرسة لها ..

-لماذا أمي .. لماذا سميتني سديم الكل يسخر من اسمي ..

-ضحكت الوالدة بحنان .. هل تعرفين معنى اسمك؟

-كلا. أجابت والتعبير الرافض ما زال يلون ملامح وجه الطفلة بتمرد محبب يزيد وجهها حلاوة

-حسناً سأخبرك لماذا أسميتك سديم وهكذا ستعرفين معنى اسمك.

-هي قصة أمي ..

-حسناً .. نعم تقريباً ..

-هيا احكِ لي أمي .. قالت الصغيرة بشوق

أحنت الوالدة رأسها لتقبل خد ابنتها المستلقي رأسها على حجرها

-في ليلة شتوية قارصة جاءني المخاض وقد كنت حاملاً بك .. كانت السيارة ترتج من السرعة في محاولة من خالك أن يصل بي إلى مستشفى الهلال الأحمر قبل أن ألد .. كم كان مظهره الفزع مضحكاً

-أمي !! .. قلتِ أنها قصتي ..

-حسناً .. حسناً .. توقفت الأم عن استرسالها في ذكريات جانبية لا تهم صغيرتها .. كنت أنظر من النافذة إلى السماء وأنا أدعو أن تسهل ولادتي .. رأيت ليلتها القمر يلفه ضباب ناعم زاده سحراً وبهاءً فقلت في نفسي أن رزقني الله ببنت سأسميها سديم كي تكون حياتي بها أجمل .. كما بدا القمر أجمل بالسديم المتألق

- ضحكت الصغيرة لتقول لأمها .. أنها تبدو كقصة سنو وايت أمي .
- ربما .. يا ابنتي ..
- إذاً سأكون سعيدة كما سنو وايت ..
- أنتِ بالتأكيد ستكونين سعيدة الطيبون دائماً ينالون السعادة!
- أنت طيبة أمي لماذا لستِ سعيدة إذاً؟

- أنا سعيدة يا ابنتي .. أجابت الأم وهي ترنو لابنتها بحب
- كلا لستِ كذلك .. أنتِ دائمة البكاء في الليل .. قالت سديم بضيق
- صغيرتي أنتِ تحبيني ؟ وجمت الأم لدى سماعها كلمات ابنتها فحاولت أن تخفف عنها
- نعم.
- تفعلين أي شيء كي أكون مرتاحة؟
- نعم.
- إذاً كيف لا أكون سعيدة ولدي ابنة مثلك ..
- لكنها سعادة قليلة أمي .. قالت الطفلة بتذمر
- لا تقلقي يا ابنتي إن الله يدخر لي الباقي .. ردت الأم بيقين
- أنا لا أريده أن يدخر لي شيئاً أريدها كلها .. بعد تفكير لم يستغرق سوى ثوان قررت

- سنرى يا ابنتي .. نامي الآن .. ردت الأم وقلبها يتوجع لبراءة طفلتها .. سديم تقاوم النعاس لتقول: أمي
- نعم؟
- لا أريد أن كون كسنو وايت أنا لا أحب الأقزام .. انقلبت لتحضن والدتها أكثر وهي تتمتم .. أريد أن أكون سندريلا .. أحب الطيور التي تغني معها

عام 2000

الساعة الثانية ظهراً اليوم الأحد من شهر أيلول حيث الشمس كانت منشغلة بتلقين ملامح الشابة الصغيرة درساً لجرائتها على تحدي حرارتها وهي تتفنن في لسع البشرة الناعمة .. رفعت حقيبتها

المدرسية الثقيلة من كتفها الأيمن لتحولها دون أن تتوقف عن المشي إلى الكتف الأيسر .. كان الطريق من المدرسة إلى البيت طويلاً جداً كان من الممكن أن يكون أسهل لو أنها تملك المال الذي يسمح لها أن تستقل إحدى المواصلات العامة .. لكنها لا تملك لا المال ولا غيره .. كانت على العكس من جميع البنات في سنها تهوى السير في الشوارع الفرعية كانت تحب العزلة وتنشد البعد عن ما يحيط بها وينتظرها في الشوارع الرئيسية لتسرح بعالم خيالي صنعته لنفسها وتعيشه طوال يومها أفكارها اليوم لا تدور بعيداً عن فلم السهرة الأجنبي (السلاح الفتاك) كيف لا تفكر به وبطله هو ميل جيبسون .. كان بصرها مركزاً على الشارع المعبد بالسواد المنقوش بحبات رمال متناثرة وذاكرتها قد جعلت منه شاشة عرض تستعيد بها

مشاهد الفلم التي اختزنها عقلها الغافل عن وجود ثلاثة شبان يتبعونها بصمت بدأ يفارقهم عندما دخلت سديم إلى شارع فرعي يخلو من أي راجل أو راكب .. كم تتمنى أن تلتقي شخصاً يشبه ميل يحبها ويتزوجها سيكون ظريف ومرح ويفعل أي شيء ليجعلها سعيدة .. يا إلهي كم أتمنى أن أكون سعيدة ولو لمرة واحدة فقط .. ندت عنها ضحكة خافتة .. سعادة لمرة واحدة كيف يمكن ..

- تسلم الضحكة الحلوة .. قال هذه الكلمات أحد الشباب الصغار الذين كانوا يتبعونها ..

لم ترفع سديم رأسها بل سارعت من خطواتها وهي تلعن في سرها عدم انتباهها

- هيااا .. لا تسرعي .. تكلم الثاني وقد أصبح الثلاثة يسيرون بالقرب منها .. بدأ

قلبها ينبض بقوة عجلت من خطواتها حتى أوشكت أن تترك السير لتركض فزعاً وقد اشتدت أصابعها على رباط حقيبتها وقد شعرت بأحدهم وهو يحاول أن يجرها منها .. شهقت بصمت .. لم تتكلم لم تنبس بحرف واحد وقد أغرقها الخوف ببئره العميقة أبقت بصرها مسمراً على الشارع وهي تنتظر بصمت أن يكفو عن اللعب ويتركوها وشأنها لم تعرف كيف أحاط الثلاثة بها .. لم تحاول أن ترفع رأس النعامة وعندها أحست بيد أحدهم وهي تحاول جذب قميصها .. فجأة انطلق صوتها بصراخ قوي أفزع الشباب الثلاثة الذي حاول أحدهم أن يضع يده على فمها ليكتم صوتها .. لم يكن يريد أي منهم

سوى مضايقتها قليلاً لم يتصوروا بأن الأمر سيخرج من يدهم

- من ؟؟ اذهبوا لعنة الله عليكم .. ولّى الثلاثة مدبرين بعد أن صرخ عليهم رجل خمسيني خرج مسرعاً من بيته عند سماعه لصرخات مجهولة .. وأنتِ .. توجه إليها بنفور .. لماذا لا تعودين لبيتك بدل أن تتسكعي في الشوارع
- أنـ .. أنا كنت .. عـ .. عاد .. ة .. من المدرسـ .. حاولت سديم أن تتم جملتها بدون تلعثم ونظرات الرجل الكبير لا تساعدها .
- بدون كذب .. نهرها .. الساعة الآن الثانية والمدرسة تنتهي في الواحدة ظهراً .. فكرت .. ترى ما سيقول لو عرف بأن المسافة إلى

البيت ما زالت طويلة تحركت من أمامه دون أن ترد على كلامه وهي تقاوم ارتعاشاً ينوي أن يعصف بجسدها الغض .. جيل فاسد .. أبت الكلمات الجارحة إلا أن تصل لأسماعها المرتجفة تواؤماً مع قلبها الصغير .. حثت قدميها على الإسراع بالمسير .. إنها الآن في الجزء الغربي من بغداد حيث تنطق أسامي الأحياء بمستوى ساكنيها تسير في شوارع حي الأطباء (حي الأثرياء) حيث تقع مدرستها الثانوية لتعبر إلى حي الخارجية (حي متوسطي الدخل) في مجهود يومي لتصل إلى حيث تسكن في حي الجهاد .. مربع الإلفين (حي الفقراء) لم تكد تقطع مسافة قليلة حتى اصطدمت بجسد لشاب مجهول و الذي سارع لإمساك ذراعها ليمنع سقوطها المؤكد

.. رفعت سديم عينين مرعوبتين وقد ظنت بأنه أحد أولئك الشباب الطائشين جاء ليستأنف مضايقتها رغم أنها وبرؤية مشوشة عرفت بأنه يبدو أكبر سناً .. يا لهذا اليوم

- اتركني فوراً .. قالت سديم وهي تنفض يده عن ذراعها
- ما بكِ .. تكلم الشاب بدهشة .. لقد كنـ
- ابتعد عن طريقي فوراً وإلا .. تراجعت وهي تراه يتقدم نحوها
- وإلا ماذا .. تكلم بسخرية
- سأنادي عمي .. كأنها وجدت الخلاص بكذبتها هذه فأصرت عليها .. هذا بيت عمي إن لم ترحل سأناديه
- أي بيت .. حاول أن يزيل خوفها فابتسم ليقول .. أنتِ لـ

- أنت لا تصدقني .. حسناً تراجعت للخلف متجهه إلى بيت الرجل الغاضب .. سأدعو عمي أنصحك بالهرب
- أنا لن أهرب !! لم أفعل شيئاً .. أنت مجرد فتاة مخبولة .. كان يتكلم معها ببرود وهو يسير خلفها غير مبالٍ بتهديدها حتى توقفت أمام البيت المقصود ليقول الشاب ببلادة
- هل هذا بيت عمك
- نعم .. قالت بثقة وهي تنتظر بشوق لردة فعل مرتعب منه
- هذا .. تكلم متقدماً إلى البيت وقد بأن المرح على وجهه .. هذا بيت عمك
- نـ .. نعــ .. نعم .. تلعثمت سديم عند رؤيتها لرد فعله الغريب وتساءلت لم لا ترى الخوف المتوقع من قبلها على وجهه قفز

قلبها عندما رأته يفتح الباب ليتلفت إليها قائلاً .. إذاً لمَ لمْ أركِ سابقاً يا ابنة عمي .. بسرعة الضوء كما اعتقد ناصر استدارت الفتاة المجهولة لتركض مسرعة

- انتظري .. صرخ ناصر في محاولة منه لإيقافها دون جدوى راقب بفضول جسد الفتاة النحيف وهو يركض وشعرها الأسود اللامع الملجوم برباط أزرق ليشكل تسريحة بسيطة كذيل حصان منخفض يشاركها فرارها الأهوج .. ابتسم بحيرة لتصرف الفتاة الطائشة .. وتراجع ليدخل إلى البيت الذي تنطق كل أركانه بأبهة يتبارى الأثرياء في إبرازها
- مرحباً .. قال ناصر محيياً والديه الجالسين حول مائدة الطعام الفخمة ليتوجه إليهما

يقبل يد الوالد ورأس الوالدة اللذان استقبلا ولدهما الكبير بابتسامة فخر

- هيا بني اجلس لتشاركنا الطعام .. قالت ناهدة لولدها الكبير
- حاضر .. جلس ناصر بمقعده المعتاد .. أين عمران؟
- في النادي .. برفقة أصحابه .. أجابت ناهدة وهي تنظر إلى الوالد بقلق
- النادي!! .. تكلم الحاج عبد الرحمن .. كم مرة قلت لك بأن على عمران الآنتباه لدروسه
- لا تغضب يا حاج .. صمتت ناهدة لتضيف بعد ثوانٍ وهي ترمق ناصر برجاء التدخل .. لم يذهب للنادي منذ أسبوعين ..
- أبي لم كل هذا الغضب؟ حاول ناصر التدخل ملبياً رجاء والدته

- تسأل لماذا .. بغضب أكمل الحاج عبد الرحمن .. الامتحانات على الأبواب وعمران قد أعاد السنة لمرتين وسيرقن قيده في الجامعة إن لم ينجح هذه السنة أيضاً وأنت تعرف هذا .
- نعم أعرف أبي .. لكني لاحظت أن عمران مؤخراً يبدو أكثر تركيزاً على دراسته ..
- نعم يا حاج .. تكلمت ناهدة بتضرع .. صدقني إنه يدرس
- أتمنى هذا .. أجاب الحاج بتردد .. لا أريده أن يكون ضائعاً كهؤلاء الشباب
- معاذ الله .. ولدي ليس كهؤلاء الفتية الفاسدين .. قالت ناهدة باستنكار
- أي فتية؟؟ توجه ناصر بالسؤال إلى والديه لتسارع أمه بالإجابة وقد رحبت بتغيير مجرى الحديث

- قبل وقت قصير سمعنا صراخاً مصدره الشارع فخرج والدك مسرعاً ليرى شباباً صغاراً يعاكسون فتاة صغيرة و ..

فهم ناصر أخيراً سبب تصرفات الفتاة الغريبة وخوفها الذي فاض من عينيها الواسعتين وجسدها الذي تحفز لعراك يدرك بأنه غير متكافئ .. هز رأسه بصمت وقد وعى لمدى حماقته ..

في تمام الساعة الثالثة وصلت سديم إلى البيت وما أن دخلت حتى تناهى إلى سمعها صوت هدير يصدح في أركانه الضيقة

- لقد تعبت .. إلى متى وأنا سأبقى متحملة مسؤولية عائلة كاملة
- أعرف يا ابنتي بأن الحمل ليس هين لكـ
- لكن ماذا .. ماذا .. أخبريني !!

- مرحباً .. دخلت سديم إلى غرفة الجلوس ملقية تحية متعبة على أمها الجالسة على الكنبة الخشبية بوسائدها البالية بذبول وهدير شقيقتها الكبرى الواقفة في وسط الغرفة وجهها الأسمر ذو الملامح الجميلة ينطق بغضب عارم يكاد يكون لساناً جارحاً آخر لها
- أهلاا .. التفتت هدير نحوَ سديم لتضيف سآخرة .. شرّفتِ أين كنتِ؟
- هدير اتركيها .. قالت الأم منتفضة من مكانها
- آه طبعا .. إنها المدللة الصغيرة .. كيف لي أن أتكلم معها
- أنا .. أنـ .. كنـ
- نعم ؟؟ أنتِ ماذا ..

- هدير .. كفى .. كانت في المدرسة أنتِ تعرفين هذا
- هاهاها .. في المدرسة لا يخدعنك مظهرها البريء .. وتلعثمها المصطنع
- أنا لا أتصنع .. ردت سديم في محاولة منها لإسكات شقيقتها
- هذا يكفي .. وقفت الأم بين ابنتيها ووجهت الكلام إلى الكبرى .. لا شأن لكِ بسديم
- حقاً .. لا شأن لي .. لي شأن فقط في توفير المال لتشتري لها الملابس ولتأكل أيضاً أليس كذلك ..
- إنها أختكِ الصغيرة ومن واجبـ .. تكلمت الأم والألم يبدو بعينيها
- كلا .. كلا .. قاطعت هدير أمها .. إنه واجبكِ أنتِ وذاك السكير أبي، ساد الصمت

المكان بعد أن رمت هدير كلماتها الموجعة بوجهيهما مرفقة معها نظرات تتحدى أي منهما على نكران الحقيقة التي تفوهت بها وخرجت متجهة إلى المطبخ لتنفس عن باقي غلها في الطعام .. لا أحد يشعر بحجم معاناتها كل ما يهم هو المال فتحت الثلاجة لتخرج منها أي شيء تضرسه بأسنانها .. خرجت لتجلس على عشب الحديقة الصغيرة وبدأت كعادتها بعد أن تتفوه بكلماتها القاسية بلوم نفسها ولوم أهلها ولوم الدنيا كلها ..

- لا بأس أمي .. لا تحزني .. إن هدير لا تقصد أن تؤذينا .. حاولت سديم أن تواسي والدتها وهي تجلس بقربها
- لا أستطيع أن ألوم شقيقتك على ما قالته لديها كل الحق .. صمتت قليلاً لتبتلع عبرتها

.. ألوم الزمن الذي أفقدني احترام ابنتي لي ..

لم تستطع سديم أن تتفوه بأي كلمة لتخفف عن والدتها ما تحسه هي أيضاً أخفضت رأسها لتسقط نظراتها على زاوية مهملة في غرفة الجلوس الضيقة زاوية اختارها والدها الغائب بمكان لا يعلمه إلا الله لتكون ملجأه الغريب لاحتمال ساعات سكره الطويلة و لتصطدم بجدرانه الوهمية صوت ضحكاته الباهتة الخالية من الحياة .. نهضت سديم بعد أن قبلت والدتها متجهه إلى غرفتها التي تشترك بها مع هدير وقد غيرت رأيها وأحجمت كالعادة عن ذكر أي حادث يمر بها كحادث التحرش الذي تعرضت له .. وسرحت بتفكير عقيم .. دائماً تعذر والدتها هدير وتقول بأنها على حق .. هي تحب شقيقتها لكنها أحياناً تكرهها .. تكرهها بشدة

.. مددت جسدها النحيف على سريرها بعد أن وضعت حقيبتها عليه وأخرجت دفتر الرسم وقلم رصاص .. لم تكن تحب أن تضفي الألوان على رسومها (تنتظر بثقة الحالمين بأن تقوم السنوات القادمة بهذه المهمة وهي تحول الحلم إلى .. حقيقة) سيكون مرحاً ليضحكني كانت أفكارها تترجم بواسطة أناملها قوياً ليحميني .. وطيباً كي يفهمني (مرح + ظرف = قوة + طيب) تبدو كمعادلة قد أعفيت من المجاهيل المعقدة هكذا أريد أن تكون حياتي في المستقبل معادلة سهلة الحل .. ابتسمت في سرها وهمست للصورة التي كونتها أناملها البارعة .. أنا بانتظارك يا حلمي .. يا معادلتي البسيطة .. اقتحمت ذكرى واجباتها المدرسية المتراكمة مفسدة كمدرسة صارمة احتفالية أحلامها .. لتتمتم سديم بنزق المراهقات كم أكره الرياضيات .. أمهرت الرسم بتوقعيها وأعادت الدفتر إلى حقيبتها لتخرج منها كتبها المدرسية .. توقفت فجأة وعادت لتنظر إلى رسمتها بعد أن أخرجتها مره أخرى من حقيبتها لتطالعها نظرة متهكمة وابتسامة سآخرة لوجه لم يكن يشبه ميل جيبسون كما أرادت .. بل كان فيه شبه غريب للشاب الذي فرت من أمامه!! ..

***

في قاعة البليارد في نادي الصيد في منطقة المنصور المزدحمة بالشباب اللاهي كان عمران يجلس باسترخاء مع مجموعة من أصدقائه اللذين لا تتعدى أعمارهم كما هو الواحد والعشرون عاماً

- كم الساعة الآن؟ سأل عمران أحد أصحابه بعد أن نظر إلى ساعته التي كانت تشير إلى الحادية عشر .. يبدو أن ساعتي معطلة
- الحادية عشر .. ماذا ما بك ! سأل مازن عمران وهو يسرع بالنهوض كصديقه
- ماذا .. يا إلهي .. لقد تأخرت
- يا رجل أفزعتني! .. عاد مازن للجلوس .. مازال الوقت مبكراً للعودة للبيت
- مبكراً!! .. علي أن أعود فوراً و إلا توبيخاً من الحجم الكبير من والدي سيكون بانتظاري
- آآه .. رد مازن مستفزاً .. ألستَ كبيراً على الخوف من والداك
- ألم تعرف ..
- ماذا؟

- فقط الأحمق مثلك من لا يخاف من والدي .. مشى بخطوات مسرعة ليضيف .. هيا أسرع لأوصلك معي ..

قطع الاثنان بقية المسافة عبر حدائق النادي إلى سيارة عمران بمزاح صاخب .. قاد عمران سيارته السبور الخضراء بسرعة تلائم مزاجه وصاحبه المرح ليصل إلى بيت مازن الواقع في حي الإسكان الشعبي الذي توسط بشموخ وسط بغداد المتألقة بمئات المصابيح الملونة التي وُجدت لتزيد من سحر بغداد الغامض ولتشغل العيون المبهورة بحسنها عن آلام ساكنيها التي عتمت عنها الرؤيا لتظل قابعة في نفوس المظلومين بسرعة نسبية ..

- هل ستذهب إلى الجامعة غداً؟ سأل مازن وهو يترجل من السيارة

- أنا .. قطع صوت أنثوي جذاب كلام عمران الذي ركز بصره على الفتاة الفاتنة الواقفة بفتحة باب بيت صديقه
- مازن ؟ .. لقد تأخرت، أمي قلقة جداً. قالت بيداء وهي تنظر إلى عمران بطرفٍ لم يكن خفياً تماماً عنه

انساب الصوت المغري من الجسد المتناسق كاللحن الماجن ليشنف بصر عمران قبل إسماعه

- ادخلي إلى البيت .. تكلم مازن بغضب .. أنا قادم

اختفت الرؤيا الفاتنة إلى داخل المنزل بخطوات تفيض أنوثة .. يا للجمال فكر عمران

- لم تقل .. إن كنت .. سيطر مازن على غضبة حتى يكلم عمران

- أنت ستذهب أليس كذلك؟ سبقه بالسؤال
- نعم ! رد متعجباً
- إذاً سأمر عليك غداً .. انتظرني إياك أن تذهب بدوني ..
- حسناً .. رد مازن دون أن يستغرب إصرار عمران فهو قد اعتاد على جنون صديقه المقرب .. وداعاً .. صرخ مازن يرد على صديقة ليخترق صوته ضجة محرك السيارة الذي زئر محذراً من قد يجلبه سوء الحظ ليمر خاطفاً في شارع هو يكون فيه .. أنا قادم بأقصى سرعة ..

سار بخطوات سريعة إلى دخل المنزل ليقطع الممر القصير وصولاً إلى غرفة الجلوس حيث كانت أمه جالسة تتابع التلفاز

- أين بيداء؟
- ألا تلقي التحية أولاً! تكلمت الأم باستنكار
- مرحباً أمي .. تكلم بنفاذ صبر .. الآن أين بيداء
- ماذا تريد منها ؟ سألت الأم مدعية عدم ملاحظتها الغضب المرسوم على تقاسيم ولدها الكبير
- أمي .. صرخ بملل .. لابد أنها في غرفتها

وجدها حيث توقع أن تكون تتفحص وجهها بفخر في مرآة الزينة لا تترك التمعن في ملامحه الرائعة إلا لتطلي أحد أظافرها بلون أحمر فاقع

- بيداء .. تكلم بعصبية .. كم مره قلت لكِ بأن لا تخرجي لتناديني بحضور أحد أصدقائي

- لم أكن أعلم .. ردت ببرود وهي مستمرة بطلي أظافرها
- بل كنتِ .. تحرك باتجاهها وأمسك بذراعها ليسحبها إليه فسقط طلاء الأظافر على الأرض مخلفاً بقعة تثير الاشمئزاز .. إياكِ ومعاودة تلك الحركات بيداء وإلا
- اتركني .. أمي .. صرخت بيداء .. آآآي .. أنت تؤلمني
- توقف اتركها .. هل جننت ؟ سارعت الأم بتدخل وأمسكت بذراع ولدها تريد أن تبعده عن بيداء
- دعيني أمي .. دعيني أعلم هذه الأدب .. تكلم بحنق شديد
- آخرس .. ابتني من أحسن البنات وأكثرهن أدباً.

- أمي .. إنه يؤذيني .. وانخرطت بالبكاء
- قلت لك دعها، قالت الأم بحزم

استجاب مازن أخيراً لوالدته وترك ذراع بيداء لكنها ما إن تحركت مبتعدة لخطوة واحدة حتى عاد وأمسكها من شعرها لتعاود الصراخ

- أمي!!
- اسمعيني جيداً .. إياك .. إياك يا بيداء أن أرى منك ما يثير ريبتي .. شد أكثر على شعرها دون أن يبالي بأمه أو بمدى ألم شقيقته .. أقسم بأني سأدفنك حية !!

***

قبل هذا بوقت ليس بقصير في غرفة النوم الخاصة بالشقيقتين .. سمعت سديم خطوات قادمة نحو الغرفة لا بد أنها هدير .. سارعت بلملمة رسوماتها

المنتشرة على سريرها وأرض الغرفة منذ أن دققت النظر في رسمتها وأدركت مدى شبهها بذلك الشاب السآخر وهي تعيد الرسم في محاولة عقيمة لطمس تلك الملامح التي لا تلبث أن تعاود التطلع إليها بتهكم.

- سديم .. فتحت هدير الباب منادية .. هيا لقد أصبح العشاء جاهزاً
- قادمة. ردت سديم بارتباك وهي تدّعي الدراسة

تفحصت هدير شقيقتها .. لا تعرف لماذا تساورها تلك الظنون البغيضة التي تدفعها للشك بتصرفات أختها .. يا إلهي سديم لو تعرفين كم تقلقيني .. اتجهت إلى حيث شقيقتها وجلست بقربها

- سديم؟

- نعم .. كان لحضور هدير هيبة تغرق سديم في الاضطراب
- لماذا تتأخرين في العودة إلى البيت ؟
- المدرسة بعيدة .. أنتِ تعرفين
- أعرف ذلك .. كما أعرف بأن أمي تعطيكِ مصروف
- نعم .. أمي تعطيني مصروف
- إذاً لماذا لا تستقلين المواصلات .. بدل أن تسيري في الشوارع في وقت الظهيرة ؟
- أنا .. أدّخر المال .. بتردد أجابت سديم
- ومن أجل ماذا ؟ سألت هدير باستغراب
- إنه مصروفي أنا حرة في كيفية إنفاقه
- كلا يا صغيرة .. تكلمت هدير بسخرية .. أنا من يعطي المال لأمك ولهذا كل ما يحدث

هو شأني .. هيا الآن أمي والصغار بانتظارنا .

الأفكار التي تدور كالرحى في ذهن هدير لم تكن تسمح لها بأن تفكر ولو للحظة بمشاعر من حولها كانت تراقبهم وهم يأكلون .. أمها بوجهها الذي أذابت السنون قناع الابتسام الذي ارتدته لأعوام فظهرت على صفحة وجهها السمح علامات القهر الشديد التي نقشت بقوة الزمن ملامح أخرى لنوع آخر من المشاعر لم تفهمه هدير يوماً .. وسديم أختها ذات السبعة عشر ربيعاً بقدها الرشيق المتوسط الطول بنظرات عينيها الغارقتين بسواد الحكايات القديمة وفمها المعقوف الذي يستفز الزمان الصعب بمرح بريء .. وترف الذي لا يدل على اسمها سوى جمالها الأشقر وطفولتها التي تنادي باستحقاقها حياة أفضل وحاتم آخر العنقود

آخر حلم لأمها بالعيش في ظل شخص يتحلى بكرم النفس .. حلم لم يكن للواقع أي اهتمام به ..

نهضت واقفة بسرعة وسط دهشة العائلة المتجمعة لتقول الأم بتردد

- لمَ قمتِ يا ابنتي؟ .. أنهِ عشائك .
- شبعت .. تمتمت هدير بهذه الإجابة مسرعة بالذهاب قبل أن تنغص عليهم وجبتهم وصلت إلى غرفتها .. اندست في فراشها ودثرت نفسها رغم حرارة الجو بغطاء سريرها كأنها بفعلها هذا ستفلح في إنجاح محاولتها اليائسة للفرار من هواجسها التي تلح عليها

الفصل الثاني

تقلب ناصر في فراشة .. لم يعرف السبب الذي يجعل صورة تلك الفتاة التي تلوح مهددة بإقلاق راحة باله لا تفارق مخيلته .. انقلب على وجهه مد يده ليشعل الضوء المنضدي ثم فتح الجارور القريب ليخرج علبة السجائر مع الولاعة .. أشعل سيجارة وتنفس دخانها ليزفره بعد لحظات استقر على ظهره ليتجول بصره في أنحاء غرفته الكبيرة المؤثثة بأناقة تعرف بها والدته .. ابتسم عندما ارتسم بخياله الفرق بين شخصية والده التاجر المخضرم الصلب الذي تظهر قسوته بجلاء عند مخالفة أي شيء لخططه وبين والدته السيدة الأنيقة ابنة الحسب والنسب الراقية بخلقها المميز

والتي استطاعت بعاطفتها المعطاء من أن تُسَيِّرَ والده حسب رغباتها التي لا تتعدى معظم الأحيان بإزالة بعض الممنوعات عن ولديها .. لكنها لم تستطع أن تعفيه من الانصياع لقرار والده بأن يترك مهنته المحاماة ويعمل معه بالتجارة .. هو الأكبر .. انتهى .. وحتى إن لم يكن فإن عمران لا يعتمد عليه .. تنفس بعمق دخان سيجارته ليزفره بملل وقد تعب من لعب دور الرجل المثالي والابن البار .. الرتابة والقوانين التي سنها لنفسه مرغماً إياها على الخضوع تجمد الدماء في عروقه تمنع عنه الإحساس بروح الحياة .. عادت النظرات السوداء المرتبكة لتدق باب ذاكرته بروية محببة تدفعه إلى التمعن فيها أكثر .. يبدو بأن والده أثار رعبها أكثر من الفتية الذين عاكسوها .. وجاء هو ليكمل ما فعله والده ولكن أنّى له أن يعلم

بما حدث .. رمى عقب السيجارة في المنفضة وحاول أن يرخي جسده أكثر بعد أن أطفأ النور في محاولة منه لإثارة اهتمام النوم علّه يقرر الوثوب على عينيه ليصرعهما مع وعيه .. مؤقتاً .. حتى انبلاج الصباح .

***

مشت بخطوات واثقة طالما أثارت غيرة زميلاتها في ممر الدائرة الحكومية حيث تعمل متجهه إلى قسمها .. قسم المحاسبة .. جلست على الكرسي خلف مكتبها انحنت لتضع حقيبتها في آخر جارور ورفعت شعرها البني الداكن القصير ذي الكسرات الجذابة من على وجهها لتتحجر عيناها لدى رؤيتها غزوان أحد زملاؤها في القسم .. لتمتم .. متى عاد هذا المزعج من إيفاده

- صباح الخير .. حياها غزوان وعيناه تتفحصان ملامح وجهها الجذاب وما ظهر من جسدها المختبئ خلف المكتب بطريقة تثير قرفها
- صباح النور .. ردت ببرود

اقترب من مكتبها ليجلس على طرفه .. كانت هي أيضاً تتفحصه .. ولكن .. بنفور كان مربوع الجسم أبيض البشرة كريه الرائحة .. رائحة لا تشمها إلا هي تثير فيها رغبه بالقيء

- لم تقولي حمداً لله على سلامتك .. تكلم غزوان وابتسامة ظنها جذابة ترتسم على شفتيه
- حمداً لله .. قالتها هدير وهي تجبر لسانها على الاكتفاء بما نطقه دون أن يكمل .. ما

يتردد في صدرها .. والذي لا يحمد على مكروه سواه .

- شكراً لكِ ..

كفى صرخت أعصابها التي لم تعد تتحمل هذا العرض اليومي

- هل تسمح بالنزول من على المكتب سيد غزوان .. قريباً سيأتي المراجعون والمنظر .. صمتت لتنظر إليه كأنها تغيظ بصرها وتعاقبه وهي تحاول بفضول اكتشاف ذاك الشيء المحشور بين أسنانه حتى احتجت معدتها مهددة إياها بنوبة من الغثيان إن لم تكف فوراً عن النظر إليه .. سيكون منافياً للنظـا .. أقصد للآداب

- آه .. معك حق .. نهض من مكانه ليتحرك إلى حيث مكتبه .. لن تجدي من هو أحرص مني على سمعتك هدير ! .. أنتِ تعرفين هذا أليس كذلك؟

- نعم .. نعم بالتأكيد أعرف. سارعت هدير بالإجابة وقد حمدت الله على قدوم أول المراجعين الذي سيرحمها وجوده من مواصلة الكلام مع غزوان ..

***

- هل أخبرت والدتك عما حدث لك بالأمس؟

كانتا هي وصديقتها في ساحة المدرسة الكبيرة تقفان في زاوية منعزلة منها بانتظار أن يدق جرس الانصراف .. حين وجهت وفاء السؤال إلى سديم التي روت لها عن معاكسة الفتية لها

وتماديهم بذلك مع حذف متعمد لدور الشاب المزعج في أحداث يوم أمس ..

- نعم بالتأكيد أخبرتها .. رغم أن وفاء أقرب صديقة لها لكن طباع سديم المتحفظة لا تجعلها تنطلق في سرد تفاصيل حياتها .. لا أحد يعرف عنها سوى خطوط عريضة لا تدل على أي معرفة خاصة بها
- حسناً فعلتِ فأنتِ لا تعرفين إلى مدى سيصلون بمضايقتهم لك ..
- نعم أنتِ على حق .
- إذاً هل سيأتي من يصطحبك إلى البيت ؟
- كلا .. ثم أسرعتب الإضافة بعد أن رأت التعجب على ملامح صديقتها .. لكن ابن خالي سينتظرني بالشارع التجاري ليأخذني للبيت. أرغمت نفسها على ذكره
- حسناً .. هل أوصلك وأبي إلى الشارع التجاري كي ترتاحي من عناء السير
- كلا .. كلا شكراً لك. ردت بارتباك ثم أضافت .. بشأن شراء الكتاب لقد جلبت المال. متى .. متى تجلبيه لي. أخرجت المال الذي ادخرته من مصروفها من حقيبتها لتعطيه لوفاء
- سيذهب والدي إلى شارع المتنبي بعد غد و سأوصيه بشراء الكتاب لك .. صمتت وهي تضع مال سديم في جيبها لتردف مستفسرة .. صحيح سديم لم تخبريني .. كيف هي والدتك هل مازالت مريضة ؟

- أنا أراها متعبة .. ردت بكلمات تنغمها تنهيدة قلقة .. لكنها مصرة بأنها بخير .

قطع حديثهما صوت الجرس الذي صحبه ضجيج الطالبات الذي لم يسمح لأي منهما أن تضيف كلمة أخرى .. عند باب المدرسة افترقت الصديقتان وفاء لوحت لسديم وهي تجري مسرعة كي تأخذ مكانها بقرب والدها في سيارتهم .. أما سديم فركبت ساقيها ومشت بخطوات سريعة لتبدأ مشوارها اليومي .. كانت مضطرة للكذب كيف لها أن تخبر صديقتها بأنها لا تكاد تشعر بأنها تعيش في وسط عائلة كي تخبرهم بما ينالها في يومها من ابتهاج أو أسى .. لم يكن المسكن الذي تأوي إليه سوى سقف وجدران لا يحتويان إلا على الحزن .. الحزن الذي سببه بنظرها اثنان والدها الغائب الذي لم يقتنع يوماً بمهامه فنبذها مولياً الأدبار .. وهدير .. نعم هدير هي التي تجعل عيشهم نكد في نكد وهي التي لا تتوانى ولو لدقيقة واحدة عن سكب العبارات المهينة في أذنها ووالدتها .. هي من تجعلها تشعر بألم العزلة .. كلما تعمقت سديم في تحليل واقعها تثاقلت خطواتها و تسارعت أنفاسها لتغيب المناظر التي ألفتها في الشوارع التي تحرثها قدميها مرتين باليوم لتتجسد أمامها صورة هدير الحانقة دوماً ..

***

لم يغرق ناصر نفسه في تحليل أو تعليل سبب وقوف سيارته المتعمد في هذا الوقت من النهار في طرف الشارع المؤدي إلى بيتهم .. لقد انساق ببساطة إلى رغبة اعترته دون أن تفارقه منذ ليلة أمس بأنه يتوجب عليه أن يقدم اعتذاراً لها ..

حرك المقود بيده بملل رغم توقف السيارة رفع معصمه للتأكد من الوقت الساعة الآن الواحدة والثلث .. فتح الباب ترجل من السيارة واتكأ عليها مد نظره إلى الشارع الطويل أمامه المثقل ببيوت متفاوتة الأحجام مزروعة على جانبيه وقد زينت مداخلها الخارجية بشتى أنواع السيارات التي زادت ألوانها المختلفة من بروز البساط الأسود الطويل الذي خطت عليه قدماها نهار يوم أمس .. تنهد بضيق وقد ازداد لشعوره بلهيب أشعة الشمس .. و .. بالخجل أنه رجل يبلغ التاسعة والعشرون محامي يعمل بالتجارة ليس من اللائق أن يقف بانتظار شابة صغيرة .. هو ليس عمران يفعل ما يحب بالوقت الذي يحب .. هو مجرد إنسان مكبل بقيود الالتزامات .. زفر منزعجاً من قالبه المفروض عليه ليتحرك عائداً إلى سيارته وقد اعتقلت رغبته خلف قضبان الممنوعات .

***

حاولت سديم أكثر من مره ترك الشوارع الفرعية والتوجه إلى الشارع الرئيسي لكنها لا تستطيع أن تواجه ما هي متأكدة من وجوده .. ماذا ستفعل الآن .. فكرت سديم وهي تسير في الشوارع الخالية نسبياً من المارة .. هل تستقل إحدى المواصلات العامة .. لكنها لا تستطيع هي بحاجة إلى ادخار مصروفها .. وصلت إلى بداية الشارع الذي اعترضها به الفتية الأشقياء والرجل المخيف والشاب السآخر .. وعند ذكر الأخير حولت مسارها إلى الشارع الذي يليه رغم أنه سيبعدها لمسافة ليست بالقليلة عن طريق بيتها.

***

نقشت صورة عمران صديق أخيها في صفحة ذاكرتها .. وسيمٌ جداً .. يناسبها هي أيضاً جميلة جداً رفعت الصينية إلى وجهها لتنظر إلى قسماته المليحة ابتسمت بغرور .. لقد وقفت في الصباح الباكر عند نافذة غرفتها المطلة على الشارع وتأكدت من إمكانية رؤيته لها .. لقد عرفت بأنه سيأتي كما اتفق هو وأخوها كي يذهبا معاً إلى الجامعة نعم لا يليق بها سواه فكرت عليها أن تجد طريقة تقربه منها .. لكن كيف ؟؟

- بيداء ؟ دخلت الأم إلى المطبخ لتجد ابنتها ساهمة عند حوض الغسيل المعدني لتصرخ بها .. بيداء!!

قفزت مجفلة عند سماعها صراخ والدتها لتسقط الصينية من يدها محدثة صوتاً يزعج الأذن

- أمي .. لقد أفزعتني .. تكلمت بيداء وهي تنحني لالتقاط الصينية من على الأرض
- أنادي عليكِ منذ ربع ساعة وأنت ساهمة كالبلهاء في المطبخ .
- آسفة أمي لم أسمع. ردت بيداء باعتذار كاذب
- كيف تسمعين وأنتِ غارقة في الأحلام. قالت الأم بسخط وهي تفتح الثلاجة لتخرج منها بعض الخضروات لتعد بواسطتها طعام الغداء
- ومن قال أنها أحلام .. تكلمت بيداء والتحدي يلوح بوجهها .. أحلف بمعزتك بأني سأحقق كل ما أطمح إليه

- حقاً .. أجابت بدون اكتراث وهي تحمل ما أخرجته من الثلاجة إلى طاولة الطعام الصغيرة .. و إلى ماذا تطمحين ؟ أعملت السكين تبقر بها بطن الباذنجان وهي تضيف بسخرية .. نزهة إلى القمر!
- بل إقامة دائمة على القمر ! صدح جرس الباب في أركان المنزل لتقول الأم لبنتها
- اتركي القمر وشأنه الآن .. رفعت الأم بصرها إلى ابنتها وهزت رأسها بأسف وأكملت .. واذهبي لتنظري من على الباب

أغلقت بيداء صنبور المياه واتجهت بامتعاض لتفتح الباب دون أن تنسى أن تلقي نظره سريعة على مظهرها الذي لا تفتر روعته .. إن أمي تسخر مني لا بأس سأثبت لها ولأخي القاسي القلب بأني سأحدث تغييراً في حياتي ولن أكون صورة بائسة

مملة من أمي .. كان سير أفكارها يواكب سير خطواتها التي قطعت المنزل لتصل بعد أن عبرت الممر إلى الباب الخارجي والذي تطاول عليه رأس من كان يشغل عقلها قبل دقائق مضت !

***

لم يكن غافلاً عن محاولتها لجذب انتباهه .. جميلة جداً وجريئة أيضاً .. مزيج كفيل بأن يضمن له أوقات ممتعة بصحبتها .. صحبتها نعم العرض واضح بعينها .. منذ أن رآها واقفة بطريقة أقل ما يقال بحقها فنية في شباك الغرفة التي هو متأكد بأنها غرفتها وهو قد قرر أن يتخذها رفيقة .. بعد أن دخلا معاً هو ومازن إلى الحرم الجامعي وبعد محاضرتين .. انسحب بهدوء دون أن يشعر مازن به .. مر بسيارته لأكثر من مرة في الشارع الذي

يضم بيتها عله يلمحها لكن بدون جدوى إنها الساعة الآن الواحدة والنصف عليه أن يسرع قبل أن يعود مازن .. اندفع الدم بقوة في أطرافه وهو يفكر بما سيقدم عليه .. إنه يستمتع بخوض غمار أي نزوة مهما كانت عواقبها التي ربما في هذه المرة ستكون خسارة صديقة المقرب .. أوقف السيارة أمام بيتها وترجل منها بغرور المندفعين .. ضغط الجرس وهو يفكر بهزل .. ألم يأتِ البيت من بابه .. لا يحق لأحد أن يلومه !!

لم ينتظر طويلاً حتى ظهر له قدها المياس الذي ازداد تمايلاً ما أن لمحته صاحبته بعينها النجلاوين .. ابتسمت نزوته عندما تأكد لها بأنها ستنال ما ترغب .. فتحت الباب وقالت بصوتها المغوي

- نعم

- مرحباً .. حياها عمران بكلمة وابتسامة
- مرحباً .. تفضل ؟ سألت بنبرة الصوت ذاتها
- أتفضل! .. رد بعبث مازح يريد به أن تتضح له الأمورأكثر ..
- أقصد ماذا تريد؟ أعادت صياغة سؤالها بارتباك
- مازن .. تنهد بعمق وقد تعمد أن يقطع حديثه ليرميها بنظرات معبرة .. أين هو!
- ألم تذهبا معاً في الصباح. ردت بعبوس مفتعل
- إذاً لقد رأيتِني .. احمر وجهها ليزداد احمراراً بعد أن أضاف والابتسامة العابثة تزداد عمقاً .. .أنا أيضاً رأيتك
- عفواً أنا .. أنا لا أفهم ما تقصد ! هذه المرة كان ارتباكها حقيقياً .. تباً .. إنه لا

يضيع وقته .. لكن لا بأس لن تكون بيداء إن لم تجعله طوع بنانها

***

بعد مرور شهرين .. قلب ناصر السجلات بيده وهو يجبر ذهنه على الانغماس بمراجعة الأرقام أمامه .. رفع بصره مرغماً عند سماعه لخطوات تقترب وعندما تعرف على هوية القادم نهض مرحباً وهو يقول

- شرفت يا حاج تفضل .. تفضل .. تحرك ناصر من خلف المكتب الخشبي المنحوت بزخارف إسلامية مبتعداً ليفسح المجال لوالده كي يجلس في مكانه

- السلام عليكم. ألقى الأب التحية على ولده الكبير وقد خصه بواحدة من ابتساماته النادرة

- وعليكم السلام .. رد التحية ليختار ناصر الجلوس في أحد المقاعد المنتشرة في زوايا غرفة المكتب لشركة المنتجات القطنية التي تشغل الطابق الثاني من العمارة ذات الموقع التجاري التي يملكها والده

تفحص الحاج عبد الرحمن الأوراق التي من شدة تنظميها يكاد يشك بأن ولده كان يعمل عليها .. تكلم الحاج وهو مستمر بمتابعة الأرقام بعينٍ خبيرة

- ماذا فعلت بشأن المعمل الجديد ..

أجاب ناصر بهدوء

- لقد حددت الماكينات التي نحن بحاجة لها .. اتفقت على الأسعار مع مدير الشركة المصنعة .. لم يبقَ سوى أن يحدد لنا وقت وصول الشحنة إلى ميناء أم قصر في البصرة
- ستذهب بنفسك لاستلامها .
- لماذا أنا ياحاج!! يستطيع منذر الذهاب؟ ..

رفع الحاج عبد الرحمن بصره إلى ولده ناصر وهو يقول بإيجاز والنبرة الآمره بصوته برزت بشكل أوضح ليستقبلها ناصر بصبر دون أن يتفوه بكلمة وهذا ما أثار انزعاج والده .. كان يعرف برغبته ولده الدفينة بأن يعمل مستقلاً لكنه لن يستطيع أن ينفذ له ما يريد .. لم يرد أبداً أن يتحمل ناصر تبعات نشوء عمران كشاب مستهتر .. لكن هذا ما حدث .. حلت العاطفة بديلاً عن الصرامة في عيني

الأب وهو يفكر بأن عليه أن يفعل شيء ليخرج ناصر من جموده هذا

- كلا .. اذهب أنت .. هناك أعمال لا ينفع أن يقوم بها سواك

الفصل الثالث

بخطوات مترددة حيناً ومصممة أحياناً أخرى صعدت درجات السلم المرمري متجهة إلى الشقة رقم خمسة .. لم تكن تتوقع يوماً بأنها ستفعل ما تفعله الآن .. أي درب اختارت سلوكه .. ترى هل ستسامحني أمي إن علمت ؟؟ .. وقفت بصمت منحية الرأس أمام الباب الخشبي بدت كأنها تتوسله أن يمدها بإجابة لسؤال غامض تزيل بواسطتها بعضاً من حيرتها تنهدت ومدت يدها في حقيبتها لتخرج المفتاح وتدخله في قفل الباب .. التفت لتغلق الباب خلفها لتصدم بنظرات شزر مصدرها عينيان نافذتان عكستا ازدراء صاحبهما .. قابلت تفحصه المهين بنظرات تعكس عدم مبالاتها بما يفكر به .. لا تنقصهان ظرات مُدينة تصدر من رجل غريب

كان يغني بصوتٍ عالٍ فلم يسمع وقع قدميها على الأرض الخالية من السجاد .. جلست على الكنبة الحمراء الكبيرة التي توسطت غرفة الجلوس الفخمة .. رغم أنها اعترضت على تأثيث الشقة بهذا الأثاث الفخم لكنه أصر على ذلك وهو يخبرها بأنه لا يستطيع أن يعيش في مكان لا يلائم مستواه يبدو بأنه في المطبخ ابتسمت ربما هو يعد طعاماً كما وعدها .. خلعت حذائها لتتمدد على الكنبة .. كم هي مرهقة .. أغمضت عينيها وهي تفكر بأنها يجب أن تضع حداً لكل هذا .. صحيح بأنها تحبه كلا بل تعشقه لكن عليه أن ينفذ وعده لها لا بد له من ذلك ..

فتحت عينيها بكسل بعد أن أيقظتها لمسات مستكشفة ..

- حبيبتي ..

ابتسمت له وحركت جسدها إلى الخلف لا لتبتعد عنه بل لتفسح له المجال ليستلقي بجوارها و(.. ..)

راقبها وهي ترتدي ملابسها بوله رغم أنهما على هذا الحال منذ زمن لكنه لا يمل وجودها في أحضانه .. جميلة جداً .. همس عندما لاحظ انتباهها لتفحصه النهم .. تحركت مقتربة منه حيث كان مستلقياً على الفراش ذي الأغطية الحريرية الحمراء .. كان كل شيء من لون أو قطعة أثاث تعكس ذوقه لم تحب اللون الأحمر يوماً لكنه يعشقه وهي كعادتها تتقبل رغباته بهوس عاشقة .. حاول جرها لتسكن كما كانت منذ لحظات بين ذراعيه

لكنها تهربت ضاحكة لتقول بعد لحظات عندما استوت جالسة على طرف السرير بعتب

- حبيبي ..

رمى بظهره على السرير ليغطي وجهه يدعي تأثره بوقع الكلمة عليه بمرح رسمت ابتسامة حب على شفتيها لتكمل

- توقف عن هذه الحركات

رفع الغطاء عن وجهه ليظهر تعبيره العابث

- و لماذا!!
- لأني أريد التحدث معك ..
- وأنا مستعد .. بأن نعاود الحديث .. تحرك نحوها مجدداً وقد برزت نيته بوضوح لتسارع بالنهوض قبل أن يقبض عليها

- لا فائدة منك .. تنهدت بيأس .. سأذهب الآن لقد تأخرت
- انتظري متى سنلتقي ؟
- عندما تكون مستعداً لسماعي .. رفعت يدها محذرة عندما حاول أن يتكلم .. إياك والتلميح بشيء لا أقصده !!

خرجت من الشقة ترافقها صوت ضحكاته الرجولية المتسلية

***

مشت بخطوات مسرعة وهي تأمل بأن لا يلاحظها علاء .. لقد خالفت عادتها وقررت أن تأخذ أحد الموصلات العامة الموزعة على الشارع التجاري حيث يقع معرض الأثاث الذي يملكه خالها و يديره ابن خالها .. كان وجوده أحد أهم أسباب عزوفها

عن ارتياد الشارع .. أرجعت خصلة شعر سوداء أفلتت من ذيل الحصان خلف أذنها .. لم تنتبه وهي منشغلة بمراقبة المعرض للسيارة التي ركنت بجانب الرصيف قربها

- من أرى سديم الصغيرة !!

كان هذا علاء الذي كان لسوء الحظ عائداً من مكان ما إلى المعرض .. حثت الخطى هاربة لكنها لم تكد تسير عده خطوات حتى لحقها ممسكاً بذراعها موقفاً إياها

- انتظري .. أدارها نحوه .. لمَ الاستعجال ؟
- اتركني .. تكلمت سديم بغضب وهي تحاول تخليص ذراعها من قبضته .. لا شأن لك بي .. قلت اتركني .. عَلا صوتها وقد برز خوفها الهستيري من ابن خالها ..

- هيا لا تذعري لم أفعل شيئاً .. أفلتها رافعاً يديه إلى أعلى وهو يتكلم محاولاً السيطرة على نوبة الذعر الذي تأكد له أنها ستنتابها

بسرعة معتدلة قاد ناصر سيارته متجهاً إلى البيت بعد نهار يوم متعب جداً .. لم تعجبه نظرات والده المتفحصة بدا فيها نوع من الانتقاد لم يرُق له .. لماذا الانتقاد هو يفعل كل ما يعجب والده و يريح قلب أمه. بدا كأنه يعوض مكرها عن انحلال عمران .. تباً لك عمران إلى متى ستبقى بهذا الحال .. وتلك الفتاة بيداء التي كلمه عنها قبل أيام عدة يكاد يقسم بأنها ستوقعه بمطب كبير لقد تغير كثيراً منذ أن عرفها صحيح بأنه لم يكن يوماً مثال للشاب الصالح الحسن التربية لكن كان هناك أمل بأن طيشه سيخف بمرور الأيام هو ما زال شاب يافع لكن منذ أن عرفها أصبح تمرده لا يطاق ..

سيخلصه منها عليه أن يفعل .. حتى لو .. ما هذا ؟؟ هتف ناصر وقد فرض مشهد صراع بين فتاة ذات شعر أسود طويل مربوط كذيل حصان وشاب بدا أكبر منها كثيراً قد أمسك بذراعها الانتباه على ذهنه المشغول .. إنها هي!! ما ذا تفعل هنا هذا ليس طريقها؟؟

- فقط أردت أن ألقي التحية على ابنة عمتي الوسطى .. ارتسمت على شفتيه الابتسامة الخادعة ذاتها ليقول باستفزاز .. و أسأل عن الصغرى

انسحب اللون من وجه سديم وهي تستوعب ما يقول لتتجمد أطرافها هلعاً وقد اقترب منها محاولاً تقييد معصمها

- تعالي معي إلى المعرض .. برزت تلك النظرة التي تعرفها جيداً وهو يقول .. لقد اشتقت لكِ كثيراً

أدارت رأسها في الشارع العريض الذي بدا فجأة مقفراً .. إنها الساعة الثانية ظهراً السماء أعطت تلميحاً مسبقاً عن مزاج شهر تشرين الذي لم يتوانى عن إبراز نزقه لتسقط قطرات مطر تزايدت بعد لحظات .. معظم المحلات مقفلة .. انشغل المارة المعدودون بحماية أنفسهم من زخات المطر التي شاركها الهواء تلاعبها بهم

- دعني .. حاولت سحب معصمها من يده لتفاجأ بسقوطه أرضاً وهي يصرخ بألم ..

لم تعرف كيف سحبت لتقف وراء شاب طويل جداً لم يكتفِ بلكم علاء على فكه بل تحرك ليعالجه برفسة على جنبه

- آآه .. صرخ علاء .. توقف .. أنا
- أنت مجرد ناقص .. صرخ ناصر به والتفت إلى الفتاة التي لم يبدو بأنها تستوعب ما يجري أمامها هز رأسه نافراً ليمسك بذراعها وتحرك ليجرها خلفه ليعبرا معاً الشارع وصولاً إلى سيارته وهو يدمدم بغضب .. اتجه لمقعد الراكب وفتح الباب قائلاً
- اركبي ..
- دعني .. خلصت ذراعها من قبضته .. هل جننت تطلعت إليه سديم بعدم تصديق .. هل تظن فعلاً بأني سأركب معك في السيارة

- هاا .. ولمَ لا .. تكلم بنفاذ صبر .. هل تتوقعين أن أتحرش بك أنا أيضاً!!
- أنت .. كيـــ .. كيف تتكلم مـ .. معي بهذا الأسلوب
- حقاً .. اقترب منها أكثر ليقول .. أي أسلوب تريدين مني أن أتبعه معك ؟؟؟

أي محاولة للاعتراض كانت سديم تنوي أن تقوم بها تلاشت مع رؤيتها لعلاء وهو ينهض من حيث كان متجهاً نحوهما .. سارعت بالدخول إلى السيارة وسط اندهاش ناصر لتغير موقفها السريع ..

تحركت السيارة في الشوارع الفرعية بعشوائية .. لم يخطر ببال ناصر وجهة محددة .. كان يحس بشعور لم يكن غريباً تماماً عنه .. شعور أحسه للمرة الأولى عند رؤيته لها ولم يزل هذا الشعور يسيطر عليه بقوة ومنذ أن لمح هيئتها المرتبكة بالشارع .. خلال الشهريين الماضيين كان قد رآها عدة مرات .. هو يعرف بأنها لم تلاحظ يوماً بأنه رغماً عنه وجد نفسه يرقب قدومها رغم محاولته ضبط نفسه لكنه لسبب مجهول .. لم يستطع .. رآها وقد غيرت طريقها لتسلك الشارع المجاور صدفة .. صدفة حرص هو على تكرارها .. ابتسم في داخله وهو يتصور رد فعل والدته إذا علمت بأنه هو ناصر يتصرف بعفوية هكذا دون تفكير أو تخطيط .. وعليه أن يعترف بأن هذه العفوية تنعشه تضيف له شيئاً يجعل الدماء تتحرك في عروقه بنشاط .. ألقى نظره على الفتاة الجالسة بجواره كان منظرها يثير الشفقة بجلستها المنكمشة وقد احتضنت حقيبتها وقطرات المطر قد بللت شعرها وملابسها انحنى باتجاهها ماداً يده إلى إلى

صندوق السيارة الصغيرليخرج لها منديلاً تجفف به وجهها ..

- اهدئي .. قالها بعصبية عندما لاحظ إجفالها .. أخرج المنديل ليعطيها إياه بصمت ..

تناولت المنديل من يده بتردد ضعيف وأخذت تجفف وجهها بينما غرق ذهنها في موجة من الأفكار المحيرة .. لم تستطع أن تنكر مدى فرحتها برؤية علاء مضروب ومهان أخيراً .. ولكن المشكلة تكمن في هوية من حقق أغلى أمانيها بأن تجد من يدافع عنها .. إنه هو .. الشاب السآخر الذي فرض نفسه على رسوماتها. ألقت ببصرها نحوه بعد أن تأكدت من أنه لا يلاحظ تفحصها له .. هي الآن تركب سيارته .. يا إلهي .. أي موقف وضعت نفسي فيه كنت قد هجرت السير في هذا الشارع ما

الذي داهني لأتراجع عن هجراني .. تنفست بعمق وأرجعت بصرها إلى حقيبتها تلهي نفسها بتثبيتها بحضنها عليها أن تحاول أن تخلص نفسها من هذا المأزق .. تكلمت ليخرج صوتها مصراً عندما قالت

- أنزلني فوراً
- ماذا. خرج ناصر من شروده
- أنزلني لا أدري ما الذي دهاني لأركب معك .. رغم محاولتها على الظهور بمظهر المسيطر الآن إلا أن تعنيفها لنفسها بدا واضحاً بصوتها
- ألا ترين بأنها صحوة متأخرة .. لا عجب بأنك ملاحقة من الشباب فتصرفاتك الغريبة تغريهم للتعرض لك

استدارت في جلستها لتواجهه وقد شهقت مستنكرة اتهامه

- كيف تجرؤ على هذا الكلام .. أنت لا يحق لك
- بل يحق أنا من ضيع وقته للتصدي لأحد ملاحقيك .. ألقى ببصره عليها متفحصاً ملامحها الجذابة وقد تلون وجهها بحمرة أجبرته على التمهل في تفحصه لتتلون نظراته بمشاعر ناقضت تلك التي بدأ بها حواره معها
- أنا لم أطلب منك التدخل .. أنت من فرض نفسه
- حقاً .. هل تريدين أن أعيدك لصديقك المفتون .. سأفعل إن شئتِ

- إنه ليس صديقي
- اسمك سديم أليس كذلك .. رمقها بنظرة أرادها ناقمة .. من أين يعرف اسمك إن كان غريباً كما تزعمين
- إنه .. إنه ابن خـــ .. خالي. كـــ
- ماذا .. التفت إليها صارخاً .. ابن خالك ..
- أجل .. إنـــ .. لماذا أوقفت السيارة هنا
- تجاهل سؤالها متعمداً .. إذاً لماذا هذا المشهد في الشارع .. ابن خالك تكلم معك لماذا كل هذه الضجة .. هل تحبين لهذه الدرجة لفت الأنظار إليك ؟؟؟

عادت الذكرى القديمة لتطل برأسها القبيح على حاضرها لتغرق عينا سديم بدموع نزلت لتحفر عميقاً في قلب ناصر الذي خفق مشفقاً من الحزن الذي يبدو بأن كلماته كانت من سببته .. تحركت

مستديرة بجسدها وقد مدت يدها في محاولة أفشلتها يد ناصر لفتح الباب استدارت بعنف نحوه وهي تقول بصوت يرتجف من شده إصرارها على كبت صوت بكائها

- دعني .. ماذا تريد مني
- آسف .. أنا آسف .. اعتذر بصوت خافت وهو لا يرى بأن ما قاله استوجب رد فعلها هذا

حرر اعتذاره الغير متوقع دموعها من عقال سيطرتها ليهتز جسدها ببكاء عميق جعل ناصر يرفع يده إلى وجهه ليفركه بعنف وهو لا يعرف ماذا يفعل .. تباً لغبائي .. عاود النظر إليها ليقول

- لا تبكِ أرجوك .

رفع يده لتصل إلى وجهها لتسقط أصابعه بعد تردد على وجنتيها لتمسح دموعها المنهمرة الدموع التي كادت أن تفقده صوابه همس مردداً بعد أن رفعت له عينين دامعتين مذهولتين

- لا تبكِ

كانت عيناه العسليتان وهما تتطلعان تعكسان عاطفة احتارت في وصفها .. كانتا حنونتين جداً ومتفهمتين .. أحست بإبهامه وهو يداعب وجنتيها بلطف .. وبوجهه يقترب منها أكثر .. تحركت بتوتر لتقع حقيبتها من حضنها ابتعدت عيناه عن وجهها لتسقط نظراته على الحقيبة المدرسية راقبت التغيير الذي حل على ملامح وجهه الرائعة والذي غزى حتى نظراته التي عاودت التطلع إلى وجهها وقد اختفت تلك العاطفة المجهولة التي سكنتهما

للحظات لتطل عليها نظرات احتقار عرفت بأنها لم تكن المعينة بها .. تراجع إلى مقعدة وغطى وجهه بكفه .. لم تعرف بماذا يفكر .. انحنت تلتقط حقيبتها ومدت يدها لتفتح الباب .. إنها تريد الهرب عليها أن تهرب توقفت يدها قبل أن تصل إلى الباب عندما سمعت صوته

- هل تحبين الحلوى

خاطبها ناصر ونظره مركزاً على السماء كأنه يبحث عن نجدةٍ ما

التفت إليه مندهشة لتقول بصوت متردد

- أر .. أريد الـ .. عودة إلى البيت

التفت إليها ينظر لها بتمعن و هو يقول رغم إدراكه بأنه يقود نفسه إلى هاوية بتعلقه بهذه الشابة الصغيرة

- هل تخافين مني؟ هل تعرفين لا يجدر بكِ ذلك أنا آخر شخص ممكن أن يسبب لك أو لغيرك أي أذى تستطيعين أن ..

صمت قليلاً وهو يعرف بأن معظم كلامه كان هذراً تماماً كمشاعره، أكمل أخيراً وهو يهز كتفيه بعجز عن مقاومة رغبات ألحت عليه بترك تعقله جانباً والانسياق لها ولو لمره واحدة بحياته

- تطمئني بقربي

كانت تصغي لما يقول وكلماته ترسم أسألة كثيرة أرهقت عقلها الصغير هل تخاف منه ؟ هي تخاف أن ترتكب خطأ تخاف أن تخيب أمل والدتها تخاف ثورة شقيقتها لكن هل تخاف منه ..

- هل تأتين ؟

أعاد طلبه بإلحاح أربكها .. هو أبداً لا يثير الخوف بداخلها .. هو .. هزت رأسها مجيبه على سؤاله قبل أن تجيب هي على نفسها

- إذاً .. ابتسم قلبه قبل شفتيه وقد حصل على إيمائة موافقة منها .. سآخذك لأفضل مكان يقدم أروع حلوى تحبين الشكولا أليس كذلك .. بالمناسبة .. اتسعت ابتسامة وهو يقول .. اسمي ناصر

الفصل الرابع

وقفت هدير وهي تتميز غيظاً في الممر قرب الباب الخارجي للبيت المتواضع غير مبالية ببرودة الجو أو زخات المطر المنهمرة .. تنتظر مجيء سديم الساعة قاربت الخامسة مساء وهي لم تأتي إلى الآن

- لماذا أنتِ دائمة التشكيك بسلوك سديم .. أنتِ تعرفين مدى براءتها

كانت هذه والدتها من تتكلم وقد نهضت من السرير بصعوبة بالغة وقد علمت نية هدير بتوبيخ سديم

التفت هدير إليها وقد ضجرت من برود والدتها

- إنها الخامسة أمي .. انظري السماء ودعت شمسها من وقت ليس بقصير ألستِ قلقة على ابنتك الحبيبة
- هناك فرق بين أن أقلق على تأخرها وبأن أشك بها بسبب تأخرها كما تفعلين أنتِ
- أنتِ تعرفين لماذا أشك بها .. ردت هدير دون أن تحاول الإنكار وقد عاودت النظر إلى الشارع بعد أن فتحت الباب الخارجي قليلاً
- لآخر مره هدير اتركي أختك وشأنها

أغلقت هدير الباب بعنف وتوجهت إلى والدتها لتقول لها ما كانت تنوي أن تخفيه عنها

إنها لم تعد تحتمل .. تريد أن تضع حداً لسديم .. وتخيلاتها .. لكنها ما إن أدركت مدى ضعف والدتها

حتى تراجعت عن عزمها لتتجهه إلى ركن الحديقة تجلب كرسياً لها وضعته في مكان يقيها حبات المطر المتساقطة بهدوء كي تجلس عليه لتقول بعد أن ركعت على ركبتيها وقد وضعت كلتا يديها على مساند الكرسي بصوت هادئ حملته ما تستطيع من إقناع

- أمي أنا أريد مصلحتها .. أنتِ تعرفين سديم و تهيؤاتها

زفرت الأم بضيق لتقول لابنتها

- متى ستقتنعين بأنها لم تكن تتهيأ .. أستغرب إصرارك على عدم تصديقها
- أمي!! لا تقولي بأنك تصدقينها .. لقد خسرنا دعم خالي بسببها

- ماذا تقولين .. تكلمت الأم والصدمة لاحت على وجهها .. هل كنت تريدين مني أن أضحي بأختك في سبيل استمرار خالك بالصرف علينا .. هل جننت!!
- أمي .. أنا

صوت الباب الخارجي وهو يفتح منع هدير عن إتمام كلامها .. دخلت سديم إلى البيت لترى والدتها وهدير في جلسة غريبة .. يا إلهي كلا ..

- أمي هل أنتِ بخير ؟ سألت سديم والدتها بلهفة بعد أن رمت حقيبتها أرضاً و أسرعت لتقف بجانب كرسي والدتها
- أين كنتِ ؟ نهضت هدير من ركوعها لتباشر بسؤال سديم

- ما بها أمي هل هي متعبة؟ .. بان القلق الشديد على سديم .. أمي هل أصابك مكروه ؟
- أنا بخير يا ابنتي اطمئني .. ربتت الأم على كف ابنتها الذي استراح على كتفها
- لا تتظاهري بالجزع .. أين كنتِ أجيبي

صمتت سديم لا تعرف ماذا تقول .. أخفضت رأسها بيأس والحيرة بين قول الحقيقة التي ستصدم والدتها وتسبب الثورة لشقيقتها وبين اختراع كذبة تتملص بها تتلاعب بها .. لكن أي كذبة تستطيع بها أن تغطي تأخرها .. لقد تأخرت كثيراً عن موعد وصولها إلى البيت وهي تعرف ذلك وذلك لم يكن ذنبها لقد أصر ذلك الشاب المدعو ناصر على ..

- تكلمي أين كنت ؟

عاودت هدير هجومها .. عضت سديم على شفتيها لا تستطيع مواجهة هدير أو والدتها التي وجهت لها ذات السؤال ولكن بطريقة أخجلتها من الاستمرار بالبحث عن أي كذبة تستر بها الحقيقة

- تكلمي يا ابنتي لا تخافي ..

بصوت حنون حاولت الأم تشجيع ابنتها على البوح بما تخفي .. رغم أن القلق جعل من صبرها وجبة شهية له لكنها حاولت أن لا تضغط عليها وهي تعرف مدى تأثير وجود هدير السلبي على سديم

- أمـ .. أمي .. بتلعثم حاولت سديم إعطاء جواب .. لقــ .. د .. كـ

بدأ الغضب يتأجج داخل هدير وهي ترى ارتباك شقيقتها .. إذاً الأمر صحيح .. يا إلهي .. سديم ماذا كنتِ تفعلين. عليها أن تتصرف هي تعرف بأن

أمها ستصدق أي كذبة تتفوه بها سديم .. لكنها أبداً لن تسمح بهذا .. لن تسمح بالتغاضي مجدداً عن أخطاء شقيقتها المسببة للمشاكل

- تكلمي .. كفي عن التلعثم وحاولي أن تكوني صادقة مرة واحدة بحياتك
- هدير!! صرخت الأم مستنكرة تهجم هدير على أختها التي شهقت عند سماعها اتهام شقيقتها
- أنا لست صادقة !! أنا .. أنا لن أكذب .. كيف لك أن ..
- قولي أين كنتِ .. بل مع من كنتِ ؟. قاطعتها هدير غير مبالية بشيء وكل تفكيرها منحصر بالتأكد من صحة ما سمعت عنها ..
- أمي من لها الحق بسؤالي وليس أنتِ

هيج جوابها غضب هدير التي أمسكت بذراع سديم بدون وعي منها لتقول بعنف

- بل لي كل الحق لأني ..

قاطعتها سديم وهي تسحب ذراعها بقوة من يد شقيقتها .. الذراع التي جُرّتْ اليوم أكثر من مرة علاء .. ناصر .. والآن هدير هي ببساطة لم تعد تتحمل الوصاية من الجميع .. الجميع الذين ليس لهم الحق بهذه الوصاية

- لأنكِ ماذا .. لأنكِ من تصرفين على البيت لأنكِ من يدفع ثمن الطعام والملبس .. هل تظنين بأني راضية .. هل حقاً تظنين بأني لا أتمنى بأن يكون لي أباً يتحمل مسؤوليتي .. أن أحس بعائلة تحتضني أن أشعر بأن حياتي طبيعية .. هل تعتقدين أني أستمتع

بتذكيرك إياي بكل لحظة بأنكِ صاحبة الفضل بكل شيء .. أنتِ واهمة .. أنا .. أنا لن أتحمل بعد الآن .. لن أستطيع أن أتحمل سيطرتك ومنيتك بعد الآن سأبحث عن عمل .. سأكسب قوتي بنفسي .. سأساعد أمي لكني أبداً لن أجرحها كما تفعلين .. أكرهكِ هدير .. لو تعرفين كم أكرهك

ألقت سديم ما بجعبتها وحررت نفسها من غضب تمركز بداخلها لأعوام طويلة .. ودخلت إلى المنزل مخلفة ورائها أماً تلقي بنظرات اللوم على هدير التي غرقت عينيها بدموع لم تستطع ذرفها لتقول بعد أن فاجأتها أختها بصورة لم تظن للحظة بأنها قد كونتها عنها

- كنت سأقول لأني الكبرى .. نظرت إلى أمها بيأس تبحث عن تفهم منها لتكمل بصوت مرتجف .. فقط لأني أختها الكبرى

صمت دام لدقائق حافظت عليه الأم كي تتيح لهدير امتلاك أعصابها وكفكفت دموعها لتقول بهدوء

- ماذا تقصدين بسؤالك سديم مع من كانت؟
- أمي .. أنا ..
- تكلمي هدير .. أسمعك
- وماذا يفيدني سماعك لي ستكذبينني وتصدقينها .. ردت هدير بيأس
- لن أكذبك هدير سأسمع منك ومنها
- لقد كانت بصحبة رجل غريب أمي؛ كان صوت هدير يعكس انزعاجها لم ترد أن تعرف

والدتها لكن رؤيتها لسديم بخرت عزمها، كانت معه بسيارته

- من أين عرفتِ ؟
- أنا .. أنا شاهدتها، بارتباك أضافت .. نعم شاهدتها بأم عيني وهي برفقته
- هل هذا كل شيء
- هاا .. تكلمت هدير بذهول .. ألا يكفي هذا قلت لك رأيتها برفقة رجل غريب ماذا تريدين أكثر

رمقت الأم ابنتها بنظرة متفحصة .. وهي تفكر ..

- ألم يخطر ببالك بأن تسألي سديم عن سبب ركوبها السيارة مع غريب .. أنتِ تتكلمين وكأنك معتادة على رؤيتها بهكذا مواقف ألم

يجدر بك معرفة أسبابها أولاً قبل اتهامها وشن الهجوم عليها ..

- كنت أعرف .. بسخرية ردت هدير .. كنت أعرف بأنك ستبحثين عن مبرر لتصرفاتها كالعادة

نهضت الأم من الكرسي بغضب وهي تقول بصوت منفعل قبل أن تتوجه إلى داخل البيت وإلى غرفة سديم بالتحديد

- أتعرفين هدير لو لم أكن أماً لكلتيكما .. لقلت بأنك لست شقيقتها .. حقاً أستغرب عداءك لسديم

تمتت هدير بمرارة ونظراتها تلاحق والدتها برجاء تفهم لم تتلقاه منها يوماً ..

- لو فكرتِ قليلاً لو استرجعت الماضي لعرفتِ بأنها سبب ضياع فرحتي .

***

فرش علاء سجادة الصلاة .. إنه آذان العشاء ..

- الله أكبر

كان جسده متوجه نحو الخالق سبحانه عز وجل .. قام من ركوعه ليعكف على تسبيحه المعتاد بعد صلاة العشاء والفجر فيردد لسانه في محاوله منه لإجبار عقله وقلبه لاستيعاب ما يتفوه به والإحساس برجائه ..

- أستغفر الله .. أستغفر الله

كان كغيره يتزلف بالعبادة في أوقات عرف بأنها أوقات مباركة فيها يغفر من الذنوب ما يغفر دون أن يدرك بأن التوبة هي فقط من تشرع أبواب

المغفرة .. استمر لسانه بالترديد وحواسه تتنافر في أفعالها وعقله لم يخرج من حالته المارقة والخطوط الحمراء ترتسم أمامه تتحداه كي يعود لاختراقها .. نهض من مكانه حيث كان في زاوية غرفته الفسيحة ذات التأثيث المكلف جداً .. ذهب إلى الثلاجة الصغيرة الموجودة في ركن آخر من الغرفة فتحها ليخرج منها قنينة ماء تروي ظمأه .. أحس بوقع أقدام قريب من غرفته التي تقع في آخر الطابق الثاني من البيت الفخم الذي يقطنه أهل الدار مع خدمهم .. طرقات باب ..

- تفضل

قطب علاء حاجبيه عند رؤيته لوالديه يدخلان معاً إلى غرفته، الغضب الذي يسكن ملامح وجه والده والحيرة التي تطل من عين والدته تعلمانه بأن

هناك شيئاً ليس على ما يرام هذا إذا ترك جانباً قدوم والديه إلى غرفته معاً!!

- مرحباً بني
- أبي، أمي تفضلا .. تفضلا

جلسا على الكنبة الخضراء التي تقع في وسط الغرفة الواسعة .. وقعت عينا الأب على سجادة الصلاة الممدودة ليقول باعتذار

- هل قاطعنا عبادتك
- كلا .. لقد انتهيت والحمد لله من أداء الفريضة
- الحمد لله .. صمت الأب قليلاً ليقول بعد أن حثته نظرة من زوجته .. هل رأيت سديم اليوم
- نعم رأيتها

- وماذا فعلت لها ؟ سألت والدته بلهفة لتصحح ما قالت بعد أن لاحظت تقطيبة ولدها الوحيد .. أقصد ما الذي حدث عندما شاهدتها ..
- لا شيء لقد رأيتها تسير تحت المطر فعرضت عليها الدخول إلى المعرض حتى توقف المطر
- هل هذا كل ما حدث ؟ سأله والده بإصرار

أطرق علاء برأسه إلى الأرض مفكراً .. سمع صوت والدته مستعطفاً يقول

- تكلم علاء .. قل شيئاً يا ولدي ..
- لا شيء أمي أنتما تعرفان سديم .. فزعت و ثارت .. هز رأسه بحيرة و ذاكرته تعيد له

تفاصيل ما حدث .. أخبرتها بأني اشتقت لها ولترف .. و .. أنتم تعرفون جنونها

- تباً للفتاة المجنونة .. تكلم الأب بغضب .. ألم أقل لك سابقاً أن تبتعد عن عمتك وبناتها ..
- أبي ..
- لقد اتصلت عمتك رقية تهدد وتتوعد .. تباً لتلك الفتاة التي فرقت العائلة
- أبا علاء اهدأ
- أهدأ ! وكيف اهدأ ؟!
- أبي أرجوك .. دع عنك الأمر سنتظاهر بأنه لم يحدث .

رمقت الأم ابنها وهو يتحرك ليلم سجادة الصلاة بنظرات تعكس إمعانها في التفكير لتقف فجأة وقد

وصلت أفكارها إلى حيث لا تريد .. صرخ قلبها .. أستغفر الله .. أعوذ بالله بينما قال لسانها

- سأذهب لأحث الخادمة على الاستعجال بتحضير العشاء ..

***

- ألو
- مرحباً حبيبي
- كيف حال فاتنتي
- بخير .. ردت مبتسمة
- بخير!! أعاد كلمتها بخيبة أمل .. هل تكوني بخير وأنتِ بعيدة عني .. تلون صوت عمران بمشاعر ماجنة .. ألم تشتاقي لقربي
- عمران!! غزى الاحمرار وجنتي بيداء وهي تعلم ما يرمي إليه .. كف عن هذا الكلام

تمدد عمران على سريره وهو ماسك لسماعة الهاتف وابتسامة سكنت ملامح وجهه كلها

- هل تعلمين أنا أود أن أراك الآن .. و
- ماذا .. ردت وضحكة خافتة ترنم كلماتها .. لقد كنا معاً قبل ساعات
- لا يكفي .. أريدك بقربي الآن .. انتظر جواباً منها همس .. بيداء ؟
- ألم يحن الوقت عمران ؟ ردت على سؤاله بسؤال
- ماذا تقصدين ؟
- أنت تعلم ماذا أقصد .. الأمر بيدك كي أكون بقربك دائماً كما تريد ..

ارتسم اليأس على وجه بيداء الفاتن وقد رد عمران بصمته على طلبها .. لكن لا .. لن تكون بيداء إن لم تحصل على ما تريد .. أحست بقدوم مازن فسارعت تقطع الصمت بخفوت ..

- علي الذهاب مازن قادم
- أعطِني إياه .. عاد عمران للحديث بعد أن وجد بمازن ذريعة كي ينهي الحديث بدون رد على كلامها
- ماذا !! هل جننت
- هههههههههههههههههههه ضحك على خوفها .. قولي له بأن عمران على الهاتف يريدك وكأنما اتصالي كان من أجله هو ..
- حسناً .. كما تشاء .

***

دخلت رقية إلى غرفة ابنتيْها .. لتجد سيدم بنفس الوضع الذي تركتها به متكورة على سريرها

تنهدت الأم بحزن وهي ترى نفسها عاجزة مرة أخرى عن حماية ابنتها .. تحركت باتجاه السرير لتجلس عليه مدت يدها تمسد شعر ابنتها بلطف لتتحرك سديم تلقائياً وتضع رأسها في حجر والدتها ابتسمت الأم والحزن يسكن أعماق روحها تكتمه بحزم مرنتها عليه السنين القاسية وبصوت حنون تكلمت

- صغيرتي .. لقد انتهى الأمر، اتصلت بخالك
- ماذا!! رفعت سديم رأسها لتنظر إلى أمها وقد تفاجأت بما سمعت
- ماذا يا ابنتي .. لا تستقلي بوالدتك
- أمي .. لا .. لا أقصد .. هتفت سديم محاولة أن توضح لوالدتها بأنها لم ترَها يوماً عاجزة لكن والدتها أسكتتها بإشارة من يدها لتكمل قائلة

- المهم بأني قد تأكدت بأن علاء لن يقترب منك مجدداً .. أرخت الأم بصرها قليلاً ثم قالت بعد صمت دام للحظات .. اتركي تلك الفكرة الحمقاء بشأن إيجاد عمل
- لكن أمي
- سديم .. برز الحزم بصوت والدتها .. الموضوع لا يقبل نقاش سأذهب للمطبخ كي أحضر العشاء وأنتِ أذهبي لأختك واعتذري منها
- أعتذر!! .. لمَ أمي أنا لم أخطأ .. أنـ
- بل أخطاتِ .. كلمتيها بقسوة لا تستحقها .. إن كنتِ تتهمينها بالمنية فأنت لم تفرقي عنها كثيراً وقد بدوت جاحدة ومنكرة لفضلها
- فضلها!!

- نعم .. ازدادت النبرة الحازمة وضوحاً بصوت رقية .. منذ سنوات وقبل أن يرحل والدك عنا نهائياً وإحجام خالك عن مد يد العون لنا وهدير تحملت المسؤولية .. مسؤولية تهرب والدك منها .. وعجزت بسبب مرضي من التكفل بها ..
- أنا أريد ما حصلت هي عليه أريد أن أعمل .. أر
- و ما الذي حصلت عليه هدير .. تكلمي .. منذ كانت بالعشرين اضطرت لترك دراستها الجامعية والعمل بأعمال عده لا تليق بها .. حتى استطاعت أخيراً إيجاد عمل في دائرة حكومية لا تشترط الدراسة الجامعية .. والآن هي في السادسة والعشرين السنوات تمر والحال كما هو .. صمتت رقية وقد

اتخذ تفكيرها مسارات عدة أوجعت قلبها لتنهض بهدوء لا يعكس إلا تظاهرها بالتماسك لتكرر بإيجاز .. اذهبي واعتذري لأختك.

***

دخل ناصر إلى البيت وهو يصفر لحناً مرحاً بعد أن ركن سيارته بالخارج .. كانت خطواته خفيفة بل تكاد تكون راقصة .. تسلل بهدوء إلى غرفته فآخر ما يريده الآن هو لقاء أي أحد من أفراد عائلته وخصوصاً والده .. رمى مفاتيحه على المقعد وألحقها بسترته رمى نفسه على السرير وفكره سارح بالساعات الثلاث التي قضاها برفقة سديم .. قطب حاجبيه وهو يذكر محاولاته في جعلها تفصح عن سبب نفورها من ابن خالها لكنه لم يفلح لقد أجابته بأنها خلافات عائلية قديمة لم يقتنع

بالتأكيد بتعليلها لكنه لا يستطيع أن يجبرها على البوح بأسرار حياتها لقاؤه معها اليوم لا يخول له أن يتدخل بحياتها وأن يطلع على محيطها .. ابتسم وهو يذكر ارتباكها عندما دخلا إلى ركن العناب الواقع في منطقة المنصور قرب تمثال أبو جعفر المنصور .. بدت كتلميذة وهي .. توقف قليلاً .. هي فعلاً تلميذة .. نهض من السرير سار بخطوات متوترة في أنحاء الغرفة توقف في منتصفها .. هو لا يريد بها سوء لكنه فقط .. فقط يحب .. يحب ماذا ؟ عكست له المرآة وجهاً متسائلاً .. لتجيب مشاعره التي زال الجليد عنها .. يحب فقط أن تجري الدماء بعروقه .. هي ببساطة من تجعل الدماء تجري بعروقه .. انتعش قلبه لذكرى الشعر الأسود والعينين المتلألئتين والفم المعقوف ببرائة تجذب الناظرين .. ليس فقط جمالها البريء من جذبه إليها لكن .. لكن ماذا؟؟ تحرك عائداً إلى السرير ليرمي بثقله عليه فرك وجهه بقوة وهو يحاول أن يميز سبباً أي سببٍ كان .. تنهد بضيق وهو يعترف أخيراً بأن هناك .. هناك مشاعر بدأت بغزوه هو عاجز عن تسميتها أو حتى معرفة سبب استهدافها له ..

الفصل الخامس

العائلة مجتمعة في غرفة الجلوس حاتم البالغ من العمر أربع سنوات ونصف يلعب بسيارته الصغيرة على الأرض، هدير تشاهد التلفاز بفكر شارد والأم تحيك شيئاً ما ربما حتى هي لا تعرف ما سيكون لكن عليها أن تفعل أي شيء يلهيها عن مراقبة القلق وهو يعبث بأعصابها .. منظر خادع؛ المكان يحوي أجسادهم لكنه أبداً لم يستطع أن يحوي مسار تفكيرهم .. حاولت سديم أن تركز على تدريس ترف مادة الحساب استعداداً لامتحان يوم غد

- أحسنتِ حبيبتي .. الآن قسمي كامل الرقم على ثلاثة

انسدل شعر الصغيرة الأشقر على وجهها وهي تنحي بكامل جسدها على كراسها تحاول أن تتم تقسيم الأرقام .. لحظات مرت لتعاود ترف النظر إلى وجه سديم ثم تعود إلى الكراس ثم تعود لتنظر إلى سديم التي كان كل فكرها مركزاً على الهاتف الموضوع على الطاولة الصغيرة بجانب الكنبة التي تجلس عليها والدتها .. لقد انصاعت لأمر والدتها واعتذرت من هدير التي التي فاجأتها بنهوضها من كرسيها لتقبلها على وجنتها .. لم تعرف سديم حقاً إن كان عليها أن تستغرب تقبيل هدير لها أم ما قالته لها بأنها رغم ما حدث هي أختها وتحبها، عن أي حدث تتكلم ؟ هل تقصد رؤيتها لها برفقة ناصر بسيارته .. لكنها رغم اعتذارها لم تتراجع عن فكرة إيجاد عمل لقد سايرت والدتها لكنها مصره على أن تعمل، مدت يدها إلى جيب منامتها

تتأكد من وجود الورقة الصغيرة بمكانها .. بمجرد أن ينام الجميع ستتصل به .. أخرجتها من أفكارها لمسات على ذراعها

- هل أكملت حبيبتي ؟

أخذت سديم الكراس لتجد بأن الأرقام على حالها نظرت إلى ترف مستفهمة

- ماذا صغيرتي .. مدت يدها تمسد شعر شقيقتها الناعم .. ألم تفهمي علي؟

عضت ترف على شفتيها ونظرت إلى سديم لتنهض من مكانها وتقترب من أذن سديم لتقول هامسة

- إن المعلمة تقول بأن علي أن أشتري كتاب حساب آخر
- ماذا .. نظرت إليها سديم مستغربة .. ألم أشتري لك الكتاب !!

حملت الصغيرة الكتاب وقلبت حتى وصلت إلى الأجزاء الأخيرة لترفعه إلى سديم وتقول بصوت خافت وقد احمرت وجنتيها

- لقد مزقه رامي؛ أجلسته المعلمة بجواري لأنه مشاغب كي يعقل وعندما أخرجت الكتاب من الحقيبة سحبه من يدي بقوة فتمزق .. أنا آسفة

قلبت سديم الكتاب تتفحص الصفحات الممزقة .. يا إلهي لم يكن ينقص إلا هذا .. ألقت ببصرها ناحية هدير مستحيل أن تدع الصغيرة تطلب منها النقود، ترف تخاف هدير وعصبيتها هي أخبرتها بذلك، وقد وعدتها بأنها ستتكفل بمصاريف مدرستها لقد أخذ تجميع ثمن الكتاب ادخار مصروف ثلاثة أسابيع!

- لا عليكِ يا صغيرتي .. سأشتري لك كتاباً آخر .. أكملي درسك الآن

قبلت رأس شقيقتها الصغرى وقد ازداد عزمها على إيجاد عمل أي عمل يوفر لها مورد ولو بسيط يساعد عائلتها لقد أقسمت سابقاً بأنها لن تجعل حياة شقيقيها الصغيرين تعيسة كحياتها هي بفضل هدير.

***

جلس عمران على أحد المقاعد في الحديقة الواسعة الساعة العاشرة الآن هو يريد الخروج ووالده بالمنزل يعد عليه أنفاسه .. تباً .. لقد اتفق مع مازن على أن يذهب إلى بيته ليتناول العشاء في بيته .. هناك سيرى بيداء، ابتسم لذكراها عليه أن يعترف أنه لم يمل حتى الآن من صحبتها مرحة

وذكية كانت تعرف كيف تلاعبه وهو يعشق مكرها وطريقتها في استدراجه إلى إعطائها وعداً هو لا ينويه .. ضحك بصوت خافت؛ لن تكون آخر واحدة يرافقها وتتصور بأنها ستختلف عن غيرها و بأنه سيتقدم لخطبتها .. هو لا يشعر بأنه قد أخطأ بحق أي واحده منهن لم يجبر أي واحدة على مرافقته وأبداً لم يحاول مع من لم يجد منها ميولاً للعبث كميوله هو، يعترف بأنه عابث وإنسان لا يعتمد عليه ويشكل خيبة أمل كبيرة لوالديه لكنه لا يمكن أن يكون كما يريدون منه أن يكون، هو يرفض أن يكون مُسَيّراً كناصر الذي يبدو أحياناً كثور مربوط بساقيه .. بدون حريته سيكون أي شيء سوى نفسه وعليه سيذهب الآن إلى منزل مازن وحتى إن وصل متأخراً لا بأس بذلك سيشرب قهوته هناك أما غضب والده إن علم .. هو سيحرص أن لا يعلم لكن إن علم

.. هز كتفيه بعدم اكتراث .. سيقلق بشأنه في وقت آخر .. تحرك خارجاً بصمت دون أن يبالي بترك خبر لأحد ..

- أوف .. أرجعت ناهدة سماعة الهاتف بانزعاج
- ألم يرد أيضاً .. استفسر الحاج عبد الرحمن من زوجته التي عادت إلى مكان جلوسها
- كلا .. إنها المره الثالثة التي لا يجيب بها أحد
- ربما هم أحد معارف ابنك
- من ؟ عمران ؟
- ومن غيره .

- كلا .. ردت ناهدة وهي تلعن بسرها تأففها الذي فتح موضوع عمران مجدداً .. ولماذا عمران
- ناهدة .. بان الضيق بصوت الحاج ..
- حسناً .. حسناً يا حاج كما تشاء

خرج ناصر من الحمام الملحق بغرفته وهو ينشف وجهه وشعره، كان قد سمع رنين الهاتف لأكثر من مره وهو كما والديه لم يخطر بباله سوى أن المعني بتلك الاتصالات هو عمران .. اتجه إلى خزانة الملابس كي يرتدي أحد بناطيل الجينز التي لم يكن يرتديها غالباً سوى داخل البيت فمكان عمله لا يلائمه سوى البدلات الأنيقة الرسمية التي تخنقه رغم مواظبته على ارتدائها سنوات طويلة، رن جرس الهاتف مجدداً تجاهله لظنه بأن أحداً ما بالأسفل سوف يرد لكن الرنين استمر وقتاً أطول

من المفروض، ألقى ببنطاله على كتفه وتحرك إلى الطاولة قرب سريره ورفع سماعة الهاتف قائلاً بنفاذ صبر

- ألو .. صمت أثار انزعاجه ليكرر بغضب .. ألو
- أ .. ألـ .. ألو

صوت أتاه عبر الأثير أزال ارتباكه الغضب الذي شعره منذ لحظات

- نعم؟ .. عقد حاجبيه وقد راوده خاطر يكاد يكون مستحيلاً .. من معي ؟
- أنـ .. أنا .. هل أنت ناصر؟

اختل توازنه ليقع جالساً على سريره وقد ازدادت عقدة حاجبيه وشحذ ذهنه بأفكار مرتابة ليقول أخيراً: سديم !

عاد الصوت الفتي بتوتره للتكلم: نعم ..

سمع صوت أنفاسها التي لا تقل ارتباكاً على صوتها، رفع نظره إلى ساعة الحائط إنها العاشرة والنصف ليلاً ! ماذا تريد منه ؟ صحيح هو أعطاها رقم هاتفه لكنه أبداً لم يتوقع اتصالاً منها ليس في نفس اليوم على الأقل .. هل حدث شيء لـ ..

- ما الأمر سديم .. هل أصابك مكروه ما ؟ طال صمتها وازدادت أنفاسها تسارعاً كاد يحس بخوفها يلمسهـ بتوجس أعاد سؤاله بحزم هو جزء منه .. ما الأمر تكلمي؟
- أنا .. أنا فقط
- تكلمي .. أنت لم تتصلي في هذا الوقت المتأخر كي ترددي أنا .. أنا كبلهاء

سمع شهقتها .. ضم قبضة يده بقوة وقد أدرك بأنه كان فظاً معها .. لكن خوفاً تملكه من ابن خالها قد يكون تعرض لها مجدداً، لم يرتح أبداً لذلك الشاب هو رجل وقد أدرك بأنه يضمر لها نية سوء وخوفها الظاهر منه حفر عميقاً بداخله، هيئتها المتربعة تلح على ذاكرته بإزعاج .. بإزعاج شديد

أمسكت بسلك السماعة تلويه بعنف .. وهي تشعر بمدى غبائها ما الذي يظنه بها الآن وهي تتصل به بوقت متأخر وهي لا تكاد تعرفه ؟؟ أكيد سيظنها فتاة مستهترة عادتها أن تتصل بالشبان ليلاً .. تجولت نظرتها في جدران البيت القديم .. أحست بها تكاد تطبق على أنفاسها تخنقها حاجتها للتنفس للنجاة من واقع حطم تعقلها وأزال موانع المحظورات وحرف المسارات وأربك رؤيتها .. هل رغبتها بالتنفس تجعل منها مذنبة !

- أريد أن أطلب منك معروفاً

حمداً لله .. أطلق زفيراً لدى سماعه صوتها مجدداً وارتخت قبضة يده ..

- هل .. هل سمعتني
- نعم .. تكلمي، رد بإيجاز وهو يحاول أن يحزر ما الذي تريده منه
- أنا .. أنا .. وصله صوتها وقد ازداد ارتباكه
- أخبريني، حثها مشجعاً لها على البوح بما تضمر بداخلها

تنهدت بعمق وهي تحاول أن تجد الكلمات المناسبة لتخبره برغبتها تنفست بهدوء علها تتخلص من توترها لتقول

- أريد .. أريد أن أراك يوم غد

ما إن تكلمت حتى سارعت برفع يدها بذعر تغطي فمها وهي لا تصدق بأنها تفوهت حقاً بما سمعت أذنيها .. من أين خرجت هذه الجملة التي ناقضت جميع أفكارها .. يا إلهي ما الذي سيظنه بي

- ماذا ! هتف وهو لا يصدق ما سمعه

- لا تظن بي السوء .. بصوت يشارف على البكاء .. أرجوك

لم يعرف ناصر إن كان ارتجاف صوتها أو شيئاً آخر قرر أن ينضم إلى خانة الأحاسيس المبهمة جعلته يتفوه بما يخالف قناعاته لكن ما هو متأكد منه أنه كان صادقاً بقوله

- لن أفعل .. لا أعرف لماذا لكني لن أفعل

تنهيدة ارتياح وصلت إلى أسماعه استحضرت له بسهولة خيال المتكلمة ليسرح رغماً عنه بتمعن خيالها لتقول بعد لحظات بصوت مرتجف ببكاء مكتوم

- شكــ .. شكراً لك

فيمد بلحظة جنون يده محاولاً لمس هيئتها الوهمية لتسقط ذراعه بحجر خيبة أمله وليحس بحمق تصرفه .. و يقول أخيراً بصوت مترجي

- لا تبكِ .. فقط لا تبكِ

صمت طال لحظات لم يقضِ على سكونه سوى دقات قلبه المتسارعة وهو يصغي لنشجيها المكتوم

- يوم غد .. بعد خروجك من المدرسة سيري بطريقك المعتاد .. وأنا سأجدك

***

واصلت بيداء تحديقها إلى ملامح وجهها وجسدها الأنثوي المغري المنعكس على المرآة .. ماذا عمران هل يعقل بأني لا أعجبك !! مدت يدها تسدل بعض خصلات شعرها الكستنائي الفاتح لتسقط على لهيب عينيها الخضراوين بدلال مارق وهي تحاول أن ترصد عيباً واحداً ولو صغيراً بملامحها المتكاملة .. لتبتسم بغنج وقد عجزت عيناها المتفحصتان أن تجدا العيب المزعوم .. لا بأس عمران إن لم يكن اليوم فسيكون الغد .. الغد القريب الذي سأراك فيه راكعاً عند قدمي تتغنى بحبي وبجمالي الذي أدرك تأثيره عليك لن تستمر بخداع نفسك طويلاً .. وإن

حاولت سأجد طريقة ما تجبرك على أن ترى وأن تدرك ما أنت غافل عنه .. لن أصبر عليك طويلاً .. صدقني لن أستطيع أن أصبر طويلاً .. رنين جرس الباب أخرجها من تأملاتها، سمعت خطوات مازن الذي كان قد استعد للخروج بعد أن يئس من قدوم عمران فوصلت إلى مسامعها ضحكات مغرورة قد أكدت لها هوية القادم بعد أن سمعت همهمات بعيدة لم تساعدها على معرفته

ربت مازن بود على كتف رفيقة وهو يقول بعتب

- لقد تأخرت
- آسف يا صديقي .. رفع عمران يده بعجز .. أنت تعرف والدي وتسلطه
- الذي أرى بأنه لم يجدِ نفعاً. أكمل مازن بصوت ضاحك

ضحك عمران وهو يدرك بأنه إن لاحظ والده غيابه سيقع في ورطة كبيرة لكنه اتكل كالعادة على تستر والدته .. ستضمن له حجة تبرر عدم تواجده، جلس هو ومازن في غرفة الضيوف

- انتظر سأسخن لك العشاء بنفسي والدتي نائمة

سارع عمران بالاعتراض

- كلا .. كلا قهوة تكفي
- لكن
- دع عنك الالحاح فقط قهوة نحتسيها بسرعة لنخرج .. صمت للحظات ليردف وهو يغمز مازن .. لقد أعددت لك مفاجأة

تغيرت ملامح مازن الرافضة اكتفاء عمران بالقهوة دون العشاء لترتسم ابتسامة مستهترة على شفتية

- هل تعني؟

انحى عمران مقترباً من صديقة ليهمس

- نعم.
- أين ؟ سأل مازن بلهفة أضحكت عمران
- في فندق عشتار ..
- هل .. هل تقصد فندق عشتار شيراتون !! يا إلهي كيف ..

صمت مازن وهو لا يستطيع أن يصدق بأن عمران يدعوه فعلاً لقضاء ليله بعشتار شيراتون ليلة حمراء هناك !!!! عاود التكلم وهو ينظر إلى صديقة يحاول أن يستوثق من صحة كلامه

- إنه مكلف وباهظ الثمن بطريقة خيالية أنت لا تستطيع تناول وجبة طعام هناك كيف بقضاء ليلة ؟!

هز عمران كتفيه بنزق ليقول والغرور ينضح بصوته

- من لا يستطيع هو أنت .. أما أنا .. تراجع بكتفيه حتى استند على الأريكة بظهره

.. أكثر من قادر وأنت تعرف هذا .. الآن كفى تضييعاً للوقت حتى قهوتك لا أريدها اذهب وغيرملابسك ارتدي شيئاً مناسباً، ابحث جيداً عن ملابس تليق بالمكان كي نخرج هيا

تحرك عمران ليضرب كتف صديقه حاثاً إياه على الاستعجال

- أعطني نصف ساعة فقط أستحم بها وأغير ملابسي .. رد عليه مازن وهو يخرج من غرفة الضيوف مسرعاً

- خذ راحتك .. ابتسم عمران لدينا وقت

ثوانٍ معدودة انتظرها عمران لينفذ الفكرة المجنونة التي راودته، نهض من مكانه ليتجه نحو الباب الذي خرج منه مازن وقف يتفحص مداخل البيت الصغير التقليدي التصميم كما بيوت حي الإسكان القديمة كل الغرف تطل على مساحة وسطية سقفها زجاجي وتحت السقف مباشرة حيز مزروع بشجيرات الورد الجوري التي تحتل معظم البيوت البغدادية لا ينافسها في حظوتها لدى البغداديين سوى القرنفل والقداح وهناك بعد أن تتجاوز نظراته المطبخ الذي بدا فارغاً على الجانب .. السلم الضيق الذي يقوده إلى الطابق العلوي

- ربما يوماً ما تجديني في غرفتك

ضحكت بدلالٍ متحدي

- هاا لن تستطيع أن تفعلها

اقترب منها أكثر .. ليقول

- وماذا أن فعلتها .. ما ستعطيني بالمقابل ؟
- لن تفعل ..لن تجرؤ

ألح وكلامها كان كقطعة قماش حمراء تلوح أمام ناظريه مغلقة أبواب العقل بأقفال طائشة

- وإن فعلت ؟
- الذي تريده ... سأعطيك كل الذي تريده

ابتسم بعبث مدركاً المخاطرة التي هو يوشك على خوضها .. وتحرك نحو السلالم متسللاً كلص طمع بأثمن ما في البيت .. شرفه !!

الفصل السادس

رمت بيداء بنفسها على السرير وهي في قمة الانزعاج، عمران بالأسفل ولكنها لا تستطيع أن تراه بسبب مازن الذي حظر عليها الخروج من الغرفة بوجود أحد أصدقائه، حاولت التسلل حتى الدرابزين لتسترق النظر ليتزامن خروجها من غرفتها بخروج مازن من غرفة الضيوف لتعود مسرعة خوفاً من أن يلمحها .. تجولت نظراتها في زوايا غرفتها المتواضعة الأثاث والتي تمقت كل ركن فيها، كانت هذه الغرفة بالسابق تعود لمازن بعد وفاة والدها قبل أربع سنوات ومازن أصبح هو المسؤول ولو ظاهرياً على البيت وهو قد قرر إجراء تغييرات عدة منها استبدال غرفتيهما فأخذ غرفتها في الطابق الأرضي بحجة أن غرفة الطابق العلوي تضمن العزلة التي يفترض بالفتاة الحصول عليها .. لكنها تعرف بأنه لا يفعل ذلك إلا لإبعاد احتمال رؤية أحد أصحابه لها، كأنها تهتم بهم، فعلاً هؤلاء الذين لا يقلون حماقة عن أخيها، أما عن الحركات التي تقوم بها بحضوره وحضورهم فهي لتثير غيظ مازن فقط .. ابتسمت بمرح وهي تتذكر كم مرة ومرة عنفها مازن وحاول حتى ضربها بسبب تصرفاتها التي تكاد تبدو عفوية غير مقصوده، فهقهت بسخرية وهي تعرف بأنه لم يستطع أبداً أن يثبت شيئاً عليها فقد كانت تجيد تمثيل دور المظلومة التي يستفز أمها للدفاع عنها .

عاد التركيز ليحل محل المرح العابث وقد خطر ببالها .. فقط هو أثار اهتمامها .. حركة خفيفة عند الباب أجبرت بيداء على الخروج من تأملاتها تحركت محاولة الجلوس باستقامة من على السرير وهي تتوقع بأن والدتها من ستدخل لتنهض بفزع وهو تهتف بصوت مخنوق

- عمران !!!

ابتسم عمران وهو يتفحص بيداء بنظرات عابثه مستمتعاً بالذعر الذي بدا واضحاً على وجهها

- كيف حال فاتنتي

- عمران يـ .. يا إلهي كيف دخلت إلى هنا

تحركت بسرعة إلى الباب مدت رأسها بخوف تنظر بأرجاء المكان خوفاً من أن يقرر مازن الظهور فجأة كعادته، لا يوجد أحد .. حمداً لله .. عادت

إلى الغرفة مغلقة الباب خلفها مسندة ظهرها على خشبه وهي تلهث

لم يتمالك عمران نفسه فأطلق ضحكة عالية جعلت بيداء تتحرك بسرعة

- اششششش .. ضغطت بيدها على فمه كي تمنع ضحكاته وهي ترتجف خوفاً استدارت برأسها نحو الباب خلفها مرخية السمع وكل تفكيرها منحسراً على التقاط تحركات أخيها بالطابق الأرضي .. يا للورطة سيقتله إن عرف مازن، سيقتله ويقتلها .. فكرت بذعر

استغل عمران انشغالها فأخذ بتقبيل كفها التي استقرت على شفتيه، التفت بيداء إليه وقد تلونت بشرتها البيضاء بحمرة قانية وحاولت إبعاد كفها لكن عمران لم يتركها وقد وجد الفرصة التي

يتحينها منذ المساء والتي جعلته يجازف بخروجه من البيت، سمح لها بسحب كفها من يده التي زادت من ضغطها على شفتيه ليحيط خصرها بذراعيه ويقربها منه وهو يهمس

- اشتقت لك

- عمران .. همست بيداء بتوتر .. ما .. ما الذي تفعله

حاولت بيداء دفعه بعيداً عنها لكنها لم تستطيع حاولت مجدداً وخوفها تضاعف

- عمـ .. عمران تعقل .. ما .. مازن

زاد من احتضانه لها وهو يقول بصوت أثقلته الرغبات الشائنة

- لا تقلقي حبيبتي سيبحث أخاك طويلاً عما يرتديه .. ركزي أنتِ معي!

وقت مر غرق كلاهما فيه باتباع أهواء مارقة راقصة على إيقاعٍ ماجن لحنه شيطان طَرِبَ بأخطاء بني آدم ليغوصا أكثر فأكثر في اتباع خطى أشهر المعصيات التي كانت ومازلت تحدد هوية مستلذيها

***

- بسم الله

رفعت رقيه حاتم من حضنها كي تضعه على السرير الذي تشترك به مع الصغيرين .. وضعته بالجانب الأيمن منه وترف تستقر بالأيسر وهي برغبة ولديها تكون في وسطهما كي يحظى الاثنان بأحد ذراعيها كي يسند رأسه الصغير عليه .. سديم؛ تنهدت الأم بضيق لم ترضَ أبداً عن ركوبها مع الرجل الغريب بسيارته .. هي تثق بابنتها لكنها ما زالت فتيه رغم الحياة الصعبة لكنها ليست ذات

تجربة تؤهلها لاتخاذ خطوات صائبة، فطرتها السليمة قد تضيع وسط رغبات ابنتها بالتخلص من وضعٍ مزرٍ، ولولا وجود علاء في وسط أحداث يومها لكان لها تصرف آخر معها، تحولت بنظراتها بضيق نحو الصورة الصغيرة لزوجها الغائب والتي تعمدت الاحتفاظ بها -رغم اعتراض هدير على وجود أي شيء يذكرهم به- كي لا ينسى الصغار والدهم والموضوعة على الطاولة الصغيرة القريبة من السرير تطاولت بيدها حتى وصلت إليها وأخذتها .. تفحصت الملامح الوسيمة لزوجها محمود، وسامته وشخصيته المرحة المتحررة أفقدتها عقلها وجعلتها تعارض والديها وتصر على الزواج منه رغم فقره هي ابنة العائلة المحافظة الثريه تركت كل شيء خلفها وتبعت نداء قلبها وتزوجت بالغريب الذي لم يكن أحد يعرف عن أصوله شيئاً، وهذا كان أكثر من مرفوض في ذلك الزمان وقبل سبعة وعشرون عاماً حيث لم تكن عائلة تقبل بتزويج ابنتها لشخص غير معروف انتمائه القبلي وأصوله إلى أين ممتدة، لم يكن لأي شخص قبول في المجتمع إن لم يُعرف لأي غصن من شجرة العشائر العراقية ينتمي غصن يضمن فرده ويتعهد به .همست بصوت عكس خواء روحها الذي خلفه غياب الزوج

- محمود أين أنت ؟ هل وارتك المسافات عن ناظري أم وارك الثرى ولم أعرف لك قبراً !!

أعادت الصورة إلى مكانها واستلقت بحركات هادئه لا تعكس أبداً خواطرها بمكانها بين ولديها مدت ذراعيها لهما تقربهما إليها وتقبل رأسيهما وقلبها يعدهما بأنها لن تكون كوالديها، لن تنبذهما

لمجرد ارتكابها خطأ عدم الإصغاء إليهما، ستتحمل معهما وستساندهما كما يجدر بالأم أن تفعل.

أما هدير وسديم فهي لا تعرف متى سينتهي العداء بينهما أو إلى أين سينتهي بهما!

***

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .. يساراً .. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

رفع الحاج عبد الرحمن يديه متضرعاً لله سبحانه عز وجل داعياً إياه أن يتمم عليه نعمته وأن يحفظ له عائلته وأن يهدي ولده عمران .. مد يده يلملم سجادته لتسبقه ناهدة إليها

- صلاة مقبولة يا حاج

- تقبل الله منا ومنكم .. تحرك متجهاً إلى الأريكة التي تستقر بأحد زوايا الغرفة الواسعة جداً المؤثثة برزانة تناسب شخص الحاج، نظر إلى زوجته بعين متفحصة وقد لاحظ اضطرابها
- ناهدة كل شيء على مايرام
- نعم .. ردت بارتباك .. طبعاً يا حاج
- اممم .. أين كنتِ ؟
- ذهبت لرؤية ناصر هو .. هو لم يتناول العشاء فذهبت للاطمئنان عليه
- قلقتِ على ناصر!
- نعم ولم لا
- ليس لسبب ..

استمر بتمعنه وهو يدرك متى تكذب زوجته عليه ليقلب شفتيه مضيفاً ..

- ناصر لم يثر القلق بنفوسنا أبداً .. أنتِ تعرفين من هو المقلق لماذا لم تذهبي للاطمئنان عليه ؟ هو أيضاً لم يتناول العشاء معنا

نظرت إليه وقد أوشك أن يتوقف قلبها خوفاً من أن يقرر الحاج الذهاب لغرفة عمران حيث كانت هي ولا يجده

- من قال أني لم أذهب .. عمـ .. عمران نائم

رفع نظره إلى ساعة الحائط ثم عاد ببصره إلى زوجته وهو لا يريد أن يضايقها لكنه تمنى أن تتحلى بالصرامة قليلاً بتعاملها مع عمران الذي أفسده دلالها له

- إنها الحادية عشر تريدين أن تقولي بأن عمران ليس فقط بالبيت إنما نائم أيضاً ! أرجوك ناهدة

- نعم يا حاج .. هل تشكك بكلامي !! اذهب بنفسك لترى إن أردت .. بعد كل هذا العمر عبد الرحمن وتكذبني لم يكن هذا عشمي بك

رفع نظره للسقف وهو يدرك بأنها ما إن دخلت بعتبها فإن حديثهما سينتهي حتماً باعتذار يقدمه لها، وهو وهي يعرفان بأنها لا تتبع هذا إلا لتلهيه عن السؤال عن عمران

***

جلس علاء على كرسي قرب طاولة الطعام في المطبخ ينتظر أن تلبي الخادمة طلبه بإعداد وجبة عشاء متأخرة .. كانت سهيلة الخادمة تتحرك أمام عينيْه المتفحصتين بطرف خفي .. لم يكن يبدو عليه شيئاً مما يفكر به، كان ساكناً تماماً، أنفاسه

ذات وقع رتيب فقط أفكاره .. أفكاره وأشياء أخرى يفشل دائماً في كبحها تدور وتدور وتدور مدوخة إياه في دوامة من الأحاسيس الغريبة تلك،
الأحاسيس التي تتلون بها روحه فترهقها .. كلا ! .. هي لا تلون روحة فقط بل خلقت روحاً أخرى تسكنه !!!

وضعت سهيله الأطباق المتنوعة الأصناف من الطعام على الطاولة أمام علاء وهي ترجوا بأن يكون راضياً عن صنع يديها

- تفضل سيدي ..

ردت بتهذيب اعتاد عليه دون أن يرفع بصره إليها .. أو هكذا ظنت هي!

- شكراً لكِ أتعبتُكِ ..
- العفو سيدي

ردت بخجل .. وهي تفكر كم هو طيب هذا الـ .. رجل الذي يشيع وجوده الاطمئنان في نفسها ..

كانت تكن له احتراماً عميقاً فمنذ أشهر عده بدأت العمل ببيت السيد زاهر والد علاء بوساطة من ولده الطيب الذي عرفته بالصدفه حيث كانت تدور على محلات الشارع الذي يقع فيه معرض الأثاث الذي تملكه عائلتهم وهي وابنتها الصغيرة تبحث عن معونة فقدم لها فرصة للعمل الشريف كخادمة في بيتهم .. حمداً لله .. لقد وجدت وصغيرتها الأمان !!!!

- أخبريني سهيله
- نعم سيدي؟

رمقها بنظرة سريعة ليعود ببصره إلى الأطباق أمامه وهو يزدرد طعامه

- كيف حال الصغيرة
- علياء .. بخير .. بخير والحمد لله

- جيد .. لم تحضريها معك إلى داخل البيت بالآونه الأخيرة ولم أرها تلعب في الحديقة منذ أيام .. فـ ..

صمت وقد عاود النظر إليها وترقب جوابها، بدا كأنه يخوض نزاعاً ليظهر بوضوح في نظراته التي أسدل عليها جفينه ليكتم تساؤلاتها ليكمل قوله ..

- فظننت بأن سوءاً ما أصابها

تهللت تقاسيم وجهها فرحاً باهتمامه بابنتها .. كم هو طيب

- كلا .. كلا سيدي فقط هذه أول سنة لها في المدرسة وأريدها أن تتعلم الاهتمام بدورسها .. ربما ..

واصلت ثرثرتها دون أن تلاحظ التعبير المرتاح الذي سكن ملامح وجهه وعينيه

***

ابتسم مازن راضياً عن مظهره .. إنه يبدو بشكل يليق إلى حد ما بالمكان الذي سيصحبه عمران له .. نظر إلى ساعته لقد استغرق تقريباً ساعة بين استحمام واختيار ملابس، لا بد أن عمران قد ضجر من انتظاره، ضحك بسره عليه أن يتحمل، ألم يطلب منه أن يهندم نفسه .. تحرك خارجاً من غرفته متجهاً إلى غرفة الضيوف حيث ترك صديقه

- آسف يـ ..

صمت مازن عندما وجد الغرفة فارغة قطب حاجيبة هل يعقل بأن عمران تركه وذهب، جلس على الأريكة وهو يستغرب تصرف صديقه لم يسبق لعمران أن يتركه هكذا دون أن يعلمه واليوم هو بدا على استعداد لانتظاره ترى .. لم يستطع أن يكمل أي تساؤل طرح بداخله .. أين ذهب .. لكن لا .. تحرك مسرعاً خارجاً من الغرفة ليتجه بخطوات شبه راكضة إلى الطابق العلوي .. مستحيل ما يفكر به مستحيل لكنه لا يملك إلا أن يتأكد هل يعقل .. كلا

.. كلا أبداً، لم يكد يخطو عدة خطوات حتى سمع صوتاً صادراً من المطبخ الواقع بجانب السلم حول خطواته إليه يقوده الفضول، والدته نائمة بيداء ربما لكنها ..

- عمران .. ماذا تفعل هنا !!

نظر إليه عمران مبتسماً بارتباك لم يلحظه مازن وقال

- لقد تأخرت كثيراً ..

أشار إلى ما بيده برأسه

- فقررت أن أصنع القهوة حتى تنتهي من تهيئة نفسك .. وأرى بانك نجحت، تبدو فعلاً من أبناء الأثرياء

رغم الارتياح الذي غزا مازن لدى رؤيته عمران بالمطبخ وتلاشي تلك الأفكار الغريبة المستهجنة

التي احتلت لثوانٍ كاملة عقله لترهق كل عصب بجسده لم يتمالك من القول معترضاً

- عمران أنت صديقي وأنا أثق بك، لكن ليس لك الحق بالتجول في البيت هكذا
- مازن أنا

قاطعة بحزم ولده قلق الثواني المهلك

- إنها حرمات كل منزل أطلب منك احترامها

أخفض عمران رأسه وقد رأى وجهٌ آخر لمازن لم يعرفه سابقاً

- على مهلك يا رجل .. آسف جداً .. هيا هل نذهب

تحرك عمران وهو واثق بأن مازن لن يلبث بالتحرك خلفه كالعادة

- لقد غيرت رأيي

توقف عمران ليلتفت إليه قائلاً بتعجب

- هل ترفض الذهاب معي لشيراتون !!
ابتسم مازن عند ملاحظته الذهول ينطق بوجه عمران

- نعم .. لا أود الذهاب.
بعد وقت وقف مازن بقرب سرير شقيقته بيداء يرمقها بعطف وعيناه تعكسان ندماً لشكه بها، مد يده يمسد على شعرها وهبط بشفتيه مقبلاً رأسها بخفة حريصاً على أن لا يوقظها من نومها قائلاً بهمس

- آسف بيداء لشكي بك .. آسف جداً
ابتعد بخطواته وأغلق الباب من خلفه لتصدر شهقة مكبوته من بين شفتي بيداء المترجفتين

- يا إلهي ما الذي فعلته
وأجهشت ببكاء من اغتالت بيدها .. .. شرفها !!!!

***

حديقة كبيرة .. وقفت بوسطها تنظر إليها بإعجاب شديد .. صغيرة، كانت صغيرة جداً، مدت يدها تقطف زهرة .. وصلت إليها .. يد كبيرة أمسكت بها .. تعاليْ .. تعاليْ معي جلبت لك فستان سندريلا .. ابتسمت له، تبعته .. تغيرت الأماكن وتغير هو .. التصقت بالحائط مرتعبة .. دعني .. دعني .. لكن يديه استمرت بمهاجمتها.

الفصل السابع

حديقة كبيرة .. وقفت بوسطها تنظر إليها بإعجاب شديد .. صغيرة، كانت صغيرة جداً، مدت يدها تقطف زهرة .. وصلت إليها .. يد كبيرة أمسكت بها .. تعاليْ .. تعاليْ معي جلبت لك فستان سندريلا .. ابتسمت له، تبعته .. تغيرت الأماكن وتغير هو .. التصقت بالحائط مرتعبة .. دعني .. دعني .. لكن يديه استمرت بمهاجمتها.

أفاقت سديم من نومها فزعة والعرق يتصبب من جسدها المرتعش نظرت من حولها تبحث بعينيها عن النجدة لا أحد .. هدير على سريرها نائمة، والدتها لم تهرع لتفقدها .. ابتلعت ريقها بصعوبه مدت يدها تبعد خصلات شعرها الكثيفة من على وجهها .. أدركت بعد لحظات بأن صراخها كان

مكتوماً فلم يسمعه أحد .. كالعادة هم بحاجة إلى صوت كي يسمعوا صراخها الذي أطلقه كامل جسدها وكتمته حنجرتها .. احتوت جسدها بين ذراعيها تهدهد نفسها تطمئنها .. إنه كابوس .. مجرد كابوس حمل ذكرى من الماضي!!

***

أحس الحاج عبد الرحمن بتحرك زوجته من الفراش ونهوضها للمره الثالثة إلى خارج الغرفة لتعود بعد دقائق .. أغمض عينيه مدعياً النوم سينتظرها لتعود وتستقر بفراشها كي ينهض ليعرف سبب توترها ..

لمحت ناهدة الضوء في غرفة المكتب هبطت درجات السلم بسرعه وداخلها يردد .. يا إلهي اجعله عمران يا رب يكون عمران بالمكتب

وصلت إلى غرفة المكتب لتجد ناصر مستقراً على كرسيه يقلب بالملفات والأوراق المنتشرة أمامه .. نطقت بخيبه

- ناصر

رفع ناصر نظره من الأوراق أمامه ليقول بتعجب

- أمي .. ما الأمر لم أنتِ مستيقظة للآن ؟

الصمت والقلق المرتسم على وجه والدته دفعته لترك ما بيده والتوجه نحوها أمسك بيدها قائلاً

- أمي .. تكلمي ما بك

لم تستطع ناهدة الصمت أكثر فهتفت والجزع يبرز بصوتها

- عمران .. عمران لم يأتِ للمنزل حتى الآن

قطب ناصر حاجبيه، ألقى نظرة على ساعة الحائط، إنها الثالثة صباحاً

- ماذا تقولين أمي .. متى خرج أصلاً من البيت !!

فركت الأم كفيها ببعض وقالت بصوت مرتجف

- لا .. لا أعرف ذهبت لغرفته أتفقده قبل النوم لكنه لم يكن موجوداً
- ألم يخبرك بأنه سيخرج
- كلا

صمتت قليلاً .. ثم أضافت بصوت خافت

- لا أعرف حقاً .. أن أفرز بين قلقي على غياب أخيك أو خوفي من رد فعل والدك أيهما أشد .. لا أعرف

قاد ناصر والدته نحو الأريكة التي تحتل أحد زوايا غرفة المكتب الواسعة أجلسها عليها وقال

- لا بأس أمي .. عمران سيأتي قريباً وسأكلمه ولكن يجب أن يعلم والدي، أمي لا يجوز أن تستمري بتكتمك هذا

هتفت بجزع

- كلا .. كلا لا تخبر والدك بني
- لا داعي ..

وقف كلاهما، ناصر بدا منزعجاً أما ناهدة فقد علا الشحوب وجهها .. تقدم الحاج بخطوات ثابتة ليجلس على الكرسي بجوار المكتب

- لا داعي لتكليف نفسك عناء إخباري ناهدة لقد ذهبت إلى غرفة قرة عينك فوجدتها خالية منه
- يا حاج أنا

قاطع عبد الرحمن زوجته ببرود رغم داخله الذي يفور غضباً وقال موجهاً الكلام إلى ولده

- ناصر تعال واجلس حيث كنت .. لنكمل دراسة أوراق المعمل الجديد حتى يقرر عمران العودة

التفت ناصر إلى والدته ليغمز لها قائلاً

- أمي لو سمحتِ فنجانَيْ قهوة من يدك تعييناً على التركيزَ في جداول الأرقام

فهمت ناهدة بأن ناصر سيتولى تهدئة زوجها فتمتمت بخجل

- حسناً

استدار ناصر ناحية والده وتحرك ليختار الجلوس في الكرسي المقابل له

- أبي
- ناصر دع الأمر الآن

ابتسم ناصر بعتب قائلاً

- ماذا يا حاج .. هل ستعاملني كولد صغير
- أنت ولد !

أضاف الحاج عبد الرحمن والفخر زين نظراته

- لم تكن يوماً ولداً .. أنت رجل مذ كنتَ صبياً .. تكلم قل ما شئت

- أمي .. تعرف كم يؤثر زعلك عليها

تكلم الحاج بصوت عكست نبراته مدى انزعاجه

- ضقت ذرعاً بتدليلها عمران ..
- معك حق يا حاج .. لكن .. تدليلها إياه كان على مسمع ومرأى منك .. لم تفعل شيئاً أنت لا تعلم به، لم تمنعها يوماً

تنهدت الحاج بضيق وتكلم معترفاً بصحة كلام ناصر

- لم أرد أن أكرر الخطأ ذاته فامتعنت عن التدخل وتركت لها تربية عمران لأجد نفسي وقعت بخطأ أكبر
- أي خطأ
- خطئي بحقك
- أبي!
- نعم أخطأت بحقك هل تتصور بأني غافل عن خطئي .. لكن سبق السيف العزل ..
- أبي أرجوك

لكن الحاج عبد الرحمن لم يستمع لرجاء ولده وقد وجد الشجاعة للاعتراف بما يجول بفكره فاسترسل بالكلام وكل همه منحصر بالتخلص من صخرة جثمت على صدره طوال سنين قتل فيها كل حلم لولده واستغل بها طيبة قلبه ونقاء سريرته

- منذ أن ولدت وعندما أخبرنا الطبيب بأن والدتك لن تستطيع الإنجاب بعد الآن .. قلت بأن الله أنعم علينا بولد سأجعل منه رجلاً لن يتكرر ابن بقوته وذكاءه، لن أشعر بأني بحاجة إلى ابن آخر .. وهذا ما كان سَنّيْتُ لك قوانين عدة، كنتُ صارما جداً بتربيتك

تنهدت الأب ليقول بعد لحظات قضاها بتقليب سريع لصفحات الماضي

- مرت سنوات جاء بعدها عمران، كنتُ ما زلت مصراً على نهجي بتربيتك، أبعدت والدتك عنك لم أترك لها مجالاً فأخذت عليّ عهداً بأن أترك

تربية عمران لها فأخطأ كلانا .. أنا بصرامتي التي تبلغ أحياناً حدّ القسوة ..

رفع يده مشيراً لناصر بأن لا يعترض على ما يقوله ليكمل بعد أن لاحظ بادرة لذلك

- ووالدتك التي بالغت أيضاً بحنوها عليه .. لكن الأمر زاد عن حده، أنا أشعر بقرب ضياع عمران من يدنا نهائياً .. وعليه سأكف عن تدخلي المتباعد وسأُقَوِّمُ عمران برغم أنفه سأجعل منه شاباً صالحاً

سماع الباب الداخلي وهو يفتح تتبعه خطوات ثقيلة غير متزنه جلبت انتباه الحاج عبد الرحمن وناصر ليقطعا حديثهما

دخل عمران إلى البيت وهو يترنح .. لقد شرب كثيراً لم يعرف ما الذي دهاه، لم يسبق له أن تمادى في الشرب كأس واحدة أو اثنتين بالأكثر لكنه اليوم شرب تقريباً زجاجة كاملة !! حتى أنه

لم يستطع أن يقود سيارته فاستعان بأحد رفاقة كي يعيده إلى البيت .. لم يستطع أن يخطو خطوة واحدة أخرى دون أن يقع على وجهه فرمى بجسده على الأرض جالساً على الدرجات الصغيرة المؤدية إلى الردهة الكبيرة التي تتخذها العائلة مكاناً للجلوس .. بيداء .. عادت كلماتها ترن بأذنيْه ..

- لقد ضعت عمران .. سأموت إن تركتني بعاري

احتواها بين ذراعيه مطمئناً إياها ليحس بدموعها الساخنة على كتفه .. تذكر صمته لم يتكلم، لم ينبس بحرف، أبعدها عنه وخرج من الغرفة ليرى مازن متوجهاً نحو غرفة الضيوف فسارع بخطوات خفيفة تناقض الثقل الذي أحسه بصدره ليهبط السلم داخلاً إلى المطبخ ..

لأول مره يقترب من فتاة لم تمس سابقاً !! كل اللواتي رافقهن كن بنات هوى يدفع ويأخذ ما يريد

لكن ابنة بيت كلا .. وضع رأسه بين يديه ..
صوتها يطن فيه .. ضعت .. ضعت ..

- بني عمران .. ما بك

فوجئت ناهدة بجلسة عمران .. تحركت إليه بسرعة وكل ظنها أنه تعرض لحادث ما .. جلست بقربه مدت يدها ترفع رأسه إليها لكنه قاومها مبعداً يديها عنه

- اتركيني أمي

صوته الباكي أثار فزعها ربتت على كتفه

- عمران .. تكلم بني هل يؤلمك شيء

لم يجبها فقط بل تحرك ليرتمي بجسده بأحضانها بقوة حتى تراجعت إلى الخلف من شدة اندفاعه

- أمي .. أنا متعب .. متعب جداً

رائحة كريهة فرضت نفسها على عقلها الرافض استيعابها وتحديد ماهيتها جعلتها تدفع مدللها بعيداً وهي تقول بجزع

- خمر! .. أنت مخمور عمران!!!

وقع خطوات قريبة أعلمتها بأن زوجها وناصر سيظهران بأي لحظة سارعت لإمساك عمران من ذراعه كي تنهضة وهي تقول

- هيا .. انهض ولا تنبس بحرف إن كلمك والدك وإلا فاحت الرائحة العفنة

لكن عمران لم يحرك ساكناً رغم استمرار محاولات والدته .. هيئتها التي تركها عليها بثيابها الممزقة ترهق ذاكرته التي استمرت بإعادة كلماتها لتضغط على أعصابه

- أخيراً شرّفت ؟

تقدم الحاج عبد الرحمن وخلفه ناصر الذي نظر إلى هيئة أخيه المزرية ووقفت أمه اليائسة بالقرب

من محل جلوسه وهو يتوقع ما سيحدث بعد أن بادر الحاج عبد الرحمن بسؤاله بنبرة خادعة بهدوئها يعرفها ناصر جيداً

- أين كنت .. تكلم ؟

استمر عمران بالصمت ورأسه منخفض وذاكرته تلح .. تلح على أعصابه .. يد وصلت إليه تشده ليقف بعنف ليقول والده بغضب صاعق عُرِفَ عنه بعد أن استفزه صمت عمران

- انهض ايها الفاسد عندما أكلمك .. هل أنساك استهتارك كيف يجب أن تتصرف بحضرة أبيك

"ضعت .. عمران أنا ضعت" .. رفع عينين حمروااين غائبتين عن حاضره غارقتنان بالنكران

- لست مذنباً ! .. أنا لست مذنباً

صفعة تليها أخرى استقرتا على جانبي وجهه وصوت أبيه يأتيه هادراً بغضب

- سكران .. ولدي يحتسي الخمر!
- عبد الرحمن ! صرخت ناهدة .. اتركه يا حاج أرجوك
- أبي .. أرجوك ..

حاول ناصر أن يبعد عمران عن مرمى أبيه .. أمسك بكتف أخيه يجره بعيداً ليصرخ عمران ثائراً

- أنا لست مذنباً ..

أكمل وعيناه تتجولان في الوجوه المتعدده التعابير .. أبيه الغاضب .. ناصر القاطب الحاجبين .. وأمه الفزعة ليغيبوا عن بصره لتحتل هي المكان بملابسها الممزقة ليكمل موجهاً كلامه لها

- الذنب ذنبكِ أنتِ!

شهقت ناهدة التي ظنت كما الباقيين بأن عمران يوجه الكلام لها

- أنا يا ولدي؟ .. أنا!

- هل ترين؟ هكذا يكافئك المارق .. بإلقاء اللوم عليك!!

نظرت ناهدة إلى الحاج عبد الرحمن بعجز مؤلم والصدمة حفرت عميقاً بملامحها

لم يرى ناصر بدّاً من سحب أخيه إلى غرفته عنوة بعد أن حاول إبعاده برفق دون جدوى وهذيان السكارى المزعج قد تملك منه .. فأمسك بذراعه ليلويها خلف ظهره كي يسيطر على حركة عمران ويقيدها وقد بدا له بأن لعمران ثورة أخرى قادمة

- اتركني .. أفلت ذراعي ناصر

لم يبالِ ناصر بصراخ عمران واستمر بدفعه نحو السلم ليتجها إلى حيث غرفته بالطابق الثاني من البيت الفسيح الأرجاء

- قلت لك اتركني

دفع ناصر الباب بقدمه وهو يتكلم بغضب مكتوم

- اخرس عمران .. لقد استنفذت حظك اليوم

وصل إلى وسط الغرفة ليحل عمران من قبضته

- لا تظن بأن والدي سيكتفي بتلك الصفعات عمران حساب عسير ينتظرك معه

استدار عمران إلى ناصر .. لمَ هو هكذا لا يخطئ أبداً !!!ولمَ أنا هكذا؟؟؟ .. أحس برغبة عارمة لأذيته .. رغبة لم يستطع السيطرة عليها حالها كحال بقية رغباته فقال بسخريه

- انظروا من يتكلم .. ناصر الظل

تكلم ناصر وقد برزت عروق صدغيه من شده غضبه ليصدر صوته متموجاً بغضب يهدد بانفلاته من قبضة صاحبه المسيطرة

- اخرس عمران

أصر عمران وأكد ما قاله وداخله يموج غيظاً مذكراً إياه بالفرق الشاسع بينه وبين شقيقة الكبير

- أنت مجرد ظل لرجل آخر .. ماذا هل تظن نفسك رجلاً حقاً !؟

تحرك ناصر بسرعة وقد فلتت أعصابه و دفعه حتى الحائط وأمسك برقبته يضغط عليها ليقول بصوت خافت وهو يكز على أسنانه

- لا تقل لي بأنك تعرف كيف يكون الرجل أصلاً .. أم ظننت بأنك بسكرك ومرافقتك لنساء السوء غدوت رجلاً

بصوت مخنوق

- اتر .. اتـــ .. اتركني

أفلت ناصر رقبتة عمران ليقع الأخير على الأرض مرهقاً وهو يمسك برقبته

- هل جننت كدت تقتلني

نظر إليه ناصر بتمعن ليهز رأسه متأسفاً على الحال الذي وصل إليه عمران بهيئته المنفرة ورائحته النتنة وخرج دون أن يرد عليه بكلمة

***

في صباح اليوم التالي وبعد ليلة لم يذق فيها أي من أفراد عائلة ناصر طعم النوم .. صدرت قرارات عدة من الحاج عبد الرحمن منها منع عمران من الخروج ليس من البيت فقط إنما من غرفته وسحب سيارته وغلق حسابه المصرفي

وضع الحاج مفتاح غرفة عمران بجيبه بعد أن أغلق بابها دون أن يحاول أو يسمح لأحد بأن يحاول الدخول إليه

- لكن يا حاج كيف ندخل له الطعام!
- لا طعام له اليوم .
- لكن ..

نظر إليها الحاج شزراً ثم قال بصرامة

- ناهدة .. انتهى ..

رمقها بنظره .. هو يدرك كم هي متألمة لحال عمران وهو ليس بأفضل حالٍ منها لكن لا بد له من أن يقوم بأي تصرف يمكنه من إصلاح ولده متمنياً بأن لا يكون قد تأخر كثيراً

- هل استيقظ ناصر ؟

أجابت بصوت كئيب

- نعم .. هو يتناول فطوره

تحرك الحاج من مكانه ليخرج من غرفته متوجهاً إلى غرفة الطعام وناهدة ترافقه على مضض وقلبها معلقاً بالغرفة التي تقع بآخر الممر من الجهة الثانية من المنزل حيث يرقد ولدها بحال لا يعلمه إلا الله

كان ناصر يمضغ طعام الإفطار دون أن يحس بطعمه .. كلمات عمران ما زالت ترن بباله، هو متأكد بأن

شقيقه سيعتذر منه لاحقاً لكن هذا لا يخفف من وقع تلك الكلمات على نفسه .. يكاد لا يصدق بأن أخاه لا يرى فيه سوى ظل ؟! هو ليس كذلك، يعرف بأنه ليس كما وصفه أخاه لكن ما يؤلمه حقاً بأن أخاه هكذا يراه .. ترك ما بيده ليفرك جبينه .. صداع يؤلمة بشدة .. كانت ليلة مشحونة بالأحداث .. عمران سبب له الضيق وسديم تثير فيه الحيرة وأحاسيس أخرى تسره وتقلقه في آن واحد .. رغماً عنه ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه وهو يفكر بأنه سيلتقي بها اليوم ظهراً .. هذه المرة سيمعن النظر فيها أكثر حتى تنقش صورتها بأدق تفاصيلها بذاكرته التي ترحب دوماً بطيفها فربما .. غابت الابتسامة وعاد الجمود .. ربما تكون آخر مره يراها فيها .. نعم آخر مرة .. هذا قرار لن يتراجع عنه مهما حدث .. كم كان خجلاً من والده ليلة أمس عندما سمعه يقول لأمه بأن تلاحظ الفرق بين الأخوين كيف قضيا ليلتهما .. عمران بالسهر واحتساء الخمر وهو ناصر بالعمل .. يا إلهي .. كيف لوالده بأن يعلم بأن ولده الكبير الذي يعتمد عليه مصدر فخره قد جافى النوم عيناه بسبب مكالمة متأخرة من مراهقة ذات عينين باكيتين وشعر أسود طويل قد أطاحت بعقله وهددت سكون لياليه !!

***

ارتدت هدير ملابسها بهدوء محاولة قدر الإمكان أن لا توقظ سديم من نومها .. عليها أن تذهب الآن للعمل رغم أن الوقت ما زال مبكراً لكن غزوان أصر عليها بأن تكون في مكتبها قبل أن يصل باقي الموظفين .. كم تكره تنفيذها لما يريد دائماً،

لكنه رئيسها المباشر ويجب عليها الانصياع لرغباته وتحمل سماجته .. يا إلهي ستشم رائحته مبكراً اليوم .. فكرت هدير بقرف .. أقسمت بصمت إن اقترب منها ستفرغ ما بمعدتها بوجهه عله يشعر ببعض قرفها منه .. ابتسمت وهي تتخيل مظهره .. ربما يقرر أخيراً الدخول إلى الحمام ليستحم بعد مقاطعته الطويلة له .. قهقهت بصوت خافت وقد تمادت بأحلامها .. ربما أيضاً تحصل على علاوة من المدير العام للدائرة لدورها الفعال في إدخال غزوان إلى الحمام .. التفت إلى المرآة كي تسرح شعرها وتضع تبرجها الخفيف جداً .. أمسكت المشط ترفعه إلى شعرها لتقف يدها في الهواء وقد تبخر مرحها لتغرق مجدداً بتلك الهواجس التي ما فتئت تقض مضجعها تمتمت تكلم صورتها المنعكسة

- هدير .. إلى متى .. فقط أخبريني إلى متى؟؟

***

الجميع نائم أو هكذا ظنت .. سارت بخطوات ثقيلة مهمومة إلى المطبخ وصلت إلى حيث الجوارير سحبت أحدهم، أخرجت منه سكيناً أمسكتها بقبضة مرتجفة رغم عزمها وإصرارها على تنفيذ نيتها لتضع نصلها على الوريد في كفها الثاني وكل رغبة لديها بالحياة قد تلاشت !!

الفصل الثامن

الجميع نائم أو هكذا ظنت .. سارت بخطوات ثقيلة مهمومة إلى المطبخ وصلت إلى حيث الجوارير سحبت أحدهم، أخرجت منه سكيناً أمسكتها بقبضة مرتجفة رغم عزمها وإصرارها على تنفيذ نيتها لتضع نصلها على الوريد في كفها الثاني وكل رغبة لديها بالحياة قد تلاشت !!

- بيداء

صوت عطوف متفاجئ نبه بيداء بأنها لم تعد وحدها فسارعت لإخفاء السكين عن بصر والدتها الحاد مديرة ظهرها لها

- بيداء .. ألم تسمعيني؟

اغمضت عينيها بقوة لا تملك الجرئة على مواجهة والدتها .. ارتجفت شفتيها لتضمهما إلى الداخل خوفاً من أن يغدرا بها فتصدر شهقة باكية

- بنيتي ..

تحركت والدتها نحوها وقد أقلقها صمت بيداء الغير معتاد، مدت يدها وضعتها على ذراع ابنتها تديرها نحوها لتسقط السكين أرضاً من قبضة بيداء الراخية لتحدث صوت طنين مزعج -أثر ارتطامها بالأرض الخالية من الفرش- ألهى والدتها من ملاحظة اليأس المرتسم على وجه ابنتها

نظرت الام إلى السكين المرميه ضحكت بحنان أمومي لتقول وهي تنحي لتجلبها من الارض

- يا إلهي حتى السكين المسكينة استخدمتِ معدنها كمرآة تتمري بها ..

حملت الأم السكين لتعود بها إلى مكانها وهي تثرثر بمرح بعد أن القت نظرة سريعة على وجه ابنتها التي ظنت بأن القلق المرتسم عليه هو خوفاً من تأنيبها المعتاد لبيداء عندما تستخدم كل ما يعكس مرآة لها تتمعن بملامحها دون كلل أو ملل فقالت لها بخفة كي تزيل القلق منها

- ألم تعرفي بأنك إن أطلت النظر إلى المرآة ماذا سيحدث .. ألم أخبركِ سابقاً ؟
- كلا
- ألم أحكي لك قصة جني المرآة ..
- كلا

بصوت خالي من الحياة أجابت بيداء والدتها بعد أن استندت بإرهاق إلى دولاب المطبخ وقد غزاها إحساس محير بين فرحها بأن والدتها غفلت عن

نيتها وبين خاطر يلح عليها بأنها لو عرفت وسألت لكانت السكين الآن تحفر عميقاً بقلبها لترتاح من ألمها .. عمران أدفع عمري الذي لم يعد يسوى شيئاً بفضلك ثمناً مقابل أن أعرف بماذا تفكر وعلى ماذا تنوي؟؟ أقسم بأني لن أدعك تفلت بفعلتك وتتركني أتحمل وزرها وحدي .. إن مت سأخذك معي .

***

وصلت هدير إلى غرفة المكتب الذي انتقلت إليها مؤخراً .. فتحت الباب وقد هيأت نفسها لرؤية غزوان يجلس على كرسي المكتب يدعي الأهمية .. لتجد وسط ذهولها الغرفة فارغة .. لا يوجد أحد .. هل أتت مبكرة ؟ نظرت إلى الساعة في يدها .. إنها السابعة صباحاً لقد وصلت تحديداً بالوقت

الذي أرادها به .. قطبت حاجبيها مفكره .. ربما تأخر لسبب ما .. لا بأس سأنتظره قليلاً في مكتبه إن لم يحضر .. سيكون هذا ذنبه هو ..

***

- صباح الخير .. صباح الخير

استمر الموظفون العاملين بمكتب ناصر بإلقاء تحية الصباح عليه وهو يردها بدماثه كعادته حتى وصل إلى مكتبه الخاص تتبعه استبرق السكرتيرة .. وضع حقيبة أوراقه على المكتب وقبل أن يجلس رفع سماعة الهاتف ثم التفت إلى استبرق قائلاً

- استدعي منذر

- حسناً سيدي .. تحركت خطوات ثم استدارت قائلة .. هل أحضر قهوتك سيدي

- كلا .. ليس الآن بعد ساعة .. شكراً لكِ

طلب رقم المتعهد بتوريد المكائن للمعمل الجديد .. جلس على حافة المكتب ينتظر الرد ليجد بأن استبرق ما زالت واقفة بمكانها

- هل يوجد شيء ؟

بارتباك ردت _ كلا سيدي

- إذاً ما سبب وقوفك هنا !

- فــ .. فقط .. تلعثمت ثم اندفعت الكلمات من فمها .. أنت تبدو متعباً سيدي فأردت أن أطمئن بأنك لست مريضاً

قطب ناصر حاجبيه أكثر ثم قال بحزم

- لستُ مريضاً .. الآن اذهبي ونفذي ما أمرتك به
- حاضر .. حاضر سيدي

تمتمت استبرق بحرج إزاء الجفاء الواضح الذي رد به ناصر على سؤالها .. خرجت تترصدها نظرات شزره من عيني ناصر .. هز رأسه بانزعاج، ربما عليه أن يستدبل استبرق بأخرى؛ آخر ما يريده هو سكرتيرة مولعة بغير عملها

***

لم تصدق سديم .. أخيراً انتهى دوام المدرسة .. بدا كأنه استغرق دهراً كاملاً ..

- سديم

كانت هذه وفاء حاولت أن توقف سديم التي خرجت مسرعة من بوابة المدرسة

- وفاء أنا مستعجلة .. أراك بالغد
- حسناً .. وداعاً

لوحت لها سديم مودعة وهي مستمرة في سيرها الحثيث وكل فكرها مشغول باللقاء المرتقب ترى هل سيحضر ؟؟ ربما لن يفعل .. لقد أخطأت باتصالها ليلاً به أكيد بأنه سيظن بها السوء؛ لن تلومه إن فعل ليس لها الحق بلومه !! أمسكت سير الحقيبة المعلقة على كتفيها تشد عليه بقوة .. بدأت قدميها بالتثاقل بنقل خطواتها كعادتها عندما تبرق أمور عدة على سماء فكرها .. لم تتخيل ولو للحظة بأن ناصر ذلك الشاب الذي أحرجتها سخريته سيكون حبل إنقاذها الذي ترجو .. كم مر على لقاؤهما الأول؟؟ شهر ونصف ؟ .. شهرين؟ .. لم تنسَ فيها شكله .. وكيف سيكون لها نسيانه ورسوماتها دوماً تذكرها به .. هو أيضاً لم ينسَها أدركت ذلك من

كلماته المبعثره التي تفوه بها يوم أمس في ركن العناب .. لم يكن مرتاحاً .. أما هي فلم تفكر بأي شيء سوى رغبتها بالفرار من كل شخص تعرفه ومن كل مكان سارت عليه خطواتها أو احتوى جسدها تحت سقفه وبين جدرانه .. ناصر أخذها بعيداً إلى مكان لم تذهب إليه سابقاً رغم المسافة البسيطة التي تفصله عن بيتها والتي لا تستغرق أكثر من ربع ساعة بسيارته الجديدة التي استقلتها .. لكن بدا لها كأنها في عالم آخر .. "ناصر" اسمه ردده وعيها لمرات عدة منذ يوم أمس، أما اللاوعي عندها فقد كان متشبثاً بقوة أرهقتها بتكرار اسم آخر لم يمل تكراره رغم مضي سنين عدة !!

لم تكن تبعد عنه سوى مسافة بسيطة ولم تتعرف عليه حتى الآن .. وكيف لها ذلك وهي تكاد تركع

على الأرض من شده انحناء رأسها وكتفيها .. كان في الطريق أمامها لوحة تتمعن تفاصيلها بانبهار تملك حواسها .. كم تبدو مهمومة هذه الصغيرة .. وكم حاول هو أن يقاوم رغبته بالحضور لرؤيتها .. كان يتبعها بصمت منذ خروجها من المدرسة يدرس تفاصيل هيئتها كما وعد نفسه حاول الابتعاد والتراجع عن لقائها فلم يستطع .. دار بالشوارع الفرعية يقنع قلبه الذي يرتجف شغفاً بفكرة مقابلتها بما يمليه عقله دون جدوى .. رغبته استعرت فحرقت بلهيب لهفتها كل تعقل لديه وها هو كالأحمق ينتظر أن ترفع رأسها كي تراه .. ابتسم ناصر بحزن وقد اعترف أخيراً بأن لرغباته سطوة عليه لم يكن يدركها سابقاً .. راهن آخر .. إن لم ترفع رأسها سيذهب .. نعم سيفعل .. مرت بقرب سيارته .. لن يفعل لن ينبهها أبداً .. أوشكت أن

تتجاوزه .. سيذهب نعم سيذهب .. أدار محرك سيارته .. فتح النافذه كي يستنشق قليلاً من الهواء .. هو يكاد يختنق حاول أن يقنع نفسه .. ضغط دواسة البنزين ليرفع قدمه من عليها بسرعة .. ويخرج رأسه ويصرخ منادياً

- سديم

راقب التفاتتها الرشيقة بعينين أخفت ولهها بخجل لترتسم على شفتيه ابتسامة إعجاب شديد لدى رؤية بريق عينيها الذي لمع عند رؤيتها له وابتسامة رقيقة قد زينت شفتيها فعلت بروحه فعل دموع عينيها ليزول كل تردده ويترجل من السيارة يسبقه قلبه للترحيب بالفاتنة الصغيرة التي لقنت عزيمته درساً حرصت بأنه لن ينساه أبداً

- مرحباً

بادرت بتحيته بصوت خجول

- مرحباً بك

لقد جاء .. لقد أوفى بوعده لها وجاء .. تكاد لا تصدق .. يا رب اكتب لي النجاة؛ دعاء همست به روحها لخالق الأرواح ..

راقبها وقد أحنت رأسها وإحدى قدميها تتحرك على الأرض الأسفلتية ترسم نقوشاً وهمية .. يبدو بأنه والصغيرة يصارعان بالخفاء توتراً يسكنهما ..

يا إلهي .. لماذا لا يتكلم ؟ هل علي أنا أن أبدأ الحديث! يا لي من غبية طبعاً هو ينتظر مني أن أتكلم، ألستُ أنا من طلب مقابلته .. سأفعل سأتكلم فوراً

رفعت رأسها تنظر إليه وقد فتحت فمها ناوية بدء الكلام .. لتغلقه فوراً وقد هربت الأحرف لتنحل الكلمات عند رؤيتها لنظراته المتأملة التي لونت وجنتيها خجلاً .. تنحنحت بإحراج وقد شعرت بطول فترة وقوفهما الصامت

- أنا .. تمتمت بخجل .. أنا

نبرات صوتها المترددة أخرجت ناصر من عالم تأملها الذي أبحر بين موجاته العذبه رغماً عنه ليتكلم بإحراج

- آسف .. تفضلي

تحرك ليسير نحو الجهة الأخرى من السيارة ليفتح لها باب المقعد بجوار السائق .. حثها قائلاً عندما لاحظ تسمرها بمكانها

- هيا سديم .. تعالي اركبي .. لا يصح وقوفنا بالشارع هكذا

تحركت تمشي بارتباك حتى وصلت إليه .. ابتسمت له شاكرة .. انتظرها حتى استقرت بمكانها ليغلق الباب خلفها واتجه إلى مقعدة .. قاد السيارة بهدوء وانتظر حتى خرج من الشوارع الفرعية متجهاً خارج المنطقة متوجهاً نحو الجسر الموصل إلى منطقة العامرية ليقول

- هل نذهب إلى مكان ما .. للمضايف مثلاً ؟ هل تعرفينه ؟
- كلا
- بمجرد أن نعبر الجسر يكون على جانب الشارع الرئيس للعامرية .. هو مكان لطيف و

- لو سمحت .. قاطعته سديم بلهفة .. أنا أفضل أن تركن السيارة في أي مكان .. لا أود الذهاب إلى مطعم

التفت اليها ولاحت بسمة ساخرة على شفتيه

- هو مجرد مطعم .. صدقيني هو أفضل من العزلة التي توفرها جلسة السيارة

أمسكت حزام الحقيبة المدرسية تعصره بتوتر لاحظه ناصر، عضت شفتيها وهي تفكر بصمت بكلمات، أي كلمات تستهل بها الحديث معه علها تصل أخيراً إلى مصارحته بما تريده منه .. رفعت نظرها أخيراً إليه قائلة بهدوء

- أنا أنشد العزلة لـ ..

ضحكات عالية صدرت من ناصر أوقفت الكلمات بحلقها، احمرت وجنيتها بقوة وزمت شفتيها بغضب

طفولي وقد ظنته يسخر من ارتباكها .. أما هو فكما ضحك فجأة توقف أيضاً فجأة ليقول أخيراً بصوت متسامح

- يا إلهي .. يا صغيرة أنتِ لا تدركين ما معنى كلماتك
- معناها مثل ما قلتها .. المطاعم تربكني و أريد أن أتكلم معك وأنا واثقة بأنك تعيرني انتباهك وتسمعني و

تنهد بعمق وقدر رفع بصره للسماء ليقول وقدأرفقت كلماته ضحكة خافتة ساخره من نفسه

- انتباهي !! صدقي بأني أعيرك كل انتباهي بل واهتمامي أيضاً ..

ليكمل بداخله .. وهنا أصل مشكلتي .. بأني لا أستطيع أن أصرف انتباهي عنك .. ليتني أستطيع،

كم أتمنى لو أن بمقدوري صرف ذهني عن التفكير بك لكنت ارتحت من همٍ كبير يجثم على صدري .. عاد صوتها الناعم ليداعب أسماعه

- أنا أعرف بأنك طيب و
- ما أدراكٍ؟
- ماذا؟
- ما أدراك بأني طيب ..

أوقف السيارة على جانب طريق فرعي غير مأهول .. أطفأ المحرك ثم استدار نحوها ليكمل

- هل تدركين مدى خطورة وضعك سديم .. انظري من حولك مكان منعزل وأنتِ برفقتي تنشدين العزلة !!! يا إلهي يا فتاة ألم تفكري ولو للحظة بأني قد ..

توقف عن الكلام بعد أن لاحظ الشحوب الذي علا وجهها .. تباً .. ضرب المقود بيده

- أنا لا أريد إخافتك .. ولن أفعل بك أي سوء .. فقط

انحنى نحوها .. أصبح وجهه قريباً من وجهها .. نظراته تأكل ملامحها تلتهم تعابيرها حتى الفزع الذي أطل من عينيها كان يغريه بقوة .. بقوة قاسية .. مد يده ليمسك خصله شعر هاربة من رباطها أقلقت راحته منذ أن فعلت ليعيدها خلف أذنها وعيناها مستمرتان بشرب حمرة خديها زفر أنفاسه وتكلم بصوت هامس

- فقط أريدك ..

أوقفته النظرة المرتعبة .. ابتسم مشفقاً وأتم ما كان ينوي أن يقوله .. بعد أن نبذ بقوة تحكمه بنفسه ما كان يشتهي فعله

- أن تدركي خطورة وضعك

رجع إلى مكانه ملاحظاً نَفَسَها الذي أطلقته بعد أن كان حبيس صدرها .. أدار وجهه بعيداً عنها وقد عاد ببصره للسماء ينشد حلاً

- لكنك تراجعت ..

التفت إليها وقد فوجئ بكلماتها ليسألها

- ماذا تقصدين

رفعت يدها تبعد الخصلة الشاردة ذاتها عن وجهها بعد أن عادت تلاعب ملامحها رافضة استقرارها خلف أذنها .. لتكمل بصوت غادره الارتباك

- لو لم تكن طيباً لما تراجعت عما كانت تنوي فعله .. العزلة هي ذاتها لم تتغير ،، رفعت يدها مشيرة لما حولها .. وأنا ما زلت برفقتك .. أردت فقط أن تلقني درساً ..

أحست بدهشته لتقول بضعف .. أنا لست غبية .. ولست ساذجة أيضاً

- ولكنك لا تعرفيني كيف تكوني مطمئنة هكذا !

ضحكت بصوت مرتجف

- أنا مطمئنة !! .. أنا لم أعرف الطمأنينة في حياتي كلها

رفعت كتفيها بخفة

- بل إني لم أتذوق طعمها أصلاً.

سكنت الحيرة عيناه وهو يستمع إلى كلماتها .. كيف تفكر هذه الفتاة .. أعاد كلماته مصراً

- لكنك لا تعرفيني .. كيف لك أن تعرفي إن كنت طيباً كما تتوهمي .. كيف لك أن تعرفي بأني سأكتفي بالتلميح لكِ ربما أتهور في إعطائك الدروس وأجعل منها دورساً لن تنسيها أبداً

صرخ داخله؛ هل تعرف هذه الغبية حجم الصراع بداخلي .. هل تعرف ما أتمنى فعله

- من عينيك ..

رفع كفه إلى وجهه يفركه بقوة وهو لا يصدق ما يسمعه

- ماذا قلت .. عيناي .. تأمنين على نفسك بصحبتي بسبب عيناي .. أرجوك

انساب صوتها إلى أذنيه كلحن ناي حزين .. أجبره على الإصغاء إلى كلماتها المحملة بذكريات مريرة أحسها دون أن يعلم بها

- في وقت مضى كنت قد عشت فترة عصيبة .. فرضت علي عزلة .. لم .. لم يخرجني منها سوى كلمات قالها لي شيخ عجوز .. قال لي .. إن أردت ان أعرف هوية من أمامي علي فقط أن أنظر إلى عينيه .. هما مرآة الروح التي لا تكذب، قد تتشوش أو تتموج الرؤيا لكنها لا تكذب أبداً .. اللمسة الحانية تكذب الابتسامة الطيبة تكذب .. لكن العيون حتى وإن أراد صاحبهما أن تخفي ما يضمر .. رغماً عنه تقول الحقيقة ..

استمع إلى ما تقوله بذهول وهو يستغرب طريقة تفكيرها .. أي عزلة التي تتكلم عنها ؟! نظر إليها بتمعن هو يحاول أن يستشف صدق حديثها .. وجد نفسه ينظر إلى عينيها الغارقتان بالسواد ..

حدقتان تزينهما نظرات لامعة بدت كأنها برق يخطف على محيطهما الملبد بغيوم الألم تجذبانه برقة ليغوص بأعماقهما دون أن يمل استشعار روحها الصافية المطله منهما ..

- سديم .. أنـ
- كنت تنظر إلى عيناي .. لتعرف بأن كنت أعني ما أقول أم لا

ابتسامة مرحة رفعت زوايا شفتيه ليقول بلطف

- ربما كنت أتمعن بجمالهما فقط ..

رفرفت بجفنيها بإحراج .. لم تتصور بأن الحديث معه سيكون صعباً هكذا ..

الفصل التاسع

- أنا ..
- ألستِ تعرفين بأنك تملكين عينان رائعتان .. إنهما .. التفت إليها مستديراً بكامل جسده بعد أن كان رأسه فقط متجهاً نحوها وقد حرص أن يبقي مسافة تبعده عنها ليضيف بنعومة .. إنهما .. الآن .. يجريان معي حواراً لذيذاً آخر مقنعاً جداً .. عكس الكلمات التي تتفوه بها شفتاك وإن نافستا عيناكٍ جمالاً .. لكن أتعرفين ؟ ارتجاف شفتيك .. ارتجافهما !! .. هو فقط من يخبرني بأنك تعانين قلقاً يحرم عليك الراحة .. قلقاً ليس من المفترض أن تعيشه فتاة بعمرك .. قطب

جبينه سائلاً .. صحيح كم عمرك ستة عشر سبعة .. ؟؟

قاطعته لهفة وقد أحست بقرب خلاصها من تفحصه الدقيق لها وسماع كلماته التي أرهق عقلها في محاولة استيعاب معناها

- بل سبعة عشر ونصف
- و نصف!! .. يا إلهي لم أظنك كبيرة هكذا .. عقب علىإضافتها بمرح .. أتعرفين لولا الستة الأشهر الإضافية لكنت ظننتك صغيرة جداً ..
- أنت تسخر مني ..
- أنا .. حاول أن يكتم ضحكة لكن دون جدوى .. آسف فعلاً لكنك منعشة بطريقة لا تتخيليها ..

صمتت سديم وهي مدركة بأن ما يقوله يؤثر عليها بطريقة لا تحبها لكنها مجبرة على أن تشعر باختلافها .. كلا ليس ما يقوله فقط بل هو بأكمله من يشكل اختلافاً لم تعرفه من قبل رغم كل إيمائاته وكلماته التي تعجز عن تتبع معانيها المختبئة لكنه .. يوجد شيء ما يجعلها تشعر بالأمان بصحبته وثقة غريبة هجرت عادة منحها لأحد انتقلت من أعماق نفسها المشوشه إليه هو ..

- ماذا تريدين مني سديم؟

جاء صوته هادئاً .. رفعت عيناها إليه لتطالعها نظرات عسليه متألمة .. الألم وشيء لم يخيفها أبداً بل زاد فضولها أطل من عينيه .. رغم سخريته من طريقة تفكيرها .. لكنها متأكدة من أنها تراه كما هو بالفعل .. تراه بصورة ربما هو نفسه لا يعرفها في نفسه .. أنت لن تؤذيني يوماً أعرف بأنك لن تفعل ..

برقت عيناها .. قرأ نداءً كُتِبَت أحرفه على صفحة وجهها المتورد .. لم تكن فقط شفتيها من تنافسان عينيها جمالهما بل كل ما فيها ينافس بعضه .. وتلك البراءة التي جعلت من صورتها أكثر حسناً تكاد تقضي على أعصابه .. سديم لمَ أنتِ صغيرة هكذا ؟ .. لو كنت فقط أكبر ببضع سنين .. فقط لو كنتِ !!

- ناصر .. أنا

ابتسم رغماً عنه لدى سماعه ورؤيته لشفتيها تنطقان اسمه ..

- أريد .. أ .. أن .. أطـ ..
- قولي بلا تردد سديم .. لمَ طلبتِ لقائي ؟

رفعت يدها بتوتر في محاولة منها لبدء كلماتها ولو بالإشارة .. عليها أن تنطق يجب أن تتكلم .. فتحت فمها لتتكلم وعينيها ترسلان له رجاءً بأن لا يخيب ظنها به

- أنا بحاجة إلى المال .. أريدك أن تساعدني بإيجاد عملٍ ما .. أي عمل

كفت عن الكلام وقد تمكلتها الرهبة لدى ملاحظتها التعبير الذي ارتسم على ملامح وجهه التي كانت مبتسمه قبل لحظات .. أمسكت حزام حقيبتها تشد عليه بعنف وقد أحست بالخوف من التغيير الذي طرأ عليه

***

تقلب على فراشه في محاولة منه لإيجاد وضع يخفف ولو القليل من الصداع الذي يفتك برأسه ..

قد أفاق من نومه الذي كان أشبه بالغيبوبة ليجد نفسه مستلقياً على الأرض حيث تركه ناصر منكفئاً على وجهه .. لم تطل الذكرى غيبتها عليه فاستعاد أحداث الأمس بالكامل .. تأوه ألماً .. لم يفده الحمام في شيء هو بحاجة إلى فنجان قهوة ومسكن .. لكنه لم يجرؤ على الخروج من غرفته .. كيف سيواجه والديه؟؟ ناصر؟؟ عاود التقلب .. استقر أخيراً على ظهره .. كومة من المشاعر المختلطة تهجم عليه عندما يطرأ بذهنه اسم لأحد أفراد عائلته .. أو لها .. لم يعرف ما الذي سيفعله الآن .. كيف سيتصرف؟؟

***

- مرحباً

تباً .. تمتمت هدير من بين شفتيها المضمومتين بضيق .. رفعت رأسها

- انظروا من جاء أخيراً ..
- تأخرت عليك ..
- لا عليك لم تكن سوى بضع ساعات .. ردت بسخرية

تقدم نحوها جالساً على حافة المكتب .. وهو يتكلم

- آسف يا جميلتي .. لقد كنت مريضاً جداً هذا الصباح فلم أستطع القدوم على الموعد

وضعت القلم من يدها .. نظرت إليه بحدة، يومها لم يكن سهلاً وآخر ما تحتاجه هي كلمات غزل تصدر من شفتي هذا المقرف .. فقالت بنفاذ صبر بدا واضحاً جداً له

- غزوان .. رفعت يدها مشيرة بسبابتها .. إياك والتمادي معي .. أنا لست جميلتك
- هوني عليك أنا لم أقصد

قاطعت كلماته بعنف ضجر وهي تقف نافره قربه منها

- لا يهمني إن كنت تقصد أم لا .. وانزل من على المكتب فوراً

نفذ غزوان ما أرادته .. منذ أن عملت هذه الهدير هنا وهو يحوم حولها من دون أن ينال شيئاً، عرف ظروفها ووضع عائلتها المزري .. حاول معها قدم لها العروض المبطنة التي أدركتها هي بذكائها وردت عليه بتجاهلها أحياناً وبثورات عصبية أحياناً أخرى .. سنة ونصف تقبل كونها امرأة مستقيمة وبأنه لن ينالها لا هو ولا غيره .. لكنه منذ أن علم لا يستطيع إلا أن يتسائل لمَ ليس هو ! كانت

نظراته تمشطان جسدها الواقف بتحدٍ أنثوي مستفز و عيناها النرجسيتان الرائعتين تتطلعان إليه بقرف .. لقد بدأت اللعبة منذ زمن هدير وأنتِ لا زلت غافلة عنها ..

ابتسامة ساخرة سكنت شفتيه الرفيعتين .. واستدار ذاهباً هكذا ببساطة تاركاً هدير تتطلع إليه بدهشة وقد فوت لأول مرة عرض السماجة اليومي الذي لسوء حظها يختصها به دون غيرها .. حتى أنه لم يخبرها عن سبب طلبه حضورها مبكرة .. نظرت إلى ساعة يدها إنها تقارب الثانية ظهراً، تنهدت بانزعاج ترى هل ستجد الوقت أم لا !

***

وضعت أذنها على خشب الباب تحاول أن تلتقط صوتاً دون جدوى .. هل يعقل بأنه ما زال نائماً .. لا تستطيع أن تصبر أكثر، لمْ يمنع عنها الحاج محادثته من خلف الباب الموصد

- عمران .. بني

عندما سمع عمران صوت والدته تحرك من السرير مسرعاً غير مبالي بألم رأسه .. وصل إلى الباب مد يده إلى قبضته يحاول أن يفتحه فلم يستجب .. حاول مره أخرى بقوة أكبر .. مقفل! الباب مقفل !!.

- أمي ما الذي يجري لمَ الباب مقفل ؟
- بني هل أنت بخير؟
- أنا بخير أمي .. لكن لمَ الباب مقفل ؟

صوته بدا ضعيفاً مهزوزاً .. هز داخلها بقوة لكن ما الذي تستطيع فعله لقد وصلت الطرق إلى مفترقها ..

- والدك من أمر بذلك عمران .
- لكن .. أمي أرجوك أنا بحاجة إلى التحدث إليكِ أرجوكِ أمي

- آسفة بني لقد تماديت كثيراً .. وعليك أن تتحمل عواقب طيشك

عواقب .. الآن !!!

- أمي .. افتحي لي الباب

تراجعت ناهدة إلى الخلف بعد أن كانت مستندة إلى الباب المصنوع من خشب الصاج السميك وهي ترد بعزم

- لا أستطيع

قفزت مجفلة بعد أن سمعت ضربة قوية على الباب يعقبها صراخ عمران الغاضب

- لست طفلاً يعاقب بالحبس .. توالت الضربات .. افتحي الباب أمي

لم تعرف من أين أتت عزيمتها .. من خيبة أملها القوية بعمران؟ أم من رغبتها الشديده بإصلاح ما فسد من أخلاقه ؟؟

- لن أعصي والدك .. يكفينا عاصياً واحداً بالبيت .

سارت مبتعدة عن غرفة عمران وضرباته وصراخه المستمريْن على الباب تكشف لها متأخرة ما أعمت عنه بصيرتها لسنوات ربت فيها عمران على أن يأخذ ما يريد ويفعل ما يشتهي من دون رادع، معترفة بألم بأنها تتحمل لوحدها وزر انحلال ولدها ..

مر وقت عليه وهو يصرخ ويضرب الباب بكل قوته حتى أنْهِكَ تماماً وسقط جالساً قرب الباب مسنداً ظهره إليه بإرهاق شديد .. وضع رأسه بين ذراعيه .. إنه يشعر بالوحدة .. والدته التي كانت دوماً سنداً له ابتعدت لأول مره متخذة صفاً آخر .. لكنه بحاجة لها .. بحاجة إلى أن يتكلم مع أحد .. أي أحد .. ناصر .. هو يحتاج إلى ناصر هو فقط من يستطيع أن يقدم له العون .. لكن ما الذي سيقوله له .. كيف سيخبره بما حدث .. تنهد بضيق ..

يجب عليه أن يتصل بها .. لكنه لن يفعل قبل أن يتكلم مع ناصر .. ذلك الأخ الذي لم يتوانى عن الهرع لإنقاذه من أي ورطة يقحم نفسه فيها .. لكن هل سيساعده هذه المره أيضاً؟؟؟ لكن كيف سيساعده ؟؟؟ ضرب جبينه بقوة وهو يقول بغضب

- تباً .. تباً لحماقتي .. ما الذي فعلته بنفسي !

***

راقبته بوجل وهو يخرج من محفظته أوراقاً مالية من فئات كبيرة ويلوح بها باتجاهها ليقول بصوت متهكم

- لمَ لمْ تقولي منذ البداية بأن ما تريدينه هو المال ..

اتسعت عيناها بدهشة حاولت أن تتكلم كي توضح له ما تريده فعلاً لكنه لم يمهلها اقترب منها

بسرعة أمسك بذقنها بقوة لتتجمد أطرافها كلها دون أن تستطيع أن تتحرك وزال كل لون من وجهها

- أعطيكِ منه ما تتمنين .. ابتسم بقسوة مضيفاً .. بالمقابل هل تعطيني ما أريد منك

تحركت أصابعه من على ذقنها ليضع إبهامه على شفتيها يحركة بخفة على شفتيها بينما سرحت يده الأخرى في طيات شعرها الذي أحله من رباطه .. اقترب منها أكثر .. فأكثر

صمت .. لا يوجد أحد .. سكون عجيب لف المكان .. و .. خوف ضجت به الأرجاء .. خوف شارف أن يكون ذعراً برز بوضوح في عينيها الجامدتين فبدا كأنه يشيد حاجزاً غير مرئياً بينه وبين رغباته .. سرعان ما ترجم بدمعة وحيدة سقطت من عينيها راقب انزلاقها بأعصاب مرتجفة حتى رطبت بعتب كف يده المستريح على وجنتها كأنها تنذره من مغبة إطلاق العنان لرغباته .. ابتلع ريقه بصعوبة،

رفرف بجفنيه حرك بصره بروية من عليها يحاول أن يجد الجرأة كي يتطلع إلى عينيها الدامعتين .. ضم شفتيه بغضب شديد ليقول بصوت حمل من العنف صورة مصغرة عن مشاعره التي وجه لسديم اللوم بإيقاظها من سباتها الطويل

- أم أنك تريدين أن تأخذي .. بدون أن تعطي شيئاً كما أرى

ابتعد عنها ليردف بقسوة ..

- أخرجي فوراً من السيارة .. التفت إليها صارخاً عندما لم تصدر منها حركة أو تبنس بحرف .. تحركي

شهقت بخوف وسارعت لتنفيذ أمره .. مدت يدها إلى مقبض الباب كي تفتحه ونجحت بعد محاولات ضعيفة عدة وقد أعمت الدموع عينيها فتشوشت الرؤيا .. ما الذي حدث له ؟ لمَ تغير هكذا .. لم

أقل شيئاً يجعله يتصرف هكذا معي .. غبية .. أنا مجرد غبية وحمقاء ..

وفي غمرة ارتباكها وخوفها تحركت مترجلة من السيارة دون أن تنتبه إلى حقيبتها التي سقطت من على حجرها أثناء إمساك ناصر بها فتعثرت بحزامها الذي التف على قدمها اليمنى لتسقط على رصيف الشارع بقوة موجعة جعلتها تطلق صرخة خافتة .. أخرجت ناصر من مزاجه القاتم

نازعه تردد ضعيف سرعان ما قهره فهرع مترجلاً من السيارة وهو يهتف قائلاً

- سديم .

وصل إليها مد يده لها يحاول أن ينهضها من مكانها على الرصيف فانكمشت بذعر وهي تحاول أن تجلس باعتدال وهي تسحب تنورتها تغطي ما انكشف من ساقيها .. ركع جوارها وقد أدرك بأنه قد آذاها

عندما أصغى لخاطر مجنون حل بفكره عندما طلبت منه المال .. قال لها بصوت يعكس ندمه

- سديم .. أنا آسف صغيرتي ..

مد يده يحاول أن يبعد خصلات شعرها الكثيف عن وجهها كي يتسنى له رؤيته فسارعت بضرب يده تبعدها عنها وهي تنظر إليه بغضب منكسر يخالطه ضعف محزن لتقول بصوت متهدج

- دعني .. ابتعد عني
- اسمعيني ..

سارع لإمساك ذراعها محكماً قبضته عليها مانعاً إياها من الابتعاد عندما لاحظت اقترابه منها .. حاولت سحب ذراعها دون جدوى التفت تبحث بعجز عن مخرج ما من ورطتها هذه

- لن أوذيك يا صغيرة

عقد حاجبية وقد عرف بأن فكرها مشغول بالفرار وبأنها ليست مستعدة لسماع اعتذاره .. المبلل لا يخاف قطرات المطر .. فكر بصمت .. سحبها إليه بقوة فاجأتها فأمسك كلا ذراعيها وثبتهما بيد واحدة في حجرها .. والأخرى وضعها على جانب وجهها يقربه إليه .. ابتسم بعطف عندما أغلقت عينيْها بقوة .. لقد أخافها هو يستحق أن تحجب روحها عنه وأن ترتعد خوفاً منه كأنه مجرد حيوان مغتصب

- افتحي عينيك يا صغيرة .. لا تخافي لن أؤذيك .. أقسم بأني لن أفعل .. أرجوكِ سديم أنا أعتذر منك .. أعرف بأني أخطأت بحقك .. افتحي عينيك
- ستؤذيني

جاءه صوتها خافتاً خائفاً ليغرقه في الخجل .. يا إلهي ما الذي فعلته لهذه الطفلة ..

- صدقيني لن أفعل .. افتحي عينيك وانظري إلى عيناي مرآة الروح .. أليست هذه

كلماتك ؟ انظري إليهما كي تعرفي بأني أبداً .. أبداً لن أؤذي سديمي

ارتجاف شفتيها أنبأه بأنها مصغية فكرر محاولاً إقناعها

- افتحي عينيك .. وأجبريني على الاقتناع بجدوى لغة العيون

ببطء فتحت عينيها .. وتطلعت إلى العسل في عينيه .. فهمس قائلاً برجاء يائس

- ماذا .. هل ترين فيهما أسفي وندمي ؟ هل تستطعين فعلاً أن تشعري بمدى خجلي من نفسي ومنك ؟! هل ترين في عيناي وعداً بأني سأحميك من نفسي قبل غيري وبأني لن آوذيك مجدداً أبداً ؟؟ هل ترين ؟!

انسابت دموعها على خديها وقد تلاشت قدرتها على فعل أي شيء سوى الإصغاء إلى ما تنطق به شفتيه

وعينيه اللتان ذهبت عنهما تلك الشرارة المتوحشة التي أرعبتها

- لماذا إذاً فعلت .. لماذا آذيتني ؟

حرر ذراعيها وقد أذابت دموعها وهمساتها اللائمة قلبه فسحبها بعطف كي تستكين بين ذراعيه بحنو وهو يحرص بأن لا يسبب لها الخوف من جديد

- أنا آسف ياصغيرة .. لكن الخطأ دوماً يجر معه خطأ أكبر ..

أبعدها عنه بلطف ليتطلع إلى وجهها الجميل الحزين المزين بدموع كان هو السبب في ذرفها

- لقاؤنا كان خطأ ..

شهقت ببكاء مرير

- لكني لم أرد شيئاً خطأ .. أردت فقط عملاً ..
- أعرف .. أنا لا ألومُكِ أنتِ .. بل ألوم نفسي .. أنتِ مجرد فتاة يافعة .. تكلم بأشياء لا

تدرك معناها أو حتى تلميحاتها .. سديم ..
أنتِ بنظراتك المتفحصة بكلماتك كل شيء
فيكِ بدا كأنه يصدر دعوة أنتِ غافلة عنها
.. دعوة لن يستطيع رجل التغاضي عنها ..
لكن ..

صمت لثوانٍ ليكمل ساخراً من نفسه

- أنا رجل ناضج .. اللوم يقع عليّ لأني انسقت خلف ..

أشاح بيده مبعداً أفكاراً لا جدوى من التمعن بها ليضيف قائلاً:

- دعينا من كل هذا الآن .. أنتِ تريدين عملاً .. أنا سأوفر لكِ العمل لا تقلقي بهذا الشأن

ابتسامة ناعمة خفيفة أوشكت على الإشراق بوجهها لدى سماعها كلماته، قالت وهي ترفع كفها تمسح دموعها بظهره

- حقاً ؟ .. هل ستفعل ؟

مد يده إلى جيبه مخرجاً منديلاً منه وشرع بتجفيف دموعها قائلاً باستسلام:

- سأفعل هذا .. وسأفعل أي شيء آخر ترغبين به ..

راقب تأثير كلماته عليها ليتمتم بصمت .. أظنه قدري من جعل مني طوعاً لدمعة وابتسامة منك

***

المصعد معطل .. اضطر أن يستخدم السلالم .. لم يعرف بأن لقاؤهما سيأخذ كل هذا الوقت .. لقد وصلت الشحنة؛ هكذا أخبره منذر عندما التقاه في بوابة العمارة .. سيقوم بمراجعة الأوراق والعقود حتي يهيئ نفسه للسفر إلى البصرة ..

خرجت من الشقة الخالية .. لم يحضر اليوم .. لقد أصر على لقائها اليوم فحضرت رغم ضيق الوقت وتخلف هو .. هل هو بخير؟؟ أصدر كعب حذائها

الرفيع إيقاعاً ثابتاً على الأرض الرخامية يرنم خطواتها الواثقة يتابع سير أفكارها المتسائل .. اتجهت نحو السلالم كعادتها .. فقد اعتادت السير في زوايا المكان غير راغبة بأن يلمحها أحد .. ابتسامة مريرة ارتسمت على شفتيها .. سرعان ماتحولت إلى أخرى متحدية ولقد لمعت عينيها ببريق مستفز ..

هو يريد الصعود وهي تريد النزول .. وقفا وجهاً لوجه كلاهما يتفحص الآخر بنظرات تبوح برأي صاحبها بالآخر .. كانت هي ذاتها المرأة التي ترتاد الشقة رقم (5) تطالعه بنظراتها المستفزة .. ضمت شفيتها بحنق شديد .. برقت عيناها ملقية تحدياً في وجهه .. تكلم .. قل شيئاً إن استطعت !

الفصل العاشر

جلس ناصر على كرسي مكتبه في الشركة وصورة تلك المرأة لا تفارقه نظراتها الغريبة رغم التحدي السافر فيها تذكره بأحد ما .. فيها شبه من شخص ما .. لم تخفض عينيها بل استمرت بحدجه وهي ترفع أحد حاجبيها بسخرية واضحة .. لقد اشتهى كفه أن يذيقها صفعته فيعلم خدها المسعر الأدب ..

- سيدي .

رفع بصره ليجد استبرق تقف أمامه .. لم يشعر بدخولها إلى المكتب

- ماذا تفعلين هنا ؟
- لقد قال منذر بأن حضرتك ستعود إلى المكتب .. فظننت بأنك قد تحتاجني

نهاره هذا كليلة أمس مشحون بأحداث كثيرة لم ترفق بأعصابه .. حسناً ليكون صريحاً مع نفسه .. سديم هي من سببت له هذا الضيق المرفق بأعصاب مشدودة .. أزاحت تلك الفتاة كل تعقل لديه فتصرف برعونة معها .. حمد الله للمرة الألف بأنه توقف عند حد معين لم يتجاوزه ..

- سيدي؟

أفاق من شروده على صوتها المتسائل، كانت استبرق ما زالت واقفة أمامه لكنها بدت مرتبكة جداً ومحمرة الخدين .. قطب حاجبيه وقد انتبه أخيراً بأنه كان ينظر إليها دون أن يراها .. ألم يجبها ؟ لا يعلم ! تكلم بنفاذ صبر

- ماذا استبرق؟

زاد ارتباكها أكثر فقالت مترددة:

- لقد سألتك ..

رفع يده مقاطعاً جملتها .. حسناً يبدو بأنه لم يفعل .. لم يجب على سؤالها

- كلا .. كلا لست بحاجتك .. اذهبي إلى بيتك ومره أخرى لا تبقي بعد ساعات العمل
- لكن .. سيدي

نهض من مكان جلوسه متجهاً إلى النافذة خلفه وقف بقربها رفع يده مبعداً الستائر الداكنة عنها وهو يقول بدون اكتراث

- اذهبي استبرق .. لقد أوشكت الشمس على المغيب .. عودي إلى بيتك قبل حلول الظلام .. شكراً لكِ

خرجت كما دخلت دون أن يشعر بها ..

وقف ناصر ينظر كعادته إلى الشارع المزدحم من مرتفعه يدقق النظر من خلف ستار دخان سيجارته بالتفاصيل اليومية التي تمر أمام بصره دون أن يمل تكرارها .. يتتبع عفويتها العفوية التي لم

يشعرها حقاً حتى التقى سديم .. من مكانه بدا كأنه يترصد الأفكار يترصد الزمان .. بدقائقه وثوانيه .. يستَنْكِه اللحظات يستشعر أحداثها بعد أن مضت به سنوات لم يشعر خلالها بأهمية لحظة .. بهذا الحال أصبح منذ أن رآها وتكلم معها وتلمس شيء من قربها .. أصبح للزمان .. البارد الرمادي .. حدود ملونة مشرقة بحبات الأحاسيس المتوجة بعاطفة حره نقية متوهجة تحيره تربكه وتشده إلى أحضانها بقوة لتسقط دفاعات هواجسه .. وتضمحل بداخله طبيعته القلقة .. كان يراقب ينظر يتفحص بفكر شارد!! .. الناس يتحركون بسرعة مدهشة لا أحد يلتفت لأحد الكل مشغول بحاله رغم اختلاطهم ببعضهم لكنه يشعر بعزلة كل واحد منهم عن الآخر .. الرجل العجوز الذي كان يسير الهوينا مستنداً على عكازه يقف فجأة ليبعد بعكازه المثقلة بحمل جسده النحيف شيئاً ما من على الأرض كي لا تلتقطه تلك الطفلة التي غفلت عنها

والدتها المشغولة بصديقة ربما لم ترها منذ زمن بعيد وتضعه بفمها فتجهش ببكاء لفت أنظار الوالدة لتترك صديقتها وتسحب طفلتها إلى حيث العجوز فتمد يدها لتكون له عكازاً آخر يستند عليه لينزل الرصيف دون أن يؤذي نفسه .. ممارسات تلقائية يقوم بها الناس تجاه بعضهم البعض تعكس صورة لاندماج حقيقي لم تشوهه المسميات الملونة .. ممارسات تهمش صومعة الهموم التي يعيش بداخلها كل فرد بمعزل عن الآخر .. ليظهر النسيج الأنيق لمجتمع راقي الفكر والتعبير ..

تـ .. ك .. تـ .. ك .. تك .. تك .. حبات مطر بهدوء ألحت عليه كي يترك البشر لحالهم .. وينتبه لها ويحس بهائها .. رمى السيجارة بإهمال ليس جزءاً من طبيعته .. فتح النافذة الكبيرة .. اقترب بجسده من حافتها رفع رأسه مستنشقاً رائحة المطر بلذة غير معهودة .. أغمض عينيه .. شعر بقبلات المطر تنتشر دون حياء على بشرته ..

ابتسم بفرح طفولي .. لركز صهوة الخيّال كفارس يبحث عن مدينة للأحلام كي يغزوها، بتعطش رجل ملّ حياته الباهتة الخالية من حلم أو حتى كابوس .. رفع وجهه أكثر إلى السماء .. والابتسامة تزداد اتساعاً .. كان ببساطة يمثل مشهداً غير مألوف لرجلٍ سكنته الأحلام .. المشروعة !!

***

دقائق مرت .. الرنين على الجانب الآخر مستمر

- ألو

أغلقت السماعة بسرعة عندما سمعت صوت السيدة ذاته يرد على الهاتف للمرة العاشرة .. تباً لك عمران .. اين أختفيت هكذا .. عاد مازن إلى البيت منذ ما يقارب الساعتين .. عاد لوحده لم يرافقة عمران كالعادة .. ترى هل ذهب إلى الجامعة اليوم .. هل يأكل ؟ ينام ؟ يتكلم ؟ يضحك !! هل يمارس طقوس يومه كأن شيئاً لم يكن ! .. بدون أن يفكر

بها ! .. كيف لها أن تعلم ؟ كيف ؟؟ فركت قبضتيها معاً بيأس يخالطه الغضب .. ودموع إحباط هطلت على خديها يعلمانها بنياشين الندم ..

- بيداء

نداء لوالدتها أخرجها من دوامة أفكارها مرغمة، صرخت وهي ترفع كفيها إلى وجهها تجفف دموعها بسرعة

- نعم
- تعالي بسرعة كي تساعديني في إعداد العشاء

أجابت على والدتها بينما سارعت يدها إلى الهاتف مرة أخرى كي تجرب حظها عل وعسى يرد هو عليها

- حاضر .. ثوان و أكون معك

***

- هل عاد ناصر؟

بصوت خافت ردت ناهدة

- كلا يا حاج ..

أخذت السترة من على كتفيه .. معها رباط العنق الذي ناولها إياه .. كان الذبول يرتسم على وجهها الرقيق التقاسيم .. لم تحاول أن تحدثه بشأن عمران .. لم تحاول أن تستميله كي يرضى ليرخي الحبل كلما أراد أن يشده كعادتها ..

- وعمران؟ كيف حاله اليوم؟
- الباب مقفل يا حاج .. كيف لي أن أراه

ابتسامة هادئة حلت على شفتيه كضيف خفيف:

- لديك نسخة من المفاتيح ناهدة .. ألم تحاولي أن تفتحي الباب كي تطمئني على المدلل

أغلقت باب الدولاب واستدارت إليه

- أوشكت أن أفعل .. لكني تراجعت .. هزت رأسها بيأس

أومأ برأسه راضياً .. ناهدة رغم تعلقها الشديد بولدها عمران وتفضيلها إياه على ناصر لكنها يوماً لم تتصرف من دون علمه حتى تكتمها على بعض تصرفاته كانت تعطيه إشارات وتلميحات لفعلتها .. للأسف ناهدة لا أستطيع لومك مع أني أكثر من راغب برمي ثقل انحراف عمران على عاتقك ..

- فلتذهب أم خلدون له بالطعام ..
- لكن .. لمَ ليس أنا ؟
- أريده أن يشعر بأنه قد نبذ من قبلنا .. كيف يتكون له مثل هذا الإحساس إن ذهبت أنتِ إليه!

أومأت بالموافقة .. سيكون له ما يريد لن تعارض ولن تجادل، قساوته وشدته جعلت من ناصر رجلاً تتباهي بكونها والدته ولينها وعطفها جعلت من عمران شاباً مستهتراً أناني المشاعر .. أرخت بصرها إلى الأرض مقره بإذعان .. أثبتت الأيام بأن تربيتك هي الأصح يا حاج.

***

رمى المسبحة من يده .. لا شيء يفيد لا شيء يفيد .. نهض مجفلاً .. ضحك .. ضحك جميل .. بدا كأنه يناديه .. تعال

لا أريد .. لا أريد .. تباً .. ارتجف جسده .. وضع يديه على رأسه يضغطة بقوة .. يريد أن يكتم للأصوات أنفاسها ..

- ماما .. هل أقطف تلك الوردة الحمراء
- دعيها علياء ..

ركض مسرعاً نحو النافذة يغلقها وهو يصرخ بصمت .. اسكتي .. اسكتي .. كانت أمامه .. تتفقز بمرح الأطفال .. تشبثت يداه بدفتي النافذة المشرعة .. غاب كل شيء عن الرؤيا وبقي الجسد الطفل يتموج

أمامه تحدد تحركاته نظراته الحمراء .. لوى رقبته بعجز .. علت الأصوات تسارعت الأنفاس .. لتكتم المقاومة .. الهشة الأصل المزيفة الحقيقة!

***

ركن ناصر سيارته خارجاً .. فتح الباب الخارجي للبيت دخل بخطوات ثقيلة متعبة ؛ كان نهاره مرهقاً جداً .. صداع لازمه منذ ساعة الغروب ازدادت حدته مع مرور الوقت

- ناصر

التفت .. كان والده الجالس برفقة والدته في الحديقة هو من ناداه .. وضع حقيبة الأوراق على الأرض قرب الباب الداخلي .. كان يحس بضعف شديد .. سار إلى حيث والديه

- مرحباً

انحنى مقبلا رأس والدته .. وقد لاحظ رغم تعبه الإهارق الذي اعتلى ملامحها والذي أعاد لذاكرته التي سهت قليلاً موضوع أخيه عمران .. جر كرسياً ليجلس بالقرب منهما وقد بادر بالسؤال

- أليس الجو بارداً بالحديقة ؟
- أردت ووالدتك أن ننعم بالهواء الطيب .. تأخرت؟

أرجع ناصر ظهره إلى الكرسي يستند عليه وهو يمد ساقيه الطويلتيْن إلى الأمام بإنهاك واضح

- لقد أخبرني منذر بأن شحنة المكائن للمعمل الجديد قد وصلت .. فعدت للشركة كي أنهي بعض المتعلقات قبل أن أسافر

استوت ناهدة بجلستها واستدارت باتجاه ولدها لتقول بتوجس

- تسافر إلى أين

أجاب ناصر والدته وهو يفرك رقبته المتشنجه

- إلى البصرة أمي
- متى؟

ألقى ناصر نظرة مستفهمة إلى والده وهو يستغرب الاهتمام الغير معهود من والدته و الذي هز كتفيه مشاركاً ولده التعجب

- غداً .. أو بعد غد لـ ..

نهوض والدته المفاجىء مع الغضب الذي نطقت به ملامحها ألزمه الصمت لينهض بدوره

- تسافر غداً أو بعد غد !! هل أنت جاد ؟
- ناهدة .. تكلم الحاج بصوت هادىء .. يجب عليه الذهاب من سيتابع العمل غير ناصر
- لكن ..

كان يستمع إلى الحوار الدائر بين والديه بتركيز ضعيف .. كم يود لو يتركانه يرتاح قليلاً .. كم يود أن يتمدد على سريره .. متعب هو متعبٌ جداً ..

مد يده يفرك جبينه بقوة والألم برأسه تضاعف أكثر .. بصوت منهك:

- أمي ما الذي يهمك من سفري ؟ لم تهتمي يوماً .. لم الآن؟

تطاير الشرر من عينيها أغلقت بإرادتها العتب المبطن الذي لاح بكلمات ولدها الكبير وقد تركز كل تفكيرها بالصغير كما كانت دوماً

- ألا تعرف لماذا .. أنت تتصرف وكأن البيت لا توجد فيه مشكلة تستوجب أن نبحث لها عن حل ما .. عمران أخاك هل نسيت ما يعاني منه
- أمي ..
- ناهدة .. ماذا تريدين منه أن يفعل .. أنتِ تتكلمين وكأن عمران يعاني من مرضٍ آخر غير انحلاله

- حسناً .. أنا أعرف بأنه قد أخطأ .. انتيهنا من أنه مخطئ .. الآن علينا أن نبحث عن حل لوضع عمران .. سجنه بغرفته ليس حلاً .. هو أخاه من واجبه أن يقدم له العون
- يبدو بأنك نسيت ..

لم يعد ناصر قادراً على الوقوف أكثر .. سجال والديه الذي لم يره يوماً بدأ يشتد .. تحرك مبتعداً مفسحاً لهما المجال كي يتباريا في تركيب أحدهما خطأ الآخر .. عمران فجر بطيشه اللامحدود نقاط خلاف كثيرة بين والديه .. نقاط خلاف خنقت لأعوام لتجد أخيراً بكلمات اللوم التي يتقاذفانها خير متنفسٍ لها.

وصل إلى الردهة التي وجد فيها أم خلدون تقف بقرب الهاتف والتي ما إن رأته حتى أطلقت ابتسامة سخية عطوفة تخصه بها دون غيره من أفراد العائلة التي عملت هي بخدمتهم لسنوات طويلة منذ كان ناصر طفلاً

- مرحباً بني

ابتسم بوهن

- مرحباً يا خالة

منذ كان صغيراً وهو يناديها بالخالة رغم اعتراض والدته وغضبها من هذه التسمية المقارنة .. تحركت نحوه لتقف قربه مدت يدها تخلع عنه سترته وهي تقول بحنان

- تبدو متعباً .. اذهب فوراً لتأخذ حماماً ساخناً .. يتبعه عشاء أحضره إلى غرفتك

ضحك بصوت خافت متعب

- دوماً نصائحك تغري بتنفذيها
- أوف

قالتها أم خلدون لدى سماعها الهاتف وقد عاود الرنين .. اتجهت نحو الهاتف وهي مسترسلة في تذمرها

- الهاتف لم يهدأ من الرنين منذ ساعات .. ناس فارغة
- ومن المتصل؟
- لا أحد يرد!

وصلت إلى السماعة تريد رفعها لتجد كف ناصر تستقر عليه قبل كفها .. رفعت نظرها إليه وقد استغربت تصرفه

- اتركي الهاتف .. سأرد أنا ..

تنحنح محرجاً ليكمل وقد أربكه الظن بأن سديم هي من تتصل فأراد أن يبعد أم خلدون عن

الردهة

- هل يمكن أن تعدي لي فنجان قهوة يا خالة ؟
- ليس ومعدتك فارغة! .. سأعد لك العشاء أولاً

رنين الهاتف مستمر يريد أن يبعدها بأدب عن المكان

- إذاً افعلي .. شكراً لك

سارت بخطوات سريعة نشيطة رغم سنوات عمرها التي شارفت على الستين .. رفع سماعة الهاتف أخيراً وهو يفكر بسبب اتصالها .. هل تريد إلغاء موعدها معه .. أغضبه الخاطر فصدر صوتاً يحمل تأنيباً واضحاً

- ألو .. من معي ؟

حبست بيداء أنفاسها .. أخيراً رد عليها صوتاً غير الصوت التي أرغمت أعصابها على سماعه طوال اليوم وهي غارقة في خضم محاولاتها الحثيثه للظفر بعمران .. صوت رجولي حاد النبرات .. لا يشبه صوت عمران .. فلتطلبه وليحدث ما يحدث

- ألو .. مرحباً

جائه صوت أنثوي عميق مرتبك النبرات .. قطب جبينه .. ليس صوتها

- نعم .. من معي؟
- أنا .. تنفست بعمق .. أريد عمران .. هل هو موجود؟

زم شفتيه بغضب وقد عقد حاجبيه حتى اتصلا ببعضهما .. يا للجرئة .. لا بد بأنها تلك الفتاة بيداء

- ماذا تريدين منه ؟ إياكِ أن تتصلي بالبيت مرة أخرى ..
- لكن .. بصوت تخنقه العبرات أكملت .. لكن .. أرجوك فقط دعني أكلمه أخبره فقط بأن بـ
- بيداء .. ألستِ بيداء؟

وضعت يدها على قلبها المرتعب .. والأفكار والهواجس تتلاعب بمشاعرها

- أنت تعلم!!!
- نعم أعلم .. اعقلي يافتاة .. ماذا تكونين سوى نزوة لشاب طائش .. لا تطمحي بالأكثر .. انسي عمران نهائياً واحذفيه نهائياً من حساباتك .. انسيه

أغلقت السماعة بقوة .. أرجعت رأسها إلى الوراء وهي تنظر إلى التي في يدها بذهول وهي لا تكاد تصدق ما سمعت .. أحذفه من حساباتي .. أنساه .. كيف .. كيف .. ارتخت ساقيها لا تستطيع حملها أكثر لتسقط راكعة أرضاً وهي تجهش ببكاء مرير .. وقد أحاطتها الوحدة بين أركانها الضيقة تعتصر كل أمل لديها بالنجاة.

***

تسللت إلى خارج البيت .. لقد هاتفها منذ ساعتين .. أخبرها بأنه سينتظرها في نهاية الشارع .. الظلام يسود المكان فقط اختراقات باهتة لأضواء

متناثرة خففت بضعف لا يذكر بعضاً من سلطانه الذي عمقه السكون ..

- تعالي حبيبتي .. أنا بانتظارك

- لكن الوقت متأخر!

- أرجوكِ حبيبتي .. أنا بحاجة إليك .. لم تخذليني يوماً .. لا تخذليني الآن .. أرجوكِ حبيبتي

سارعت بالمسير، صوت لكلاب تعوي جائها من بعيد .. أحاطت كتفيها بذراعيها وقد اعترتها ارتجافة لم تسببها النسمات الشتوية القارصة البرودة ولا الظلام المهيمن ولا حتى عواء الكلاب .. ارتجاف رفض قلبها أن يثقل على ضميرها تفسيره .. فقاومته بتمردها وحثت خطواتها المتشجعه بعشق جارف تكنه للرجل الذي لمحت طيفه الطويل في السيارة المضاءة بخفوت ..

فتحت باب السيارة وقد استقبلها سائقها بابتسامة متوترة .. جلست في مكانها بالقرب منه أغلقت الباب .. وحرك هو السيارة دون أن يتكلم أي منهما ..

الفصل الحادي عشر

- عمران

نادت عليه بصوت منخفض لا يظهر إلا القليل مما يعتمل بصدرها من قلق عليه

- بني .. هل أنت بخير؟

ألصقت أذنها بالباب علها تلتقط من خلفه أي صوت لأي حركة .. دون جدوى ..

- عمران؟ .. بني لا ترعبني ؟
أخفض رأسه وهو يصغي لكلماتها القلقة .. يرفض الرد عليها .. لقد تخلت عنه في أشد أوقات احتياجه لها .. كان جالساً على الأرض مسنداً ظهره إلى الحائط القريب من الباب .. صينية الطعام التي جلبتها له أم خلدون على حالها لم تمس .. لقد ترك وحيداً مع أفكاره دون معين يرشده إلى حل ما

طرقات ملحة على الباب

- عمران .. ولدي ؟ فقط قل بأنك على ما يرام أرجوك ولدي.
صراع لم يدم طويلاً خاضه عمران مع نفسه تمخض عن إجابة ساخرة من وضعه قبل والدته

- على ما يرام !؟ أنا معزول في غرفتي كموبوء .. وتريدين أن أكون بخير!
جائها صوته هازئاً ليشعل الغضب بداخلها ..

- أنت من فعل هذا بنفسه .. لماذا عمران ؟!
صمتت للحظات لتكمل والمرارة والألم اللذان شعرت بهما من جراء نظرات العتب والتأنيب التي لاحقتها من عبد الرحمن والتي جعلتها تنشج كلماتها الباكية

- لماذا كسرتني بهذه القسوة! لماذا .. لماذا؟

***

- الوقت متأخر الآن لمَ لا تقضي الليلة هنا؟

- ماذا !! كيف تقول هذا ماذا لو شعرت والدتي بغيابي؟

- الفجر اقترب عندما تدخلين إلى البيت في مثل هذه الساعة تجازفين بمعرفتك والدتك التي ستكون أوشكت أن تفيق من نومها كعادتها كي تقيم الصلاة

زفرت بانزعاج وقد وعت متأخرة لسوء تصرفها وهي تقول

- لكن كيف

اقترب منها يحيطها بذراعيه مقاطعاً إياها

-لا تنزعجي حبيبتي .. فكري معي هل تطل والدتك في الصباح على غرفتك؟

- كلا .. بمجرد أن تنهي الصلاة تعود إلى فراشها وقد أنهِكَت، أنت تعرف بأنها عليلة الجسد

- أممم .. أومأ مشجعاً لها .. إذاً من الأفضل أن تبقي.

تنهدت بضيق واضعة رأسها على صدره تلتمس الراحة التي فارقت الإحساس بها منذ زمن طويل وهي تقول بصوت يردد صدىً لنزاعها المستمر مع أفكارها

- إلى متى .. إلى متى علاء سنبقى هكذا ؟! يجب أن تتخذ خطوة ما يجب أن يعلم الجميع ..

ألجمت دموعها رافضة ذرفها كعادتها

-لقد تعبت .. تعبت فعلاً من هذه الحياة المزدوجة أموت ألف مرة باليوم .. أرى أمي أغرق في خجلي لأعوضه بسلاطة لساني .. أبعدت نفسي عن عائلتي

كي لا يكتشف أحد سري .. رفعت بصرها إليه برجاء .. تصرف علاء يجب أن تتصرف

- أخبريني أنتِ .. نظر إليها متحدياً إنكارها .. إن أنا ذهبت إلى والدتك هل ستوافق على دخولي بيتها ؟ هل ستسمح لك بذكر اسمي ؟ سترفض أن تستقبلني وأنتِ تعرفين هذا

- أنت مذنب بهذا

سألها مستهجناً اتهامها

-أنا!!

ابتعدت عنه قليلاً لتتطلع إلى وجهه وهي تقول مصرة على اتهامها

-نعم أنت .. لمَ لمْ تحاول أن تشرح لهم ما حدث مثلما شرحت لي ؟؟ لمَ لمْ تخبر والدتي بأنك لم تقصد أن تسيء لسديم. ؟؟ لمَ لمْ تحاول أن تزيل الرعب من نفس الصغيرة ؟؟!

طل الانزعاج من عينيه وقد أدرك بأن الحديث سيأخذ منحىً هو يرفض النظر إليه

- ماذا أقول !! لقدحدث ما حدث وكان الشقاق بين العائلتين بسبب أوهام شقيقتك .. هي من يجب أن تلوميها وليس أنا

ابتعدت هدير أكثر وقالت وهي تشوح بيدها بحنق

- لقد تعبت .. تعبت من اللوم .. أريد حلاً لوضعنا هذا ..

قطبت حاجبيها وركزت بصرها على عينيه اللتان ترفضان النظر إليها لترميه بسؤال بنفاذ صبر وألم

- علاء هل ما زلت تحبني؟

توقفت نظراته عن الترحال بعيداً عنها لتعاود مرغمة النظر إلى عينيها النرجسيتيْن المتألمتين

وقد لاح الضعف النادر الظهور فيهما .. هدير .. لو تعرفين معاناتي !! لوتعرفين مدى حاجتي إليك ،، أحبكِ .. حقاً .. أحبكِ .. الراحة التي يوفرها قربك لم يفلح أحد بمنحها إياي فقط قربك من منحها .. فقط معك تكتم الأصوات لأشعر بأني عدت إنساناً من جديد .. لكنك لا تعرفين من أنا حقاً لا تعرفين بأني .. مسخ .. مجرد مسخ تسكنه الشياطين .. لا أريد أن أقترب من عائلتك ،، لا أحتمل أن أواجه بذنبي سأفقدك حينها .. وستتملك مني الشياطين .. ستبتعدين عني أعرف بأنك ستفعلين عندما تعرفين حقيقتي .. وبأن سديم لم تتهيأ .. و بأنها لم تقل سوى ربع حقيقة ما فعلته بها ..

سديم .. اسمها كان كفيلاً بأن يعيد له الذكرى التي ينتشي لها ويتألم منها في الوقت ذاته .. سديم وصراخها المذعورالذي كتمه بكف يده .. فقدانها الوعي .. والحبال التي(..) .. عادت

الأصوات ناهضة من سباتها الخفيف تلح عليه .. تشير إليه بالمزيد من النشوة .. تدله على مصدرها الذي تركه يلعب بالحديقة و ولى مذعوراً هارباً .. ليلتجئ لملاذه؛ لهدير التي أحاطته بعاطفتها النقية من كل جانب .. مذهبة عنه أرطال الخزي التي تقبع روحه تحتها .. لأنها هدير .. وليس لأنها امرأة .. كما ظن في مرحلة ما بأن أي امرأة ،، أي جسد سيكون له ذات التأثير !! لكنه أخطأ .. جرب غيرها .. ليعود لها !!

- لم تجبني؟

وصله سؤالها الخافت .. ليجيب عليه بالحل الوحيد الذي يضمن له الاحتفاظ بها إلى الأبد

- لنهرب

صرخت بذعر

- ماذا .. !!

- نعم .. نهرب ..

وصل إليها أمسك بذراعها يبحث عن تركيزها .. فكر .. الحل الوحيد أن أترك كل شيئاً خلفي وأهرب بها ..

- الحل الوحيد هو الهرب .. أبي لن يوافق على ارتباطي بك وأمك مؤكد لن توافق .. كيف لهما أن يفعلا وسديم وحكايتها الزائفة أعدمت أي سبيل للتفاهم

أبعدت يده عنها بقوة أجفلته وهي تقول بعنف وهي تكاد لا تصدق بأن حله هو الهرب !

-هل جننت ؟! أخبرتك بأني لم أعد أحتمل خيانتي لثقة والدتي بي .. وأنت تقول بأن نهرب!! .. أتريدني أن أوصم عائلتي بالعار بفضيحة علنية تجعل منهم أحاديثاً يتاسمر الجيران بها ؟! أتريد مني أن أقضي على مستقبل إخوتي !! أن أقتل أمي

!! أنتَ واهم .. نفسي هانت علي لكن عائلتي لا .. وألف لا

- هدير

حاول أن يمسكها .. أن يسكت احتجاجها أن يقضي على إرادتها كما يفعل دوماً .. لكنها كانت أصلب مما ظن ..

- ابتعد

سارت بغضب تحاول الخروج من الغرفة الحمراء اللون والأفعال .. سارع نحوها وهو يشعر بأنه قد أوشك على خسارة ملاذه .. أمسك بذراعها مديراً جسدها إليه .. حاول أن يضمها إلى صدره وهو يهمس ويكرر بكلمات الرجاء والحب بأن لا تتركه

- ابتعد علاء .. هذا يكفي ..

حاولت إبعاده عنها، تحبه كثيراً لكنها فقط ملت العطاء تريد منه ولو اليسير مما أعطته .. تريد

حقها .. لم تفلح مقاومتها سوى في انزلاقه من جسدها حتى تمسك بساقيها يقبلهما حتى حط أخيراً عند قدميها وهو يتمتم بتوسل .. لا تتركيني ..

شهقت هدير .. وقد فاجئها علاء برد فعله .. عرفته طوال عمرها لم تره ضعيفاً متخاذلاً هكذا .. انحنت إليه تحاول أن تنهضه دون جدوى بقي قابعاً عند قدميها .. أحست ببله ما، يبكي .. يبكي !! .. ركعت جواره احتضنت كتفيه ..

- كفى علاء .. أنت تؤلمني .. لا تفعل هذا

رفع لها وجهاً يائساً حزيناً دامعاً .. لم تحزر بأنه يكتم بداخله فرحاً عارماً وقد لاحظ زوال العزم من عينيها ليحل الحب الذي طالما رآه فيهما بديلاً عنه .. همس لها وهو يتفحص ما أوشك على خسارته:

-لا تتركيني

ما رأته من ذبول حل بوجه حبيبها بخر كل عزم لديها بالابتعاد .. أحبك .. آه لوتعرف كم أحبك

-علاء .. أنا

-شهر؛ أمهليني فقط شهر واحد وسأحل الأمور العالقة كلها .. صدقيني حبيبتي

تحرك مستوياً بجلسته ماداً ذراعيه حولها ليضمها بعنف إلى جسده .. وهو ما زال مصراً على فكرة الهرب إن لم يكن برضاها فرغماً عنها !! شدد من اعتصاره لها .. سيجد السبيل لجعلها توافق على ما يريد.

***

فتح ناصرعينيه بصعوبه لدى سماعه صوت المنبه .. انقلب إلى جنبه بارتخاء ماداً يده إلى الساعة التي احتلت وسط الطاولة الصغيره قرب سريرة كي يخرس جرسها .. عاود الانقلاب ليستقر على ظهره

.. الوهن يسكن جسده وعظامه تئن بإلحاح .. أغمض عينيه مجدداً يريد أن ينام .. قفز مجفلاً من شبه الإغفائة التي تاه في سكونها المريح عندما تذكرها .. نهض على عجل .. ليترنح جسده .. وقف للحظات يريد أن يستعيد توازنه .. إنه يشعر بالمرض .. لكن عليه أن يذهب إليها لن يتركها تنتظر في الشارع ..

***

أكملت تمشيط شعرها لتربطه ذيل حصان كعادتها .. استدارت لتلتقط حقيبتها من على السرير .. فتحتها كي تفرغ بعض حمولتها .. هي لن تذهب إلى المدرسة اليوم فليست هناك من حاجة كي تحمل كتبها كاملة .. ألقت نظرة على سرير هدير الخالي .. يبدو بأنها قد ذهبت باكراً اليوم إلى العمل .. هذا أفضل .. سيعفيها هذا من تفحص شقيقتها المربك لها .. حملت حقيبتها وتوجهت إلى غرفة

والدتها التي ما تزال غارقة في السبات، ما زال الوقت مبكراً على موعد استيقاظها كي تُعِدَّ ترف للذهاب إلى المدرسة .. اقتربت بخفة من السرير المزدوج والذي حمل باقي أفراد عائلتهما الصغيرة .. أصغت إلى أنفاس والدتها .. اطمئن قلبها .. لم تعرف من أين اكتسبت هذه العادة لكنها لا تذكر يوماً مر دون أن تفعل هذا .. التفت مستديرة تريد الخروج .. ستلقاه قريباً .. ذكره أثقل قدميها .. بخطوات بطيئة متماهلة عادت إلى حيث كانت جلست على الكرسي القديم الذي بفضل ترف وحاتم لم يكن ليستقر بمكان واحد .. والتعثر الدائم به خير شاهد على ذلك .. راقبت الأجساد الساكنة .. لتستقر نظراتها أخيراً عند جسد والدتها المنهك .. أرخت بصرها إلى الأرض .. هي خجلة جداً من عصيانها لأوامرها .. لكنها لم تعد تملك القدرة على ادعاء الرضا .. هي ليست راضية عن حياتها؛ لم تكن يوماً .. ناصر .. فيه شيء يشجعها على

الاقتراب منه دون أن تفكر بمدى صواب الاقتراب منه أو حتى الابتعاد .. قلبها يقول لها بأن نجاتها ستكون على يده .. رغم شعورها لرفضه الصامت لها لكنها لن تصغي إليه .. لن تصغي لا لرفضه ولا حتى لتحذيراته .. لن ترتعب لقربه .. عليها أن لا تفعل .. مدت يدها التي تداري ارتجافها إلى أعلى ذراعها اليسرى تمسد أثراً خففت السنوات الست من بروزه على بشرتها لكن روحها ما تزال تحمل الأثر !!

***

قاد السيارة مبتعدا عن البيت .. لقد خرج متجنباً لقاء والديه .. رغم إحساسه بالذنب لترك كل شيء خلفه لكنه لم يجد في داخله سوى الرغبة بالفرار .. ولو مؤقتاً من التزاماته .. يحتاج إلى أن يقتنص لنفسه فسحة من الزمن يتنفس من خلالها .. مجرد سويعات قلائل يقضيها معها .. وبعدها سيعود

إلى ما تركه خلفه .. مسافة قطعها بسرعة حتى وصل إلى حدود الحي الذي تسكنه رغم أنه اتفق معها على أن يأخذها في الشارع المؤدي إلى المدرسة .. لكنه لا يجد سبباً يجعله يؤخر لقاؤها إن كان هنا أو هناك .. تفحص بنظراته الحي الفقير .. الشارع المؤدي إلى بيتها المنعزل بغرابة عن بقية البيوت المتلاصقة ببعضها و الذي مر في وقت سابق من يوم أمس من أمامه دون أن تعلم هي .. كان يحتاج بشدة إلى التعرف على البيت الذي يضم بين جدرانه مؤرقته .. لم تعرف هذه الصغيرة التأثير الذي أحدثته بحياته؛ لقد جعلته يشعر بأنه قد فوت الكثير على نفسه .. وليس هذا فقط بل ورغبة عارمة تنتابه للسعي لتعويض ما فاته

***

أغلق الباب من خلفه وتحرك معها هابطاً درجات السلالم .. حاول أكثر من مره أن يجذبها إليه بمزاحه .. يحاول أن يعيد لها مزاجها المتوافق معه دون جدوى .. كانت شاردة الذهن غير مرتاحة وهذا يزعجه لا يريد منها أن تفكر، يريدها أن تكون معه كما عرفها طوال عمره طيعة ناعمة تسعى لإرضائه .. كان يستمتع بهذا الجانب من شخصيتها والذي لم يعرفه سواه !! فهدير مع المحيطين بها إنسانة أخرى قوية صلبة يخشى مواجهتها أما معه .. فهدير أخرى ..

ابتسامة مريرة ارتسمت على شفتيها وهي تفكر بالحال الذي وصلت إليه .. إن نفورها من نفسها يكاد يزهق أنفاسها .. لقد شعرت بأنها قد استُهلِكَت بالكامل .. أهلكتها عاطفتها تجاه علاء الذي تشعر بنظراته تتابع تحركاتها .. لم تعد قادرة على مجاراته في التزام جانب الخفاء بعد الآن سنة ونصف وهي على هذا الحال .. سنة ونصف منذ أن تعمقت علاقتها به واتخذت طريق اللا عودة ..

سار كلاهما إلى مرآب العمارة كي يصلوا إلى سيارة علاء تتبعهم نظرات حارس العمارة المتأملة ..

***

ركن سيارته جانب الرصيف في الشارع الرئيس .. قرب (كورنيش الأعظمية) المكان الذي قرر أن يأخذها إليه .. راقب ملامح وجهها وقد علتها الابتسامة وهي تنظر إلى الكورنيش -مكانه المفضل- وقد أخبرته عندما أعلمها إلى أين ينوي أخذها بأنها أبداً لم تذهب إليه سابقاً .. التفت إليه قائلة

- مكان جميل

ابتسم لها وهو يرد

- لم تري شيئاً .. تعالي

لم يحاول أن يمسك يدها بل تجنبها وسار بجانبها وهو يحتفظ بمسافة لا يريد إلغائها، يلاحظ عفويتها في اتباع خطواته دون أن تسأله إلى أيّ بقعة من الكورنيش سيتوجهان إليها رغم توغلهما داخله والسكون الذي يحيط بأرجائه والجدير بإثارة حفيظة أي فتاة، لكن .. هي .. لم يبدو عليها أي علامات قلق .. وهذا ما يقلقه هو .. ستذهب هذه الصغيرة بالبقية من تعقله بتصرفاتها .. لا بأس لا بد أن يصل إلى حل ما مع نفسه أولاً ومعها ثانياً ..

- وصلنا

جلس ناصر على العشب الأخضر غير مبالٍ برطوبته مسنداً ظهره إلى جذع شجرة الكاليبتوس الضخمة ليحتضن دجلة -الذي واجهه- نظراته الحائرة بين تموجات مياهه المتحركة بانسيابة عذبة .. اتجهت نظراته نحوها .. كانت ما تزال واقفة تتطلع بما حولها بانبهار أسعده والنسمات الشتويه تداعب خصلات شعرها الحالكة السواد برقة .. ليعترف بصمت .. بأن لوحة الجمال قد اكتملت بوجودها

- تعالي .. أشار إليها إلى المسبطة القريبة منه .. اجلسي هناك

تحركت نحوه لتجلس على العشب قربه وهي تقول ببراءة أثارت عصبيته

- لماذا ليس هنا ؟

تباً .. تمتم بصمت .. ثم قال وهو يحمل صوته هدوءاً كاذباً

- لأن العشب رطب .. ربما تمرضين .. انهضي واجلسي هناك
- وأنت ألن تمرض! سأجلس على العشب .. دارت بعينيها في أرجاء المكان وهي تقول دون أن تلتفت إليه .. المنظر يكون أجمل من هنا ..

تنفس بضيق مقراً وهو يتمعن النظر إليها قائلاً بصوت خافت

- أجمل بالتأكيد
- هـ ..

التفت إليه تريد أن تسأله .. لتتوقف الكلمات رافضة الخروج من فمها عند رؤيتها لعينيه اللامعتين وهما تتأملانها وقد لاح فيهما اهتمام أربكها .. جالت نظراتها بتوتر على المكان من حولها وقد شح الأوكسجين فيه فجأة .. رفضت النظر إليه رغم إحساسها بدنوه منها .. كأنها بعدم النظر إليه ستلغي حقيقية كون أنفاسه من تداعب بشرة وجهها .. أحست بالحرارة تصعد لتغزو كامل جسدها .. هواء؛ تحتاج إلى الهواء .. جاءها صوته هامساً

- سديم ؟

تجاهلت ندائه الذي ألح به عليها

- سديم .. انظري نحوي يا صغيرة ..

تريد .. تريد النظر إليه .. لكنها لا تريد أن تصدم فترى بعينيه ما رأته ظهيرة أمس .. لا تريد منه أن يتغير .

- وعدتك بأن لا أؤذيك .. لن أنكث وعدي لك.

ارتخت أعصابها أخيراً بعد أن سمعت كلماته وقد حل الأمان بنفسها عوضاً عن ذلك الإحساس المرعب من أنه قد يعاود الاقتراب منها كما فعل نهار أمس .. والذي كان سيخلف بعده خيبة أمل لن تظن بأنها قادرة على تحملها

التفت إليه أخيراً طالعتها عيناها يسكنهما الاهتمام .. ابتسم بهدوء وهو يقول مستفسراً وقد رفع أحد حاجبيه

- خفتِ مني؟

هربت نظراتها بعيداً عنه ولم تحري جواباً والقلق وأحاسيس أخرى تتلاعب بها لا تعرف ما تسميتها لكنها تلح عليها بالانتباه لها وهو لا يساعدها أبداً بل يضاعف إرباكها

- لماذا لم تهربي إذاً ؟

عادت ببصرها إليه بسرعة وقد فوجئت بكلماته ليكررها بعزم

- لقد خفت مني ولا ألومك لخوفك أجده طبيعياً أكثر .. لكني أريد أعرف لمَ لمْ تهربي
- لأني لا أريد الهرب
- لهذه الدرجة أنت تثقين بي!
- لم أفكر بمدى ثقتي بك .. أفكر فقط بمقدار حاجتي إليك

أعاد كلماتها بسؤال هامس وهو يفكر مستغرباً .. لماذا حاجتها إليه تسعده ولا تثقل عليه لمَ يحسها منحة وليس عبئاً آخراً يضاف إليه

- بحاجة إلي؟

فكرت بصمت ونظراتها التي لم تدرك فعلها بنفسه تتجول على ملامح وجهه الوسيمة دون خجل .. أكثر مما تتصور؛ أنت تشكل اختلافاً رائعاً لم أعرفه يوماً .. لن أفرط بمعرفتك .. ربما .. ستؤذيني قليلاً لا أعرف ربما ستفعل لكني سأتحمل المخاطرة .. في جانبي لا يوجد سوى الظلام يحيط بي يحاول أن يجعلني أتلاشى بداخله .. أنت؛ أرى نور من حولك يلوح لي بالخلاص من عتمتي .. أحاول أن أمد يدي ولو بطيش كما تصفني حتى أصل إليك؛ إلى النور .. أنا أستحق حياة أفضل لن أتوقف عن السعي للحصول عليها بحلم أو بواقع !!

الفصل الثاني عشر

- وأنا سديم .. ماذا عن حاجتي أنا؟
أخرجها سؤاله بيسر من أفكارها الملونة بكثير من المشاعر والاستفسارات

- أنت! .. أي حاجة!
كان مازال قريباً منها يلتقط بذكاء أفكارها التي شوشها أكثر بسؤاله ..

- الحقيقة .. بحاجة إلى الحقيقة
ابتلعت ريقها مرتبكة دون أن تحول عيناها عن سجن عينيه

- أ .. أي حقيقة ..
- حقيقتك أنت .. لا أعرف عنك شيئاً سديم .. فجأة دخلت إلى حياتي .. تتكلمين تتصرفين بطريقة لم أرها مسبقاً .. جرأتك وجبنك اللذان يظهران في آن واحد بتصرفاتك .. تجلعني أستصعب الحكم عليك .. فتاة غامضة أصدمت بي في يوم مشمس لأصطدم مع من حولها وبضمنهم نفسي في يوم ممطر .. تكلمي سديم من أنت

حاولت الفرار من عينيه لكنها لم تستطع وقد بزرت فيهما حيرة لامست قلبها

- أنا .. لا .. أنا لا أعرف ماذا أقول .. أنت محق أنا فرضت نفسي عليك و
- دعك من مني .. أوقف تحججها به .. كلميني عنكِ

التوتر .. القلق كل إحساس غير مستقر كان هو من تملك كل عصب بجسدها

- ماذا أقول حقاً .. لا أعرف ما الذي تريد معرفته !

- كل شيء ..

أومأ برأسه مؤكداً عندما لمح الذهول الذي ارتسم على وجهها تعبيره ..

- نعم كل شيء

هزت رأسها دون أن تبعد عينيها عن عينيه لتقول بتلعثم دل على شديد ارتباكها لإصراره

- ما .. لا أعرف من أين أبدأ

واجهها بكامله وهو يقول بعزم

- لا تهتمي أساعدك أنا .. اسمك سديم

كالمسحورة جارته بلعبة الاستجواب التي يبدو بأنه لن يعفيها منها

- في السابعة عشر
- ونصف؛ أكمل مبتسماً .. هل لديك أخوة أخوات ؟ والديك هل هما على قيد الحياة ؟
- نعم لدي أختان وأخ صغير والدتي على قيد الحياة الحمد لله لكنها مريضة
- مريضة ؟
- نعم جداً .. لديها مشكلة بقلبها
- أممم .. ووالدك ؟

هل هو على قيد الحياة لا تعرف لكن هل يهم فعلاً

- ميت .. والدي ميت

هل تعد كاذبة ! .. هو فعلاً ميت .. منذ أن وعت عليه وهي تراه مجرد شبح يسكن زوايا المنزل .. والآن بعد مضي خمس سنوات على غيابه هل يفترض بها بأن تعترف بوجوده .. رغم إصرار والدتها على ذكره ومديحها لخصال زائفة افتعلتها لتزين صورته وتجملها لشقيقيها الصغيرين لكنه ميت .. تنفسه للهواء لم يجعله يوماً حياً بالنسبة لها .. سمعته هو يترحم على روح والدها الهائمة في بحار ملذاتها .. بدون أن تحري جواباً

- رحمه الله .. إذاً أنتِ ترتيبك بالعائلة .. الأولى
- الثانية .. هدير أختي أكبر مني
- هل تعمل؟
- نعم بالتأكيد.

قال وهو يقر واقعاً ظنها تعيشه

- لكن دخلها لا يكفي ولهذا تريدي أن تعملي كي تخففي عنها العبء ؟

أرخت ببصرها إلى الأرض .. حياتها معقدة وإظهار لمحة منها إليه ربما سينفره منها

- هل تعلمان ؟

رفعت نظرها عن العشب الأخضر متسائلة

- ماذا؟
- والدتك وشقيقتك .. هل تعلمان بسعيك بحثاً عن العمل؟
- نعم .. تعلمان.

أطلقت كذبتها المموهة بشيء من الحقيقة دون أن ترمش .. هما تعلمان لكنهما ليستا موافقتين .. ليس هناك من داعٍ لأن يعلم هو بهذا

- ودراستك .. ؟
- سأكمل دراستي .. سأدرس وأمتحن خارجي كي أحصل على الشهادة
- هل ستستطعين ؟ هذا صعب جداً .
- لا ليس صعباً ..
- أنتِ في مرحلتك الأخيرة من الثانوية أليس كذلك؟
- كلا .. أنا متأخرة سنتين
- ماذا .. إذاً أنتِ كسولة
- كلا .. أنا مجتهدة جداً درجاتي كاملة انظر .. حاولت إخراج شيئٍ ما من حقيبتها لم يهتم ناصر به فعلاً فأوقفها قائلاً
- لا يهم .. إذاً لمَ تأخرتِ في الدراسة ؟
- أنا .. أنا

ظلت تمتم دون أن تجد كلمات أي كلمات تسعفها

- هل كنتِ مريضة

عضت شفتيها .. أخذت نفساً عميقاً تحاول تهدئة نفسها وهي تحاول أن تجيبه بتركيز أوشكت على فقدانها كعادتها عندما تستذكر الأيام الماضية

- نوعاً ما ..
- هل هي العزلة التي تكلمتِ عنها .. لماذا الاستغراب هل تظنين بأن ذاكرتي تغفل أمراً كهذا ؟ عزلة !! بأي عمر كنتِ ؟؟ ستة عشر خمس عشر ..

أجابت وقد أحست بأن غرقها في التفاصيل القديمة أصبح مفروغاً منه

- أحد عشر

تراجع بجسده إلى حيث كان سابقاً متكئاً على جذع الشجرة مبتعداً بنظراته عنها لتحل على مياه دجله .. وهو يقول بصوت يعكس ذهولاً حائراً وأفكاره

تدور مع تلك الدوامات المائية الصغيره التي طفت على سطحه برفقة أسماكه النهريه غافلاً عن ما اعترى رفيقته من تغير لا يُعرف ..

- طفلة .. طفلة جداً !! ما نوع العزلة التي تعيشها طفلة! ماهي أسبابها ؟

أحست أن روحها قد سحبت إلى الماضي .. إلى تلك الغرفة الغارقة بظلام أفعالها .. ارتجفت شفتيها .. اهتز جسدها تريد الخلاص .. تريد أن تعود إلى حيث كانت .. أغمضت عينيها رافضة النظر إلى الطفلة العاجزة التي كانتها وهي تقاوم بجزع ..

- يا ابنتي .. قد استهلكتِ حصتك من الألم مبكرة .. سنواتك القادمة ستحمل لك الفرح .. هو عوض من الله عز وجل .. انتظريه

كلماته .. كلمات ذلك الشيخ الطيب عادت لتزيح ظلام ذكريات .. تهدئها .. .كمرهم بارد مسح على حرقة قلبها الملتهب .. تطبطب على جرحها الرافض

الاندمال المنكوء دوماً بالذكرى .. لتعود أخيراً إلى حاضرها حيث الكورنيش ذو العشب الأخضر الندي وناصر المتأمل المياه الجارية بصمت بهي

- تبدو متعباً

صوتها كخرير المياه أتاه ناعماً عذباً .. أخرجه من دوامة أفكاره التي تدور حولها وحوله !

- ماذا؟

الاهتمام .. كان هناك اهتمام تنطق به عيناها ..

- قليلاً .. متعب قليلاً، -ضحك ساخراً من نفسه- .. ونعس .. نعس جداً

ابتسمت بلطف قائلة وهي تشير إلى البساط الأخضر تحتهما

- لمَ لا تأخذ غفوة .. تكسر بها نعاسك

بادلها ابتسامتها .. مشاعر ناعمة دغدغت قلبه .. وهو يشعر بأن هناك من يلقي بالاً لتعبه، بأن هناك من يهتم !

- ألن تنزعجي .. إن نمت
- كلا .. بالطبع لن أنزعج
- حديثنا لم نكلمه
- نعود إليه عندما تستيقظ .. اتسعت ابتسامتها .. سأكون بانتظار أن تصحو من غفوتك

مدد جسده الطويل على العشب، كان بأمس الحاجة إلى الراحة .. الإرهاق يسكن عقله وجسده معاً ..

- ضع الحقيبة تحت رأسك .. سترتاح أكثر

فعل ما قالته بآلية .. أحس بالراحة عندما استقرت حقيبتها القماشية تحت رأسه .. أغمض عينيه ليفتحهما فجأة قائلاً لها بنبرة آمرة

- غيري مكان جلوسك .. تعالي هنا

أشار إليها إلى المكان الذي يريدها أن تحتله بينه وبين الشجرة الضخمة

- لكن لماذا ؟!

فرك جبينه الملتهب .. ماذا يقول لها بأن فكرة حمقاء طرأت بباله .. وأنه ربما سيتعرض لها أحد وهو نائم وبأنها بغبائها ستظل جامدة دون أن تحاول تنبيهه ..

فكر بكل هذا دون أن يفكر بأنهما قد يكونا الأحمقين الوحيدين اللذان اتخذا من الكورنيش موئل لهما في ساعات الصباح المبكرة من نهار شتوي زمهريري المزاج!!

***

هناك خطأ ما .. فكرت هدير .. عواميد الأرقام ترفض التطابق .. هي متأكدة بأنها قامت بمطابقتها سابقاً، الدائن يفوق المدين بمبالغ كبيرة

جداً لايعقل بأنها قد أغفلتها .. مسدت شعرها بحركة عكست توترها .. فكرها مشغول مشوش بألف فكرة وفكرة .. ترى هل أحست والدتها بها ؟ لا تظن ذلك .. هي تعرف روتين البيت الذي لم يتغير يوماً .. لكنها مع ذلك لا تستطيع التوقف عن القلق .. لقد تمادت كثيراً جداً .. مجازفتها بالخروج ليلاً والمبيت خارج البيت ! يا إلهي كيف فعلت هذا ! وضعت رأسها بين يديها المرتكز مرفقيهما على مكتبها .. علاء .. إلى أين ستصل بي ؟!

لا بد من أن يظهر ما كان مخفياً بينهما .. يجب أن تتوضح علاقتهما وترى النور أخيراً .. هذا التكتم إن استمر أكثر سيكتم معه حبها له .. استقامت بجلستها وضربت مكتبها بكف يدها بعنف ناهضة من مكانها .. سارت متوترة تذرع مترات الغرفة المربعة الأركان بخطوات مهتزة تشكل صورة ناطقة عما يعتمل بداخلها من توهان .. وصلت إلى حيث

النافذة التي لم تطل إلا على المزيد من الأبنية والمستودعات العائدة لمحل عملها أسندت جبهتها عليها تتابع العدم بنظرات شاردة وأصابعها ترسم خطوطاً ظنتها عشوائية المعالم على زجاجها المضبب .. لتشكل رسمة لبيت صغير ..

باحت خطوطها بغفلة عن وعيها بحلم أوشك أن يضمحل بداخلها ..

***

- أين ناصر؟

سأل الحاج عبد الرحمن عن ناصر ناهدة وهي تناوله فنجان القهوة

- لا أعرف يا حاج .. لم أره منذ استيقاظي ..
- أمم .. ربما ذهب إلى العمل مبكراً.

تأففت ناهدة وهي تقول مؤكدة كلامه

- مؤكد بأنه قد ذهب إلى العمل .. وهل لديه سوى العمل يشغل تفكيره !!

وضع الحاج فنجانه على مائدة الطعام أمامه .. وهو يرمق زوجته بنظرات متأملة ليقول ونبراته تحمل اللوم والتأنيب

- أليس أفضل من الثاني الذي لا يشغله شيء عن اللهو والعبث

زفرت بضيق وهي تقول وقد ملت المقارنة التي لا تجدي نفعاً بين ولديها

- أعلم يا حاج .. أعلم بأن ناصر أفضل من عمران .. هذا شيء مفروغ منه .. لكنهما ولدينا هما الاثنان .. يجدر بنا أن نجد حلاً لعمران بدلاً من إجراء مقارنه عقيمة النتائج

معها حق .. لكنه لا يقدر أن يتمالك أعصابه بمجرد ذكر عمران تهيج زوابع الغضب بداخله .. عليه أن يعترف أنه هو أيضاً ينتظر تدخل ناصر الذي أبطأ

على غير عادته .. ناصر فقط من يستطيع أن
يستخلص من أخاه الحقيقة .. هناك شعور قوي
لديه بأن عمران ارتكب خطأ أكبر من احتسائه
الخمر .. ولده حذر جداً، انهياره بتلك الليلة
تهجمه على والدته وراءه أسباب أخرى وربما أسرار
أيضاً، إن تكلم معه لن يتمكن من استخراجها بعكس
ناصر .. رغم تباين شخصياتهما لكنهما شباب ..
الشاب يستطيع أن يفهم الشاب مثله .. وهو بطيبعته
لا يجيد التفاهم .. حواجز صلبة بأسس متينة تقوت
بمرور السنين تحول بينه وبين عمران وبعض
الأوقات يشعرها ترسخت بينه وناصر .. لا
يتستطيع إلغائها .. بمعنى أصح هو عاجزاً عن
إلغائها

- لا بأس .. اصبري قليلاً وسنجد حلاً ما .. ولكن إياكِ .. إياكِ ناهدة من أن تسمحي له بالخروج
- يا حاج .. ليس

- ناهدة .. -بإصرار حاد قال لها- .. الجمي مشاعرك قليلاً وتحكمي بها لا نعرف أي مصيبة ستقع علينا من تحت رأس قرة العين

***

أبعدت نظراتها عن المياة لتعود لتنظر إلى ناصر
الغارق بالنوم .. أخبرها أن توقظه بعد نصف
ساعة .. لكنها لن تفعل .. تأملت ملامح وجهه ..
يبدو مجهداً جداً فلتدعه يرتاح قليلاً .. ابتسمت
بخفه وهي تلاحظ بأن التقطيب لم يفارقه حتى
بنومه .. لكنه يبدو وسيماً .. رغم أنفه الكبير
وتقاسيم وجهه القاسية .. هو وسيم .. عدلت من
سترته التي أصر عليها أن ترتديها فوق معطفها
الصوفي الأزرق كي تقيها البرد وقد استقرت حيث
أراد بينه وبين جذع الشجرة .. أما ربطة عنقه
فكانت مرمية بإهمال على المسطبة القريبة منهما
وقد حلل أزرار قمصيه العليا .. تساءلت حقاً إن كان
حقاً لا يشعر بالبرد القارس كما أخبرها وقد علل

فعله بالحرارة التي تسكن جسده .. بدت هيئته كمن يعيش جو تموز اللاهب وليس تشرين اللاذع البرودة .. أحست برغبة برسمه، ودت لو أنها أخرجت دفتر الرسم من حقيبتها قبل أن تقدمها وسادة له .. لكن لا بأس هي تجيد الرسم من ذاكرتها .. هيأته المتعبة دُوِّنَت في صفحات ذاكرتها كما سبق ودونت ابتسامته الساخره ..

كانت سارحة في أفكارها فلم تنتبه له وقد أفاق من نومه ليشهد تفحصها الساهي له .. موردة الوجنتين والشفتين .. خصلات شعرها السوداء المارقة تتحرك بخفة تداعب النسمات التي سبقتها المداعبة ..

أغمض عينيه بسرعة هارباً من تأثيرها عليه الذي صدمه بقوته .. استمر بادعاء النوم بينما يشعر بأنه لم يكن مستيقظاً في حياته كما هو الآن .. لقد أربكت هذه الصغيرة مشاعره وأظهرت له ما كان مخفياً عليه من أمره .. بدى كأنه استغرق عمراً بترتيب حياته وجاءت هي ببراءتها المستفزة لتعيد الترتيب بفوضى تستهوي أحداثها فيها .. وهذا لا يعجبه أبداً .. على الرغم من وجودها الذي نكه حياته لكنه لا يتستطيع أن يرتاح لهذا الوجود .. هي صغيرة طائشة بحاجة إلى مساعدته لا يريد أن يستغل تلك الحاجة، لا يريد أن يساومها بها هو الأنضج والأكبر سناً وهو من عليه أن يفكر بمنفعتها بدلاً عنها .. ومنفعتها تقتضي أن يبتعد عنها !
سيجد لها عملاً يناسبها و .. زاد تقطيبه مع انحدارِه في منزلق أفكاره التي أرغمته في خاتمتها على توثيق عهدٍ مع نفسه .. بأنه .. سيفعل سيبتعد وسيكون سفره أول خطوات الابتعاد ..

***

مددت علياء جسدها الصغير تحت طاولة الطعام بالمبطخ حيث قررت أن تستقر أخيراً لتلون كراس التلوين أمامها المليء بالشخصيات الكارتونية التي

تحبها بعد أن أثارت ضجة حملت سهيلة على نهرها كي تلتزم الهدوء

- سهيلة .. هل أعددت طبق (المقلوبة) الذي أوصيتك به ؟

وضعت سهيلة ما بيدها لتقول لسيدة المنزل وهي تشير إلى قدر موضوع على جانب الطاولة

- نعم سيدتي ..

اتجهت أم علاء إلى حيث أشارت كي ترى بعينها إن كان قد أعِدّ كما أمرت .. لتتوقف عن الحركة فجأة وهيَ تلمح قدم الصغيرة تحت الطاولة ليعتريها الغضب الشديد

- ماذا تفعل الصغيرة هنا؟
- إنــ .. إنها .. حاولت سهيلة أن تجيبها لكن صاحبة البيت لم تمهلها

- ألم أخبركِ سابقاً بأن الطفلة ليس من المسموح لها دخول المنزل
- سيدتي
- ألم أكن واضحه بكلامي ؟

كل عصب بجسدها استنفره القلق .. لا تستطيع مقاومة القلق .. صورة مرت بذهنها أسعرت بداخلها نيران الهواجس التي لم تفلح رغم مرور السنوات من إطفاء جذوتها

- ما الأمر؟

بادر علاء بالسؤال وقد وصل إلى مسامعه أطراف الحديث .. أخفض بصره إلى الأرض حيث تقبع علياء تحت الطاولة .. تابعت نظراته بوجل لتتبعها بعد لحظات يدها وهي تسحب بعنف غير مقصود علياء من مخبئها المفترض .. وهي تقول بحزم يوصد باب الاعتراض

- لا تدخلي ابنتك إلى البيت مجدداً .. إن لمحتها داخله ستطردين وإياها
- بأمرك سيدتي

رد سهيلة الخاضع .. لم يبرد نارها بل زادتها استعاراً .. لم تحب يوماً أن تكلم المعسوري الحال بهذه الفجاجة لكن لا بد مما ليس له بد

- هيا أخرجيها من هنا فوراً

جرت سهلية ابنتها التى أسقطت كراسها والألوان متجهة إلى باب المطبخ الجانبي المؤدي إلى الحديقة الواسعة جداً والذي يقع في أطرافها الغرفة الصغيرة التي تقطنها وابنتها كي تخرج منه ..

- انتظري

انحنى علاء ملتقطاً ما سقط من الصغيرة وتحرك متجهاً نحوها دون أن يلقي نظرة إلى أمه التي كادت تفقد تركيزها من شدة التركيز ..

- خذي صغيرتي

مد يده إليها بحاجياتها بينما الأخرى استقرت على شعرها الكستنائي تمسده بارتجاف

***

أطفأ محرك السيارة وقد وصل إلى الشارع المؤدي إلى الحي الألفين الذي تسكنه .. رمق المارين من خلف زجاج سيارته بشرود هو يفكر بالكلمات الحاسمة التي ينوي قولها لها

راقبته بهدوء مترقب .. منذ أن أفاق من غفوته وهو يعاملها بتابعد لم يحاول حتى أن يسخر منها أو يلقي عليها إحدى نظراته المتأملة .. لم تعرف ما الذي غيره وقد قال لها بجفاء بأن وقت العودة قد حان .. لم يواصلا الحديث الذي انقطع ولم تصل معه إلى شيء حتى العمل -سبب اللقاء- لم يتطرقا له .. تخرج إليه وفكرها موجه نحو هدف محدد لتتلاشى بصحبته الأهداف ..

- سأسافر يوم غد

استهل الحديث بخبر سفره الذي صدمها .. أكمل من دون أن ينظر ناحيتها ببرود

- سأتصل بك خلال أيام أخبرك عن مكان عملك ..
- لكن ..

ضعف صوتها أجبرها على معاودة التزام الصمت ..

التفت إليها أخيراً، أوجعه الارتباك والحيرة اللتان أذبلا حمرة خديها النضرين .. مصلحتك يا صغيرة لا أريد لك إلا الخير لو كنت أكبر لو كنت ناضجة أكثر لأقتنع بصحة خياراتك لكان الوضع اختلف .. براءتك حصنتك مني ..

تنحنح قليلاً ليقول بصوت غادره البرود وهو يركز النظر بالظلمة المنيرة بعينيها:

- سديم .. سأنفذ لك ما أردتِ، سأجد لكِ عملاً يناسبك لكني لا أستطيع أن أقاوم رغبتي بأن أعرض عليك راتباً شهرياً يكفيك ويسد حاجتك بدون أن تضطري للعمل .. اعتبريه .. اعتبريه
- ماذا ؟

بصوت عكس انكسارها واستنكارها بآن واحد

- أعتبره ماذا .. لن يكون سوى إحسان منك ..
- سديم!
- فلنسمي الأشياء بأسماءها .. لن يكون سوى إحساناً أمقت تقلبه ويؤلمني جداً عرضك إياه .. أريد عملاً وعدتني به .. هذا كل ما أريده منك

كذبت؛ تريد العمل .. وتريد وجوده المستحيل بحياتها !!

زفر بضيق هازاً رأسه وهو يقول:

- لن يكون كذلك .. لن يكون إحساناً .. لكن لكِ ما تريدين ..
- شكراً .. سأنتظر اتصالك

همست كلماتها وهي تقاوم عبرة اعترتها دون أن تفقه أسبابها وهي تستدير لتفتح الباب كي تخرج

- سديم

استدارت إليه وساقها اليمنى استقرت على أسفلت الشارع تنظر إليه باستفهام

- عديني يا صغيرة .. بأن تتحفظي أكثر في تعاملك مع الناس .. عديني بأنك لن تثقي بأحد مهما كان بنظرك أهلاً للثقة

عضت شفتيها بحسرة .. لن يعلم .. أنّى له أن يعلم بأنه هو فقط من استُثْنِيَ من تحفظها ومن اخترق عزلتها !!

- أعدك

أطلقت له وعداً لن يكلفها الالتزام به .. أغلقت باب السيارة خلفها، عدلت من وضع الحقيبة على كتفها وبدأت تخطو مبتعدة عنه .. تلاحقها نظراته وقلبه الذي انطوى لفكرة البعاد

أخرج رأسه من النافذة وهو ينادي عليها

- سديم .. إن أحتجت شيئاً .. أي شيء كلميني لا تترددي يا صغيرة

وصلها صوته المنادي لم تلتفت إليه أومات له بالموافقة وخطواتها تسارع بالرحيل.

الفصل الثالث عشر

شيء غريب؛ فكر ناصر وهو بطريق العودة إلى البيت، حارس العمارة أخبره بأن رجل شاب من كان يرافق المرأة الوقحة .. قضيا الليلة هناك لأول مره منذ تاريخ استئجارهما الشقة أي ما يناهز الخمسة أشهر .. لكن عقد الإيجار .. تباً .. عليه أن يكلم والده كي ينهي هذا الوضع المخزي .. كالعادة تعود سديم لتشتت جميع أفكاره .. لم يعرف إن توهم انطفاء بريق عينيها لدى سماعها بخبر سفره .. تنازعت مشاعره بين سعادته لاحتمال حقيقة هذا الخاطر ورغبته بأن تنسى الفتاة أمره .. كما يتمنى أن يستطيع هو نسيانها .. مد يده ليتلقط بأصابعه علبة السجائر .. تلك الأصابع التي قهر رغبتها بقوة تحكمه بنفسه التي شارفت على التلاشي .. بأن تندس بين خصلات

شعرها الفتانة كي تجذبها إليه يجرب ملمسها على وجهه ليضمها بعد ذلك مع صاحبتها عميقاً بين أضلعه حتى تصل إلى قلبه الخاوي وتستقر فيه ..

***

- إلى أين تريدين الذهاب؟
- إلى صديقتي رغد تعرفينها أمي .. سأذهب بصحبتها إلى شارع الرابع عشر من رمضان .. تعرفين أنها خطبت منذ فترة وقد طلبت مني مرافقتها لاختيار ما يلزمها لجهازها

تنهدت والدتها .. لاتحب أن تخرج ابنتها كثيراً لكن إشفاقها عليها يجعلها توافقها على ماتريد وذلك منذ أجبرها مازن على ترك المدرسة قبل سنتين بحجة خوفه عليها .. عليها أن تعترف بأن إحساسها بالذنب تجاه ابنتها لعدم وقوفها إلى جانبها والانصياع لرغبة مازن هو ما يحملها على تلبية رغباتها صحيح هي لم تكن متفوقة فيها

لكنها بحال أو بآخر كانت دوماً تجتاز السنة الدراسية بنجاح ..

- لا بأس .. اذهبي لكن لا تتأخري

انشقت شفتا بيداء عن ابتسامة باهتة كاذبة وهي تقول لوالدتها بصوت حاولت أن تداري حزنه

- شكراً لك أمي .. أعدك لن أتأخر

سارعت بالذهاب لغرفتها كي تغير ملابسها وتخرج قبل عودة مازن الذي سيصر على مصاحبتها إلى بيت صديقتها .. لم تنظر إلى المرآة طويلاً كعادتها ولم تقف محتارة ماذا ترتدي كي تبدو بأبهى صورة .. لمت شعرها الكستنائي وعقدته كيف ما كان دون أن تكترث حتى بتمشيطه .. لم يعد أي شيء اهتمت به سابقاً مهماً الآن .. فقط العثور عليه هو ما يهمها ..

عمران .. هل تظن حقاً بأني سأدعك تفلت بفعلتك هذه ! تجعل أخاك من يرد على الهاتف بدلاً عنك

أنت لا تعرفني حقاً إن ظننت أن بضع كلمات جارحة تمحيك من ذهني كيف أمحيك .. كيف وأنت قد علّمت على جسدي بما لا ينسى ولا يغتفر ..
ستشاركني ذنبي الذي هو ذنبك أيضاً رغماً عن أنفك ..

نسمات عليلة باردة لفت جسدها ما إن خرجت من البيت .. سارت بخطوات تائهة كروحها التي تبحث عن منفذ للنجاة .. سقطت نظراتها على اسفلت الشارع الذي شهد سابقاً دلال مشيتها .. دون أن تكترث بنظرات الإعجاب التي أطلقها المارين بالشارع القديم كعهدها والتي تطلق وعوداً عرفت بالتجربة أنها زائفة لنفوس طامعة .. كانت تستمع إلى كلمات الإعجاب دون أن تصغي لها بينما قلبها يهتف برجاء ذليل لذات منكوسة إلى من يحوط الأرجاء بعظمته دون أن تتجرء على رفع رأسها لتلقي نظرة إلى خيمته الزرقاء التي أشرفت على العباد .. أعرف بأني مخطئة .. لكن ساعدني

أرجوك ساعدني لا تجعلني أتحمل الخطيئة دون شريكي فيها

***

لم تعرف لمَ دموعها ترفض التوقف عن الانهمار .. تكورت بسريرها وقد اختبأت تحت غطائه عند سماع صوت أقدام هي متأكدة بأنها لوالدتها وهي تقترب من الغرفة، لا بد من أنها جاءت كي تطمئن عليها وتسأل عن سبب عدم تناولها طعام الغداء .. دقيقة أو أكثر أحست بوالدتها تنحي فوقها

- سديم

سمعت صوتها .. ليس لها رغبة بالرد عليها .. سمعتها تغادر بهدوء كما دخلت

هي أيام مجرد أيام قلائل عرفته فيها .. لمَ يؤلمها سفره إلى هذا الحد ؟! أحست بأنها أُلقيت في هاوية مظلمة عندما أدركت بأنه ينوي الابتعاد

بعدما شعرت بقربه .. بدنوها .. من بوابة لإحدى الجنان الوارفة الظلال .. ناصر .. ناصر .. كم تمنيت أن نبقى في الكورنيش رغم الزمهرير نراقب مياه دجلة الرقراقة وهي تصافح النظرات وتحتويتها تمتص القلق وتطمئن الهواجس .. كم تمنيت أن تلغى الحواجز ! لكن لا بأس للأمنيات عندي رف أسطرها فيه بانتظار أن يجيء دور أحدها للتحقيق .. مهما علتها الأغبرة لن أملّ انتظارها التحقق .. لن أملّ ..

أرخت الجفنين بأمر السلطان الذي نفذ بغرور من لا يكترث إلا بالاعتراف بسطوته .. وغرقت في السبات

***

لم تعرف له بيتاً .. جالت شوارع حي الأطباء حيث يسكن .. دون أن تستطيع أن تستدل على عنوانه .. تصورت بسذاجة بأنها ما إن تقول اسم عمران حتى

يدلها طفل أو مار بالحي على بيته .. كما في حيها .. لكنها أخطأت التشبيه بين الأحياء السكنية الشعبية التي يعرف فيها الناس بعضهم والأحياء الراقية التي تشهد بيوتها ذات الجدران العاليه بعزلة السكان عن بعضهم فقط بضع لوحات صغيرة تحمل اسم رب العائلة تنبئ عن وجود من يقطنها فلا مارين هناك ولا طفل يلهو بالشارع .. فقط مستطرقين من أمثالها

طوال ثلاث ساعات قضتها بالبحث عن بيته لم تسفر عن شيء سو ى عن مزيدٍ من الألم والحسرة .. لتعود إلى البيت يرافقها خذلانها !!!

***

دخل ناصر إلى البيت قريب المساء .. لم يعد هناك مجالاً لتأجيل مواجهته لعمران، عليه أن يعترف أنه بداخله ما زال منزعجاً من تلك الكلمات التي فحها عمران كالسم في وجهه .. صحيح هو لم يكن في وعيه في حينها لكن من المعروف بأن الخمر تحل عقال سيطرة المرء على نفسه فيتفوه بما يفكر به فعلاً .. هو ليس هذراً لكن يبدو بأن أخيه لا يرى فيه سوى ظل .. ظل .. ظل؛ ترددت الكلمة في أصداء نفسه، قد يكون ظلاً كما قال عمران لكن ليس لوالده بل للحياة نفسها، لقد رسم لنفسه خط مسير لا يجرؤ على الانحراف عنه ولو بالقليل .. القليل الذي ربما سيجعل منه رجل سعيد ..

دخل إلى البيت بهدوء كعادته وجد والدته جالسة على أحد الأرائك المنتشرة في الردهة والتي وقفت ما إن رأته يخطو إلى الداخل .. هل هي نظرات عتب ولوم ما أطلت من عينيها ؟! نعم إنها كذلك .. أمي اشفقي علي قليلاً .. تمتم رجاءه بداخله ربما أطل من عينيه أيضاً لكن والدته المشغولة أبداً بحبيس غرفته لم ترَ سوى ما تريده من ولدها الكبير وأغفلت كعادتها أي نداء صامت يصدر منه !

اقترب منها وقد حبس مشاعره داخله، قبل رأسها وقال

- لا بأس أمي .. لا تتعبي نفسك أعرف ما الذي تريديه مني
- ناصر .. بني جد حلاً لقد تعبت .. تعبت فعلاً

كلماتها الباكية أثرت عميقاً به، هي والدته يؤلمه معاناتها حتى إن لم تشعر به يوماً

- لا تهتمي أمي أعطِني مفتاح غرفته .. لديك نسخة أليس كذلك ؟
- نعم .. نعم

ردت بلهفة وهي تسرع كي تجلب له المفاتيح من غرفتها

فرك جبينه بقوة .. صداع يفتك به .. هناك الكثير ليقوم به ولا وقت لديه كي يمرض، قشطات من البرد مشطت جسده وعظامه رغم الدفىء الذي يسكن أرجاء البيت .. كم يود التمدد بسريره لينام ولو لنصف ساعة فقط .. لكن هيهات منه الراحة .. استقام في وقفته بعد أن سمع خطوات والدته تقترب منه لحظات ووصلت لعنده

- خذ بني هذه المفاتيح .. لكن ماذا بشأن والدك
- لا عليكِ سأكلمه أنا .. هل هو بالبيت ؟
- كلا .. لم يعد منذ الصباح، اتصل ظهراً قائلاً بأنه سيتأخر هناك مشكلة ما بمعمل الأثاث
- أي مشكلة ؟
- ناصر هل أنت جاد !

بدا الانزعاج جلياً على ملامح والدته وهي تقول مؤنبة

- قلت بأنك ستذهب للتحدث مع عمران وأراك تحول الحديث إلى العمل كعادتك .. ربما تريد أن تذهب إلى والدك لتعرف ما الذي حل هناك وتؤجل موضوع أخيك وهو الأدعى

أن تهتم به .. كف عن أنانيتك هذه ناصر
والتفت إلى ماتريده والدتك منك
لم تحزر ناهدة نظرات ولدها وما تعنيه عندما رمت بوجهه كلماتها المجحفة بحقه .. وهو لم يتوقع أن تفهم .. توجه إلى السلم يصعد درجاته تتبعه نظرات والدته المتأمله خيراً ..

***

صوت الباب وهو يُفتح استرعى انتباه عمران لقد مرت عليه والدته في الصباح وأخبرته من خلف الباب بأن ناصر سيأتي للتحدث معه كما يريد هو .. نهض عمران من على سريره عندما رأى أخاه واقفاً عن الباب يرمقه بنظرات متفحصة لم يجرؤ على أن ينبس بحرف حتى بادر ناصر بالكلام

- مرحباً عمران
- مرحباً ناصر

دخل ناصر إلى الغرفة، جرّ كرسياً وُضع خلف المكتب الصغير المعد لدراسة عمران المفترضة والذي لم يره ناصر يوماً يستخدمه .. سحب علبة السجائر من جيبه ليخرج واحدة منها بحث بجيبه عن ولاعته ليتوقف

- ولاعة عمران

كان عمران ما زال واقفاً ينظر إلى ناصر بتوجس وقد فاجئه طلبه فرد متلكئاً

- أنا .. ولاعة
- هيا عمران .. لقد احتسيت الخمر لا تحاول إقناعي بأنك لا تدخن !

تحولت نظرات عمران المتوجسة إلى أخرى متحدية

- وماذا إن فعلت .. أنت تدخن، أليس كذلك ؟ لماذا مسموح لك وليس مسموحاً لي

قهقهات صدرت من ناصر فاجأت عمران واستفزته، شد على قبضتيه بقوة لاحظها ناصر فتوقف عن الضحك لترتسم ابتسامة ساخره على شفتيه

- دعنا لا نتكلم عن المسموحات والممنوعات وقد اخترقتها كلها بطيشك .. وحُلّ قبضة يديك حتى لا تؤلم نفسك، نعرف من سيكون الخاسر إن تهورت .. وببرود أكمل .. أين الولاعة ؟

تحرك عمران يكتم غيظه إلى زاوية السرير ليخرج من تحت فراشه ولاعة فضية صغيرة ويتجه بها نحو ناصر الذي كان يراقبه بسخرية ويعطيها إياه

- شكراً !

نفث دخان سيجارته بالهواء .. وتأمل غيومها الرمادية وهي تنسج أشكالاً غير محددة المعالم بذهن شارد عنها مركزاً على الشاب الواقف أمامه بصلف يدعيه، هناك ضعفاً بعمران لم يلحظه سابقاً .. هو يعرف أخاه جيداً، توتره يدل على أن هناك ما خفي .. توتر للفكرة .. رفع بصره إلى أخيه متأملاً وقال أخيراً

- ما الذي حدث عمران .. ؟
- حدث الكثير !

قال عمران كلمته وتهاوى جالساً على سريره يضع رأسه بين كفيه .. ثلاثة أيام مرت عانى بها كما لم يعاني طوال حياته .. ساعة واحدة .. لم تكن سوى ساعة تمادى بها باتباع شهواته نغصت عليه أيامه وربما باقي عمره أيضاً .. القلق من عواقب فعلته دمر أعصابه

اختلاجة قلق مرت على وجه ناصر .. حدث الكثير! .. أخذ نفساً عميقاً من دخان سيجارته ..

- تكلم عمران .. قل ما عندك
- ناصر .. أنا في ورطة

نفث دخانه بالهواء، ازدادت الأشكال الدخانية تعقيداً .. كأنها تعطيه إشارات تلميحية بأن يهيئ نفسه لما سيسمع ..

- أي ورطة ؟ تكلم عمران

حثه ناصر وهو يرى من أخيه تخاذلاً لم يعهده فيه .. عمران من النوع المتمادي بغَيِّه لم ينكسر يوماً أو يشعر بذنب لخطئٍ ارتكبه

- بيداء .. البنــ

قاطعه بسرعة

- أعرفها .. ما بها

رفع بصره إلى ناصر ثم عاد فألقاه أرضاً حيث كان ليكمل بكلمات مبعثرة متهالكة

- لقد .. لقد .. أخطأت معها

هل قبضة من حديد كونتها كلمات عمران من ضربت هامة ناصر لهولها أم ماذا ؟؟؟ .. رمى سيجارته في

إحدى زوايا الغرفة التي لحسن الحظ خالية من السجاد بدون وعي منه

- هل .. هل تعني ؟؟؟؟

صمت عمران كان أبلغ جواب على سؤال ناصر المبتور .. نهض كصاعقة من كرسيه الذي سقط من خلفه ليتجه إلى أخيه ويمسك رقبته بقوة وينهضه منها .. التقت العيون .. واحدة تقدح غضباً مستعراً .. وأخرى ذليلة دامعة .. وسؤال يلوح بالأجواء

- هل كانت عذراء ؟

الندم الذي برز بعيني عمران المشفوع بدمعه وذرفت على خده كانت إجابةً لسؤاله .. ارتجفت يد ناصر على رقبة أخيه .. أوشكت أن ترتخي لتشتد أكثر دافعة إياه أرضاً .. وهو يصرخ به قائلاً

- أيها القذر .. ما الذي فعلته

سقط عمران على الأرض الذي تلقته بقساوة كأنها تشاطر ناصر غضبه وتؤيد عنفه

- لا أعرف .. لقــ .. لقد كانت بين ذراعي ولم أستطع التوقف

كلماته لم تفلح سوى في احتدام غضب ناصر وتأججه، انحنى أرضاً وهو يهيئ نفسه لتفريغ غضبه بوجه عمران وتوجيه لكمات تجعله يشعر بفداحة فعلته

- اضربني .. افعل ما شئت

تفوه عمران بكلماته تلك وهو يعي بأنها قد أقرت بذنبه وعكست مدى اشمئزازه من نفسه

- سأفعل ..

هدر بقوة .. رفع يده يريد أن يهوي بقبضتها على وجهه .. ليتوقف فجأة وقد أدرك بأن ما يفعله ليس سوى تنفيس عن غضبه .. ابتعد ليجلس أرضاً بجوار أخيه المرمي عليها .. صمت طال بين الأخوين لم يجرؤ عمران على قطعه كما لم يجرؤ على رفع بصره بوجه أخيه ..

كم مر من الوقت لا أحد منهما يعرف حتى قال ناصر أخيراً ببرود

- عليك أن تتزوجها

أعدل عمران ليستوي جالساً وهو يردد ببله كلمات ناصر

- أتزوجها !!

رمقه ناصر بقرف

- وهل لديك حل آخر .. تنعم به علي
- ناصر .. لكن كيف ؟؟ والدي !!
- والدك !! تنهد بضيق رافعاً يده يفرك وجهه .. لا أعرف ماذا سأقول له .. للأسف لا يوجد أمامي سوى إطلاعه على حقيقة ما جرى .. قطب ناصر حاجبيه بشدة؛ لا يستطيع إلا توجيه ذلك السؤال الذي حفر عميقاً بداخله .. عمران ؟ هل .. هل أجبرتها في مرحلة ما على ما تريد ؟

أخفض عمران رأسه ماذا يستطيع أن يقول له .. هو ليس اغتصاباً .. صدرت منها ممانعة لكنه لم يعتبرها .. حاولت ردعه بضعف عن كشف جسدها فمزق ملابسها دون أن يستطيع أن يقاوم رغباته وقد عملت برأسه كعمل الخمر بالعقول .. نادته بوهن .. كفى ! لكنه لم يكتفي .. كيف يكون وقد لاح له ما اشتهى الحصول عليه !

- كم أتمنى لو الزمان يعود الـ
- كف عن الهراء .. قاطعه ناصر مجدداً قائلاً ونبرات صوته تقطر ازدراءً .. الزمن لم يعُد لمن هو أفضل منك .. هل سيعود من أجلك أنت ! .. لم تجبني هل مانعت ؟
- كلا ..
- أبداً !
- نعم لم تمانع

نهض ناصر من على الارض وقد أحس بالاختناق ..

- إذاً أنت تستحق واحدة مثلها تحمل اسمك .. ولو بصفة مؤقتة

عمران نهض بدوره ليواجه أخيه بضعف

- مـ .. ماذا تعني .. لم أفهم !
- أنت تستحق ماجنة مثلها .. لكن نحن من لا نستحق وجود أمثالها بعائلتنا ولهذا سيكون زواجك منها لستر الفضيحة .. أشهر فقط وينتهي.
- ناصر .. والدي سوف .. يغضب إن علم بما فعلته ..

التفت إليه ناصر بعد أن كان متوجهاً إلى خارج الغرفة .. أدرك بأن أخاه يبحث عن أي كلمة تطمئنه وتزيل بعضاً من قلقه لكنه لا يستطيع .. كارثة ! ما فعله عمران كارثة حلت على رأس العائلة .. هز رأساً متحسراً على الحال الذي آل إليه أخاه وخرج من الغرفة دون أن يوصدها ..

لاجدوى من حبسه في غرفته وقد وقعت المصيبة وانتهى الأمر .

***

- بيداء هل أنتِ مريضة ؟

منذ أيام ومازن يلاحظ ذبول شقيقته .. وابتعادها عن الجميع في المنزل حتى مظهرها الذي تعشق العناية به بدا مهملاً

كانت بيداء تعد طعام العشاء بالمطبخ عندما دلف مازن إليه .. وبارتباك ردت

- كلا .. كلا لمَ تقول هذا !

أخفضت بصرها إلى ما بيدها تتظاهر بأنها منشغلة بتقطيع الخضار .. لا تتجرء على النظر إلى وجه أخيها؛ كيف تفعل ! وقد وصلت بها الهواجس بأن مازن سرعان ما يكتشف أمرها ما إن تتقابل نظراتهما ..

- لا أعرف لا تبدين على ما يرام .. حتى أنكِ لم تقومي بإحدى حركاتك كي تغيظيني .. هدوءك هذا يخيفني

سقطت السكين أرضاً من يدها

- أخيفك؟!

راقبته بارتعاب وهو ينحني لالتقاط السكين من على الأرض وقد لمع نصلها حتى أعمى بريقه بصيرتها .. ونشف الدماء بعروقها .. وأعلمها كيف ستكون نهايتها ..

- نعم تثيرين خوفي .. عليكِ .. اعتني بنفسك شقيقتي .. قرص وجنتها ممازحاً .. كم بيداء مغرورة لدينا ..

بادلته ابتسامته الغافلة بأخرى مرتجفة .. ابتعد مازن ليخرج من المطبخ بعد أن ناولها السيكن التي ما زالت تتوعدها القصاص .. إن لم يكن اليوم فغداً !!

***

- ماذا تريد مني ! الذهاب إلى بيت تلك العاهرة كي أخطبها ؟ .. أنا الحاج عبد الرحمن تسكن زانية بيتي !

وقف ناصر مع نهوض والده العاصف من كرسيه خلف المكتب حيث كانوا يجلسون ومعهم ناهدة التي ألزمتها الصدمة الصمت فلم تتفوه بكلمة فقط كانت تراقب ويدها على قلبها الذي كان يخفق بقوة

- أبي عمران يشاركها ذنبها .. هو أيضاً

تحرك الحاج من خلف مكتبه وهو يتوعد

- ومن قال لك بأن ذلك الفاسق سيبقى بالبيت .. مكانه الشارع ..

التفت إلى زوجته صارخاً بها

- اذهبي إلى ولدك العزيز وساعديه بلملمة اغراضه لا بقاء له بالبيت .. هذا .. أكمل بقرف .. هذا الملوث

ارتخت ساقي ناهدة اللتان رفضتا تحمل عبء حملها فسقطت على الـريكة وهي تعيش حاله من الذهول أطبقت عليها .. لم تظن يوماً بأن عمران سيصل به الغرور إلى حد انتهاك الحرمات .. لم تعرف بأن إفراطها في تدليله سيوصله إلى أرذل حال وبأنها بنفسها قد أباحت له انحرافه بعد أن تكتمت على طيشه واستهتاره .. تاهت في دوامة من الرفض واللوم وتأنيب الذات .. التي أغلقت سمعها عما يدور من حولها

- أبي أرجوك اهدأ .. ليس هكذا تحل الأمور
- حل !! أي حل هذا ؟! تحصل تلك على ما تريد وتتزوج من عمران كأي شابة نظيفة
- أبي .. أشهر فقط .. ونطلقها منه .. فقط حتى نحجم المشكلة .. دعنا منها ماذا لو علم

ذويها من من سيقتصون ؟ أي فضيحة ستكون !!!

وضع الأب يده على رأسه بعجز .. أي فشل يا عبد الرحمن حُزت عليه بعد سنين من الكد والتعب .. جمعت الأموال وأدرت الأعمال بنجاح لايفوقه نجاح ولا يرادفه إلا .. الإخفاق! .. أخفقت في بيتك .. فقضيت على زهوك بنجاحك خارجه

شعر بيد تحط على كتفه تسبقها كلمات مواسية

- هون عليك أبي .. أزمة وتمر

خرجت الكلمات من بين شفتيه بمشقة وهو ينظر إلى ولده بانكسار لم يشعره طوال حياته

- أشعر كأن خنجراً غُرِزَ بظهري

***

سارت باتزان معروف عنها بين أروقة المستشفى الصامتة .. لقد حضرت اليوم أول عملية جراحية للقلب .. لقد ساهمت بها بطريقة أذهلت أساتذتها، ابتسمت بفخر فزادت ابتسامتها وجهها الرقيق عذوبة .. لا تطيق صبراً كي تعود إلى البيت لتبشر والدها .. لكن عليها أن تصبر نفسها حتى يوم الغد .. حتى انتهاء خفارتها تستطيع أن تحادثه بالهاتف ولكنها لا تريد أن تفوت على نفسها رؤية الزهو في عينيه .. صوت أخرجها من أفكارها

- دكتورة وئام .. دكتورة

التفتت لتجد زميلها الدكتور قاسم من يناديها .. زالت الابتسامة الناعمة من شفتيها لتعوضها بأخرى رسمية جداً ما إن وصل قاسم إليها

- نعم دكتور ؟

لم يغِب عن قاسم الرسمية التي تحاول وئام التستر خلفها والتي تخصه بها دون غيره من الأطباء ..

ارتسمت على وجهه ابتسامة مرحة وهو يقول لها

- سمعت بالأخبار .. جئت أهنئك على إنجازك في غرفة العمليات .. أحسنتِ دكتورة

لم تفلح كلماته في إزالة قناع البرود الذي ترتديه

- شكراً لك دكتور .. هل تسمح

ازدادت ابتسامته مرحاً غير مبالٍ بمحاولاتها بالابتعاد عنه واختصار الكلام

- دقيقة دكتورة لم أنهِ حديثي بعد
- أحقاً ؟! آسفة تفضل ..

اقترب منها قليلاً وهو يقول بصوت أراده مقنعاً وهو يمعن النظر فيها .. كان لون شعرها وعينيها

الفاتحين مع السمار الخفيف لبشرتها يجذبه دائماً للنظر إليها دون أن يغفل بالتأكيد على التطلع بشغف إلى باقي ملامحها من شفتين مكتنزتين تحب طلائهما بالوردي الفاتح وجسد رشيق أنثوي التقاسيم

- بما أننا طبيبا خفر لليلة، لمَ لا نتناول العشاء معاً في كافتيريا المستشفى
- آسفة دكتور لا أستطيع أن أضع أي شيء في فمي بعد خروجي من صالة العمليات ليس قبل ساعتين على الأقل
- أنتظرك

يا إلهي تمتمت بصمت .. كانت الطريقة التي ينظر بها إليها تزعجها جداً وتوترها

- لاداعي لذلك دكتور .. إضافة لهذا أمي أرسلت لي طعام العشاء سأتناوله بعد حين

هتف متظاهراً بالتعجب هازّاً رأسه بأسف

- ماذا !! .. لديك طعام معد بالمنزل وتريدين تناولة بمفردك .. وتتركيني أتناول طعام المستشفى الماسخ

ارتبكت وثام وقد أدركت بأنه قد حصرها في زاوية

- لا بأس .. أنتظرك في غرفة الفحص بعد ساعتين .. صمتت للحظة لتقول بسرعة بعد أن جاءها الإلهام بطريقة تخلصها منه .. لست مجبراً على الانتظار سأرسل لك الطعام مع المنظفة

تحرك مبتعداً عنها وهو يقول بلهجة من حقق إنجازاً ما

- لا داعي دكتورة لا أبالي بالانتظار .. موعدنا بعد ساعتين

الفصل الرابع عشر

في تلك الليلة وبعدما أرهق الجميع من وطأة مشاعرهم المتباينة بين غضب وحزن، انكسار وخذلان، ندم وتوتر .. وبعد حديث منعزل أجراه ناصر مع أم خلدون اتخذ قراره بأن يسافر حالاً دون تأجيل .. فجعل من ظلام تلك الليلة رفيقاً لسفره إلى البصرة وسط اعتراض الأب الذي أنهك كاهله والأم التي احتفظت بصمتها وهي تراقب ولدها المفضل يجري مكالمة يطمئن فيها شريكة إثمه بأنهم سيأتون قريباً لخطبتها ..

وضع حقيبته بصندوق السيارة .. توجه إلى مقعد السائق فتح الباب كي يستقر خلف مقود السيارة ألقى ببصره على منزله المضاء بمصابيح عدة توهم الناظرين بأن ساكنيه لا تمر عليهم لحظة دون أن تصطحب معها إشراقة الدنيا إن أقبلت على أحدهم .. لكنها للأسف الآن مدبرة !! وقد أسفرت عن وجهها القبيح وهي تتوعدهم بأن تقلب أفراحهم ترحاً وبأن تستخلص حقها ممن استهان بها وبجبروتها وتضحك على من آمن غدرها وظن بأنه امتلكها منهم !! أو .. ربما هي لا تملك تلك الوجوه التي نتهمها بها !! وبأنها تسفر فقط عما أسفرت به دواخلنا وبأنّا نحن بني البشر من نملك وجوهاً عدة وهي فقط تتبعنا كحية رقطاء متموجة تتفنن في التلاعب بنا ونحن نغير من جلدة نفوسنا .. وتكون الدنيا بذلك مجرد شماعة أخرى نعلق عليها -بجهل بشري توطن داخلنا- فشلنا بإدراة حياتنا مع بروز ميول وأهواء جديدة نحث الخطا باتباعها دون وجل من إثم يثقل كاهلنا أو ألم نتسبب به لأحبائنا غير راغبين بالتحكم بها رغم قدرتنا على ذلك بل نجعلها هي من تتحكم بنا ! .. الشر من النفس والخير من الله .. تمتم ناصر لنفسه بتلك الكلمات

بصوت خافت مستكين .. ممعناً بالتفكير .. خطوة خاطئة تقود إلى أخرى تفوق سابقتها لتجد نفسك وقد توغلت عميقاً بدرب وعر غير سالك إلا لمن أباح للشيطان روحه كي يرتع فيها .. يرتشف .. كل قطرة خير كان قد فطر عليه .. وينهيه .. كم أتمنى بأن تعود عن ذلك الدرب عمران. تنهد بضيق مدركاً بأنه قد أخطأ التوقيت وبأن ما كان لن يكون شيئاً أمام ما سيكون ولكنه يحتاج حقاً للابتعاد ! طفح الكيل .. وقد أثقلت الوحدة أنفاسه ..

تحركت السيارة بقيادة ناصر .. ليبدأ مشواره الطويل إلى البصرة -المحافظة التي تقع في أقصى جنوب العراق- حيث تكون الشناشيل وجيكور والبدر العليل الصامد في الهجير .. و حيث يقع شط العرب ملتقى النبضين دجلة والفرات والتي لا تفصلها عن العاصمة بغداد سوى 545 كيلومتراً فقط ! مشوار هين ! لرجل متعب جداً !!!

***

شحب وجهها وهي تتصنت على مكالمة مازن

- عمران ! أين أنت يا رجل لم أرَك منذ مدة .. ماذا ؟ .. حسناً .. حسناً كما تشاء .

أنهى المكالمة ليذهب إلى غرفته .. ليدرس !! كما تغيرت بيداء تغير مازن أيضاً منذ تلك الليلة المشؤومة التي صعد بها إلى غرفتها معتذراً وقد تغير ! لم يعد يخرج كثيراً .. يدرس أكثر حتى أنه أراح والدته من عملها وبدأ هو يعمل بجد والتزام بالمحل الصغير المحتوى على بضائع منوعة و الذي يقع في نهاية شارعهم والذي كان هو والراتب التقاعدي ما أورثهم إياه والدهم رحمه الله .. بدا كأنه يعوض بكل ما يستطيعه عن تلك السنوات الأخيرة منذ دخوله الجامعة وتعرفه إلى عمران والتي تغير فيها وابتعد عن عائلته وانغمس عميقاً في اللهو واتباع النزوات حتى معاملته لها

تغيرت كان يمازحها أكثر وينظر إليها بحنو كاد يفقدها صوابها كأن كل كل شيء تكالب ضدها كي يزيد من خزيها واحتقارها لنفسها ويذكرها إن كانت تستطيع أن تسهو لثانية بخطيئتها

بقيت جالسه .. تنتظر .. هل سيرن الهاتف مرة أخرى كما كان سابقاً حين كان يتصل عمران بها ويجيب مازن .. يصمت الهاتف لربع ساعة ويعاود الاتصال لأنها هي المطلوبة وليس شقيقها

***

قلب بأوراق محاضراته .. بتركيز شديد أجبر عقله على انتهاجه مؤخراً .. الندم .. كلا ليس الندم فقط بل لحظات الرعب التي عاشها وهو يظن ما قد سلف بأخته الوحيدة وصديقه المقرب .. والذي كان ضمن قراراته الأخيرة أن يراجع مع نفسه موضوع هذه الصداقة .. منذ أن عرف عمران وتقرب منه حتى تعلق بعالمه المبهر .. عالم الأثرياء

المتمكنين والمخولين لفعل أي شيء يرغبون به .. وما زاد انجذابه هو طبيعة عمران المتباسطة معه لم يشعره يوماً بأنه أقل منه وبأنه يتفضل عليه بصحبته .. لكن في تلك الليلة ولحظاتها التي أشعلت النار بعروقة حتى سرت بها عوضاً عن دمائه التي جففها الخاطر المدمر أدرك بأنه مع كثرة انغماسه في اتّباع شهواته جعل من الشيطان رفيقاً مقرباً منه والذي لم يتوانَ عن بث سموم وسوساته بصدره وعقله الذي فقد منطقه، كيف يصل به الحد أن يتهم بيداء بمثل هذا الفعل المنكر القذر .. كيف! ترك أوراقه جانباً لينهض من مكانه .. هي لحظة تجلي تنبه عن طريقها للطّامة التي قد تحل على العائلة الصغيرة أعادته إلى الدرب القويم الذي لن يفرط به أبداً مجدداً .. سيصلي ركعتين شكراً لله لأنه أراد له أن يهتدي فأخرجه من دوامة المعاصي التي رمى نفسه بها بغفلة لسنوات كان من الممكن أن تمتد أكثر لولا رحمة الله سبحانه عز وجل

***

- بيداء؟

هو، يا إلهي إنه هو ! هذا صوته

- بـ .. بيداء هذه أنتِ، أليس كذلك ؟ أجيبي

ارتجفت السماعة بيدها، زاغ بصرها عن حاضرها وراح مهرولاً ليعكس رؤيتها إلى الغرفة التي شهدت خطيئتها .. وتوسلاتها بأن يتركنها وشأنها ماجت بداخلها لتفور غضباً

- أيها النذل الحقير .. في أي جحر كنت مختبئاً أيها الجرذ الوسخ
- كفى .. صرخ بها بصوت مكتوم ناهراً إياها .. لم أكن مختبئاً أيتها الغبية
- نعم .. أنا غبية، غبية جداً لأني جعلت من نفسي أضحية لرغباتك القذرة

زم شفتيه بعنف كم كان بوده لو أنها أمامه الآن كي يعلمها كيف تكون الأضاحي تلك المجنونة ..

- اصمتي قليلاً واسمعيني ..
- ماذا .. ماذا تريد أن تقول أيـ .. أيــ .. شهقت بالبكاء وهي لا تجد كلمة تنعته بها وتشفي غليلها منه ذلك الحقير الذي أحبته فتلاعب بها

تنفس بضيق وقد وصلته شهقاتها الباكية .. أغمض عينيه بألم .. حاول مره أخرى

- بيداء .. اهدئي قليلاً واسمعيني جيداً .. أيام، مجرد أيام قليلة فقط وسآتي برفقة أهلي كي أخطبك ..
- تكذب .. أنت تكذب
- كلا صدقيني لست كاذباً .. لقد .. لقد حدثت عائلتي بما حــ

في غمرة اندماجه بترتيب كلمات تهدئ من روع محدثته، لم يشعر بوالدته وهي تنهض بعزم غاضب من مكانها وقد أخرجتها كلمات ولدها المتعثرة مع

تلك الفاجرة من صمتها لتتوجه نحوه وتسحب السماعة من يده

- اسمعي أنتِ .. سنأتي بعد أيام لخطبتك من أهلك لتصليح ما قد كسر ودرء الفضحية عن ذويك الغافلين عن بشاعة صنيعك وليس عنكِ فأنتِ لا تسوي شيئاً بنظرنا
- مـ .. من أنتِ كي تكلميني بهذه الطريقة .. ردت عليها بيداء بغضب هادر .. لا تكذبوا على أنفسكم، لن تظهروا ضحايا لو زحفتم على ركبكم .. إن فعلتم حقاً ما تقولين .. فهذا لأجل انفكسم وسمعتكم وليس من أجل عائلتي .. تخافون الفضحية وقصاص أخي ..

ظهر غضب نادر بعيني ناهدة وهي تلعن الزمن الذي جعلها تكلم مثل هذه الفتاة القبيحة الفعل والقول لتجيبها بسخرية مريرة

- أخاكِ !! أنا لا أعرف شيئاً عن أخاكِ أو عن عائلتك .. ولكنك على ما يظهر تعرفين من نحن وأي مركز نحتل بالبلد أنتِ وعائلتك بكلمة واحدة منا ويمحى أثرها من الوجود لولا مخافة الله التي تلزمنا حدودنا ..

قاطعتها بيداء وقد تمخض انتظارها المدمر عن رد فعل عنيف ألجم عقلها عن فهم ما تحاول المرأة قوله لها

- أعرفكم جيداً كما قلتِ .. ولكن يبدو بأن السافل ولدك لم يبلغك من أكون .. أنا شقيقة صديقة المقرب .. الذي طعنه في ظهره في بيته واستغل خوفي من أخي وانتهك حرمتي رغم توسلاتي له بأن لا يفعل .. لكن استمر .. استمر وقد عُمِيَت عينيه وصُمّت أذنيه فلم يعد يصغي إلا لصوت نزواته ..
- كاذبة .. أنت شريكته بإرادتك .. لا تحاولي أبداً إلقاء اللوم عليه وتبرئة نفسك، إن كان

هو غدر بصديقه كما تزعمين فأنتِ غدرتِ بأخاك الذي به تهددين !! أيكم أقَبح فعلاً الآن تكلمي .. أجيبني

- أنا .. أنا لـ
- أنتِ لستِ سوى ساقطة .. سيجبرنا الدهر علىَ أن تَكوني جزءاً منا

أغلقت السماعة بعنف بوجه قليلة التربية التي كانت تحدثها حاولت التحرك مبتعدة وقد مُلئت نفوراً ..

- أمي .. أنا

صفعه قوية حطت على وجه عمران ألزمته الصمت وأطلت الذهول من عينيه

- لا أطيق سماع صوتك .. أيها الفاسق

***

لم تعرف بيداء إن كان الارتجاف الذي هز بدنها كان من تأثير كلمات من أدركت أنها أم عمران أو

من جراء اقتراب نجاتها من مصيبتها .. هل يعقل ! هل يعقل بأن الله .. الله .. سارعت بخطوات لاهثة إلى أول نافذة بالبيت .. فتحتها بقوة ورفعت عينيها إلى السماء المرصعة بملايين ملايين النجوم التي يشهد بريقها بنور خالقها .. هل يعقل يارب بأنك .. بأنك قد تلتفت إلى .. إلى من هي مثلي ! ..

***

راقبت رقية بقلق احمرار وجنتي وسديم الغير اعتيادي، هل هي محمومة ؟ وهي تنحني نحو ترف التي توجهت إليها هامسة بأذنها

- سديم ..

بصوت خافت أكملت همستها بأذن شقيقتها فردت عليها سديم بضعف شديد

- نعم صغيرتي .. أمم .. لا تقلقي أمهليني فقط أياماً قليلة حسناً
- حسنا

قبلت الصغيرة وجنة سديم بفرح .. لتقطب حاجبيها باستغراب طفولي

- وجنتيك ساخنتين جداً .. أنتِ مريضة ؟

ابتسمت سديم بضعف وهي تقول لشقيقتها

- كلا حبيبتي فقط متعبة ونعسة جداً .. سأذهب كي أنام

نهضت من مكانها ملقية تحيتها على الجميع وقد مشطتهم دون تركيز ببصرها الزائغ بفعل الحرارة التي ألهبت جسدها النحيف

- تصبحون على خير

***

تململت بضجر في مكانها وهي تحاول أن تلهي نفسها بالطعام الذي تتناوله والموضوع أمامهما عن نظراته المتفحصة المزعجة جداً .. لكنه لن يكون قاسم إن لم يتعمد إزعاجها ..

- ألن تكف ؟

نظر إليها مبتسماً متصنعاً الدهشة

- عن الطعام !

وضعت الملعقة من يدها وأسندت خدها على كفها ونظرت إلى عينيه السوادوين مباشرةً وقد برز التحدي سافراً في لمعان عينيها وهي مصممة على وضع حدٍ لسخرية قاسم منها

- عن النظر إليّ بهذه الطريقة

اتسعت ابتسامته ومرح عابث يلون نظراته

- أي طريقة ؟
- أنت تعرف!

- كلا .. رد مصراً وفمه يتموج بضحكة تهدد بالانطلاق بأي لحظة .. لا أعرف ماذا تقصدين .. وضحي

رفعت أحد حاجبيها بسخرية واضحة مستنكرة محاولاته لإحراجها

- أوضح ؟
- نعم .. ماذا ترين في نظراتي ؟؟

تهديد .. همس داخلها تهديد يؤرقها ويجعلها دائمة الهرب منه

- أنت تنظر إلي وكأنك .. وكأنك

قاطع كلماتها المترددة بالإفصاح عما تعني بصوت هامس

- وكأني أريد التهامـ .. صمت فجأة عندما زحف الاحمرار على وجنيتها ليتنهد تحسراً وهو يكمل .. التهام الطعام في صحنك

رفرفت بجفنيها وهي تنظر إليه بدهشة وهو ينظر إلى طبقها الذي لم تأكل منه إلا القليل

- لقد أنهيت طعامي وأنتِ على مايبدو لا تزال الشهية تفارقك -لوى شفتيه وعادت النظرات المتلاعبه تزين عينيه- بعكسي تماماً .. ما رأيك لو تبادلنا الصحون ؟ -غمز لها- ستوهمين نفسك كعادتك بأنك مكتفية على الرغم من جوفك الخالي -تنفس بعمق- أما أنا فسأواصل السعي للحصول على ما يضمن كفايتي حتى أناله !

تكرهه فعلاً .. كم تمقت تلاعبه بالكلمات التي كلما أرادت مواجهته بها وجد منفذاً يتملص منه ويجعلها تبدو كالبلهاء المتشككة .. زفرت بضيق ونهضت من كرسيها بعصبية

- ما بك ؟

وجه لها سؤاله ببرود أثار حنقها .. منذ أن عرفته وهو يحاول أن ينتزع منها هدوءها ويهوى إثارة ارتباكها .. لم تنسَ يوماً ما فعله بها بأول لقاء لهما معاً

قبل سنوات عدة كانت فيها طالبة في المرحلة الأولى من كلية طب البصرة وهو مساعداً للطبيب المحاضر .. كانت تشد على أعصابها بقوة وقد عاهدت نفسها بأنها ستبقى متماسكة حتى انتهاء درس التشريح الأول لها وبرفقتها مجموعة من الطلاب الذين لا يقلون عنها ارتباكاً وخوفاً، ولكنها من دونهم قد استطاعت رسم ملامح متزنة لا تبرز للمحيطين بها رعبها والذي على ما يبدو لم يعجب الدكتور قاسم الذي رمى بوجهها ذراعاً بشرية سقطت هي أرضاً فاقدة للوعي قبل أن تتلقفها كما طلب منها بعد دخولها صالة التشريح بربع ساعة ..

- دكتور .. هل تذكر ذلك اليوم في المشرحة .. عندما رميت الذراع البشرية بوجهي

توقف قاسم عن مضغ الطعام .. حك ذقنه بيده ليقول بعد لحظات مستغرباً حديثها .. تباً لتلك الذكرى .. لقد استغرق بعدها أشهر وهو يحاول أن يعتذر منها .. حسناً هو تقصد ما فعله لكنه لم يكن يظن بأنه سيغمى عليها .. ضربة لكبريائها لم تسامحه عليها حتى الآن

- دكتورة .. لم تكن ذراعاً بشرية .. كان طرفاً اصطناعياً ..

قالت بعناد

- لكني لم أكن أعرف بأنه اصطناعي

نهض من مكان جلوسه متجهاً نحوها وهو يهز كتفيه بعدم مبالالة

- لم أكن أعرف بأنكِ لا تعرفين .. لمعان عينيها أوضح تكذيبها له ابتسم وهو يشرف

عليها بقامته الطويلة ليعترف بخفة .. حسناً كنت أعرف

- إذاً لمَ فعلت هذا ؟ لمَ قصدت أن ترعبني
- ألا ترينه حديثاً متأخراً دكتورة .. لقد مرت سنوات على تلك الحادثة .. لم تعد ترعبك الأطراف أو الأعضاء البشرية
- لكني أريد أن أعرف لمَ فعلت هذا !!
- حسناً .. كنتِ متشنجة جداً .. ولستِ طبيعية فأردتكِ أن تتخلصي من توترك

صرخت بوجهه مستنكرة

- فترمي علي بذراعٍ بشرية!

عليه أن يعترف بأنه بالغ يومها؛ فكر بصمت .. بينما صوته يظهر مله الشديد ..

- أصطناعية .. كرر مؤكداً، كانت اصطناعية .. لكن لا بأس لا بأس كانت حركة سخيفة مني .. آسف جداً .. هل أنتِ راضية ؟

ابتعدت عنه ببرود وقد أدركت متأخرة بأنه يقف قريباً جداً منها .. لا تثق به أبداً، أي تصرف يقوم به يريد بواسطته أن يسخر منها

- واعتذارك أيضاً يبدو سخيفاً بعد كل تلك السنوات

لمعت عيناه بغضب بارد سرعان ما كتمه وهو يدرك لعبتها، لن تفلح .. لن تفلح أبداً في إبعاده عنها

***

صوت غمغمات خافتة أيقظت هدير من نومها .. فتحت عينيها على سعتهما تحاول استيعاب الظلام الذي يحيط الغرفة الصغيرة علها تخفف من سطوته قليلاً .. سديم ! .. نهضت مسرعة من فراشها واتجهت بخطوات شبه متعثرة إلى الحائط المواجه لها حيث يقبع سرير شقيقتها المتكورة بألم فيه ..

- سديم .. سديم صغيرتي ما بك

أنّات خافته وأنفاس متسارعة تحشرجت بصدر سديم كانت هي الإجابات التي حصلت عليها هدير مدت يدها إلى جبينها لتلسع بحرارتها العالية رغم برودة الجو

- يا إلهي أنتِ محمومة

سارعت هدير إلى خارج الغرفة كي تجلب لشقيقتها مياه محتواة بإناء وقطعة قماش ناعمة .. لتبطئ خطواتها عند وصولها إلى حيث تقع غرفة والدتها كي تضمن عدم استيقاظها .. فعندها ستظطر للعناية باثنتين بدلاً من واحدة .. تنهدت بضيق وهي تملأ الإناء بالماء .. صحة والدتها المتدهورة تقلقها جداً .. يا إلهي ماذا علي أن أفعل .. من أين أوفر كشف الطبيب .. خواطر عدة راودتها وأفكاراً بددت أغلبها من عقلها سابقاً، يا ترى هل ستضطرها الحاجة كي توافق عليها أخيراً وتنصاع لها ؟

جلست بقرب شقيقتها تضع كمادات على جبينها علّ حرارتها تخف قليلاً لتدرك بعد لحظات بأنها قد نسيت أن تنير الغرفة بمصباحها الأصفر الشاحب .. أركزت الكمادة على جبين سديم ونهضت كي تفتح الضوء .. اتجهت لسريرها لتسحب مخدة تضعها تحتها عند جلوسها أرضاً قرب سرير سديم .. الغافلة كلياً عما يدور حولها .. همهمات خفيفة غير مفهومة كانت تصدر من بين شفتيها حاولت هدير بكل جهدها التقاطها وقد تملكتها نزعة ملحة للتعرف على ما يدور بذهن أختها الصغيرة .. أحرف متناثرة، اختلاجات تمر كالبرق على صفحة وجهها الملتهب دون أن تترك من أثر سوى تجعيدة خفيفة على الجبين تنبئ عن صراع عميق يدور بفكر أختها الغائب عن الإدراك .. لم تساعد هدير على فهم هلوسات شقيقتها

بعد ساعتين تقريباً هفتت حرارة سديم أخيراً وزال عنها الارتجاف فسكن جسدها مسترخياً تحت الغطاء

.. تنفست هدير الصعداء تحركت تدفع جسدها بمعونة يدها لتستند على خشب السرير وقد أنهكت .. لتجمد حركتها عند ملامسة كف يدها لشيء ما تحت سرير سديم .. قطبت جبينها .. مدت يدها أكثر .. أمسكت قبضتها بشيء .. ما هذا .. ليظهر لها كيس بلاستيكي كبير .. ألقت نظرة سريعة إلى سديم الغارقة بالنوم .. لتسحبه إليها وفتحته بفضول .. توغلت يدها داخل الكيس .. لتبتسم بعد لحظات وقد ظهر لها المحتوى المجهول .. يالغبائي سخرت من نفسها وهي تجد أكواماً من كراسات الرسم محفوظة بعناية داخل الكيس .. رفعت بصرها ملقية نظرة على الساعة إنها الثانية بعد منتصف الليل .. وأخرى لسديم .. اممم .. لابأس ستتسلى بالنظر إلى ما يبدو بانها رسومات خطتها أنامل شقيقتها الحالمة حتى تطمئن لاستقرار حالتها لتذهب بعدها للنوم

***

مطر .. زخات مطر شديدة بللت الشارع الخارجي الذي يربط بغداد بالبصرة .. إضاءات خفيفة شاحبة تتسلل بمحاولات ضعيفة لاختراق هيمنة الظلام الدامس الذي منع بمعونة الغيوم الثقال النجوم من أن ترسل بريقاً يمهد قليلاً من وحدة السائرين بالدرب الطويل في تلك الليلة المعتمة الرجاء كروح تغلل بين حناياها القنوط ..

وناصر غير مبالٍ بما يدور من حوله يحث المسير يبحث عن ملجأ بعيد .. بعيد عن كل ما آلفه وكل ما عاشه سابقاُ .. لم يكن ينوي سفراً لا يدوم لزمن طويل .. لقد اتخذ قراره بأن يبدأ من جديد بمكان لا يحمل عبقاً من ناصر كأنه يوماً ما قد يستغرق عشرة أيام يمكن أن يمده إلى شهرين ثلاثة أو حتى أربعة، لديه من المنافذ ما يستطيع استغلالها وقد يكون أولها هو شريك والده السيد نعمان منذ سنوات وهو يلح عليه أن يعملا معاً، مرحلة انتقالية يحتاج إليها كي يستطيع أن يبدأ من

جديد، لن يترك كل شي خلفه هكذا بل سينسحب بهدوء دون أن يعلم والديه بأنه قد تعمد أن يبتعد وينأى عنهم .. وكأن إصراره على ما يريد وتركيزه الشديد أزاح النور من مقلتيه وأطفأ الوعي عنه .. فتح بعجز نافذة السيارة ماداً يده إلى حبات المطر يبحث بجموح عن ولع يوقظه من غيبوبة تريد فرض نفسها عليه .. بحث بهوس بين زخات المطر عن ذلك الإحساس الذي شرد إلى داخله بغفلة من الزمن .. لكن المطر .. لم يكن ذات المطر وحباته، لم تحمل له طيف سعادة تمناها، لم تجلب الطمأنينة التي نشدها لروحه الهائمة في بحور من الحيرة المريبة تتلاعب به بين موجاتها تناكده بخيارات هو ليس أهلاً ليمضي فيها .. حبات المطر قبلت كف يده لتتسرب سريعاً من بين أنامله تغافل صحوته التي بدا كأنها تشاركه هروبها منه لتتوارى بعيداً عنه تاركة إياه ضحية اللا وعي الذي أفقده توازنه ليثقل جسده وترتخي يده قبل أن ترطب وجهه وتسقط قدمه على دواسة البنزين رغماً عنه لتضغطها بقوة ..

طريق زلق .. شارع مظلم وسيارات حمل كبيرة تعبه عباً لا تعرف بوجود سائقٍ وحيدٍ فاقدٍ للوعي يشاركها الطريق !!

الفصل الخامس عشر

لم تكن مجرد خربشات لطفلة صغيرة ما كانت تقلبها هدير بين يديها في تلك الساعة المتأخرة من الليل .. كانت صفحات لأيام ماضية من حياة أختها الصغيرة؛ أفكارها .. مشاعرها .. حتى أحلامها .. موثقة برسوم رمادية .. ابتسامة شاحبة مرت على شفتي هدير باقتضاب وهي ترى رسمة لرجل طاعن في السن .. لقد صورت سديم الشيخ العجوز بدقة فائقة، لم تعرف بأن أختها تستطيع الرسم بهذه البراعة .. عمر هذه الرسمة كما هو مذكور بالكراس أربع سنين أي بعد وفاته .. أممم .. لقد غير الكثير بتدخله بحياتهم لم يكن دوره مقتصراً على أحداث التغيير بحياة سديم فقط بل كان له بحياتها أيضاً دور مهم .. جالت ببصرها في تقاسيم الوجه العطوف لترتفع عنه مجيله النظر في جدارن البيت القديم .. بيته .. نعم بيته الذي وهبه لهم، كان عجوزاً وحيداً عرف والدتها ووالدها وشد مأساة عيشهم، حاول أن يقوم والدها بالنصح بالكلام الطيب لكنه لم يفلح .. وضعت الكراس في حضنها وقد توقفت عند التقليب في الصفحات المرسومة لتشرع بتقليب أخرى .. صفحات من السنوات الماضية ..

أربعة عشر أقل أو اكثر .. لم تعد تذكر بالضبط كم كان عمرها عندما انتقلوا لبيت خالهم لينقذهم من التشرد ؟ هي ووالدتها وسديم الصغيرة ترف وحاتم لم يكونوا قد تكونوا برحم والدتها الهائمة أبداً بذلك الزوج المقرف .. لوت شفيتها بألم .. ضعف والدتها وعشقها لوالدها هو من جعلها تنقل ملكية البيت باسمه ليبيعه بعد شهرين تسديداً لديونه .. ديون القمار .. والدها ذلك الشىء اللزج بداخلها أول من لقنها درساً في الحياة .. أول من وضح لها بأنه أكبر وصمة عار ستلحقها

بحياتها منذ ذلك اليوم الذي سرقت به زجاجات الخمر العائدة له وقامت بتكسيرها فكان عقابها الضرب المبرح الذي لم يكن ليعني لها ما عنى لو لم يكن على مرأى ومسمع الجيران .. ارتخى جسدها أكثر والذكريات تنبش بعقلها نبشاً غير منصف لحاضرها .. الخال زهير أصبح الأب البديل لها ولسديم، وعلاء؛ ابتسمت بحزن .. لم يكن يخطر ببالها يوماً بأن الحياة ستأخذ بها مثل المنعطف وتمضي بها بعيداً عن كل حلم راودها .. علاء كان شيئاً آخر، ما تزال تذكر كيف كان يمشي خلفها وهي تذهب للمدرسة خوفاً عليها من أن يتعرض لها أحد بعد ذلك اليوم الذي رآها تبكي فيه تصرف بعض من كان يعرف والدها وماضيه وقد أخذ على عاتقه حمايتها .. عالم نظيف جداً وبيئة رائعة عاشت فيها لسنوات لم يكن ينغصها سوى تسلل والدها ومراقبته الدائمة لبيت الخال يريد أن يترصد والدتها لوحدها حتي يستميلها إليه وتعود

المياه الآسنة إلى مجاريها .. نعم آسنة بمجرد أن تراه حتى تشعر بنفسها غارقة بمستنقع من القذارة .. كان يرعبها ذلك الخاطر بأن والدتها يمكن أن تعود إليه، بل هي كانت متأكدة بأنها ستعود إليه إن أشار لها نابذة كل شيءٍ خلفها حتى عهدها لأخيها بأن تتركه !! وقد أثبتت السنوات، أكدت السنوات التي تلت ظنونها .. قررت يومها بأن تبلغ خالها بحومان والدها كغراب ناعب ينذر بالشؤم حول البيت لكن .. وهنا سقطت دمعة شريدة نادرة الهطول من عين هدير .. لكن الأقدار كان لها القرار .. جائر أم عادل فلها القرار .. وكان ما كان وتزعزع الأمان وحل السواد في ذلك النهار القائظ بحره وبأحداثه .. والذي لم يغب أي تفصيل منه عن ذاكرتها .. عودتها إلى البيت .. علاء الذاهل المصفر الوجه وخالها الذي يقف بينه وبين والدتها التي كانت تنعته بما لا يقال ودموعها

ترنم صرخاتها .. ووالدته التي أخذت تشد على ذراعها

- كان حادثاً .. كادت أن تسقط من النافذة فأمسكها .. لقد رأيته بأم عيني يمسكها عن السقوط .. لم يفعل ما قالت .. لم يفعل

وعادت إلى الضياع مجدداً .. وقد وجد والدها فرصته لعودته لحياتهم .. كيف يمكن لهم العيش ببيت الشيخ الوحيد الذي التجأت والدتها إليه بعد أن تركت بيت الخال .. لا بد من وجود الأب ليصحح الوضع الخطأ .. وأي أب كان !!! وأي خطأ تصحح بوجوده !!

التفت بكآبة تملكت كيانها نحو سديم النائمة بأنفاس رتيبة دون أن تعلم أي نار أججتها الذكرى بصدر شقيقتها الكبرى .. والماضي الحزين يسحب البساط من تحت قدمي الحاضر الساكن بعجز أمام سطوة الذكريات المؤلمة

***

- لا بأس .. سنعرف بعد أربعٍ وعشرين ساعة ..
- بإرهاق شديد رمى قاسم نفسه على المقاعد المتناثرة بالممر المؤدي إلى صالة العمليات في مستشفى البصرة العام .. أمسك جبينه يدلكه بقوة .. وهو يتمتم بعد ثلاث ساعات قضاها بغرفة العمليات. بنزق سائق أحمق ..
- دكتور .. هل ستذهب إلى البيت ؟

رد بإنهاك للممرضة التي رافقته في صالة العمليات

- كلا .. سأنتظر هنا ربما تحدث مضاعفات للمريض .. رفع بصره للممرضة متسائلاً .. هل عرفتم هويته

أومات الممرضة بالنفي

- كلا .. لم نعرف للآن .. لكن الضابط أبلغنا بأنه حالما يعثر على ما يُعلم عن هويته سيبلغنا كي نؤيد اسمه في السجلات
- أمم .. من المستبعد أن يظهر أحد ذويه .. تنهد مرهقاً .. ليس قبل أسبوع على الأقل كونه قادم من بغداد ..
- أنت محق .. هل أنت بحاجة إلى شيء دكتور ؟

أشار لها بكلا .. وهو يتكئ بظهره على المقعد الجلدي البارد متثائباً .. من حسن حظ هذا السائق الأرعن أن أعضاءه الحيوية لم تتضرر .. وأن الأذى وإن لم يكن هين قد وقع على عظام ساقيه دون الأعصاب فيها .. لقد اضطر لزرع صفائح البلاتين على طول الساق اليمنى .. على أمل أن لا يتسبب الحادث بعجز بالساق ..

***

الساعة الثانية عشر في صباح اليوم التالي في شركة المنسوجات القطنية كان عبد الرحمن يجري مكالمة مع السيد نعمان صديقه قبل أن يكون شريكاً له بالعمل

- أمم .. لم يظهر بعد !!

ظهر التعجب على وجه عبد الرحمن عند سماعه نفي نعمان لقاء ناصر

- لقد سافر منذ ليلة أمس ! ماذا ؟ نعم ربما .. معك حق ربما قضى الليلة في أحد دور الاستراحة الموزعة على الطريق .. هههههههه .. نعم بالفعل متعب جداً .. نحن على اتفاقنا، دع الأمور تسير هكذا وكأننا لم نتعمد شيئاً .. حسناً .. حسناً .. مع السلامة

وضع الحاج عبد الرحمن السماعة مكانها بعد أن أنهى الاتصال .. ياللسخرية .. هذا نعمان صديق عمره ورفيق طفولته لم يستطع أن يكلمه عن ما

يؤلمه .. الخزي .. الخزي الذي تسربل به يخنق الكلمات في جوفه .. يمنعه من أن يصارح أي شخص بالهم الذي يأكل صدره .. كيف .. كيف تقوده خطواته إلى بيت تلك الفاسقة ويطلب يدها .. كيف ؟! ضرب سطح المكتب بكف يده .. عمران .. لقد كسرت ظهري بفعلتك وبددت كرامتي كقبضة من الرمال نثرت لتلتهمها أعاصيف الرياح.

***

- هل أصبحتِ أفضل صغيرتي
- نعم أمي بخير .. أنا بخير الآن ..

ابتسمت سديم بوهن لوالدتها .. محاولة أن تزيل القليل من القلق المرتسم على تقاسيم وجهها المتعبة

- إذاً هل أحضر لكِ الطعام صغيرتي .. لم تأكلي منذ صباح يوم أمس
- كلا .. كلا أمي سآكل فيما بعد .. أنا .. أنا حقاً أشعر بالنعاس وأود النوم .. لو سمحتِ

طبعت رقية قبلة حانية على جبين ابنتها وهي تقول

- لا بأس يا ابنتي .. نامي وعندما يحين وقت الغداء أوقظك

بعين ساهية راقبت سديم خطوات والدتها المتهالكة .. كم كانت تتمنى لو أن والدتها بصحة أفضل .. هي بحاجة إليها .. بحاجة إلى إصغائها لها .. لقد تعبت .. تعبت من الأفكار التي تتلاعب بها تتقاذفها كريشة في مهب الريح .. إحساس مؤلم جداً عندما تشعر بالأمل يزرع في تربة روحك المتعطشة لها لتموت بذرتها عندما تُسقى باليأس .. عندما تحس بأنك وصلت إلى تحقيق أحلامك وبأنها خطوة أو أقل ما يفصلك عن تلمسها كواقع يغير من حياتك لتفيق على كابوس أصبح ركيزة أيامك .. ناصر .. مدها بالأيام الماضية بما لم تعرفة طوال سنين حياتها .. لكنها غبية غبية جداً عندما تصورت بأن من مثله سيلتفت لمن هو مثلها .. أين الثرى من

الثريا !! رجل بوضعه ما الذي سيراه فيها ؟ أي إحساس سيتولد بداخله نحوها غير الشفقة .. الشفقة إحساس تزهد الحصول عليه .. تكرهه .. يشعرها بعجزها وبأنها طوال حياتها لن تكون سوى سديم المسكينة .. لكنها رغما عنها آملت وحلمت .. بريق ظهوره بحياتها بهرها عن أي منطق نشأت على إدراكه .. كان عليها أن تتعلم درسها .. وبأنها من الأفضل لها أن تزهق أنفاس طموحها بالسعادة التي أتعبها .. أتعبها جداً الحلم بنيلها .. أن تعيش بلا أمل أفضل من أن تتذوق مرارة طمره بين طيات الزمان .. ستكون محظوظة جداً إن وفر لها العمل الذي طلبته منه .. أغمضت عينيها تمنع دموعها من الانهمار وتلك المشاعر التي دغدغت أحاسيسها برفقته لاتفتأ تذكرها بها

***

- مرحباً حبيبتي ..

قالها علاء بعد أن استقرت هدير بجوار مقعده بالسيارة بعد أن كان ينتظرها قرب محل عملها

- علاء .. يا إلهي هل جننت !

ابتسم لها متودداً

- ماذا حبيبتي .. اشتقت لكِ وأردت رؤيتك

مدت يدها ترفع خصلات شعرها الناعمة القصيرة من على وجهها فبان الإرهاق في عينيها

- حبيبي .. لكن هذا لا يجوز ماذا إن رآك أحدٌ ما ؟! أسندت ظهرها على المقعد .. تعرف بأن هذا كفيل بتسبيب المشاكل لي

مد يده يسمح خدها بكف يده وهو ينظر إليها بعطف واهتمام

- تبدين متعبة ..

ارتخت لملامسته .. تحبه .. تحبه بما يفوق الوصف ..

- نعم ..

ابتسمت بضعف وهي ترنو إليه بنظراتها وقد نسيت كعادتها كل شيء بقربه .. حتى حذرها من أن يراها أحد العاملين معها وهما في السيارة التي ما زالت واقفة مكانها دون اهتمام بالعيون المتلصصة

- لقد أصيبت سديم بالحمى طوال الليلة الماضية فسهرت للعناية بها .. لم أنم حتى انبلاج الصباح .. ولساعة فقط

زاد ضغط كفه على خدها وهي تسترسل بوصف حالة شقيقتها غير مدركة للظلام الذي أطل من عينيه .. لم تشعر به إلا وهو يقترب منها وقد نقل كفه المستقرة على خدها لتمسح جسدها ملتفة على ظهرها تسحبها إليه .. شهقت مستنكرة

- علاء .. توقف هل جننت .. علاء نحن بالشارع

بصعوبة استطاعت إبعاده عنها .. نظرت إليه بعدم تصديق .. لتتحرك دون أن تقول كلمة وتفتح باب السيارة لتخرج منها ..

مد يده محاولاً منعها .. لتدفعها إليه بقوة وهي تقول بغضب

- إياك ..

راقبها وهي تخرج مغلقة باب السيارة بقوة .. وتتحرك مسرعة كي تعبر الشارع دون أن يتجرأ على إيقافها .. لم يعرف ماذا دهاه كي يتصرف معها بمثل هذا الشكل .. غبي .. دمدم بعصبية .. أسقط رأسه على المقود أمامه حاضناً إياه بذراعيه .. كان يشعر بالتشوش .. مئات من الانفعالات تطن برأسه .. حتى الدماء يشعرها تهتز بعروقه .. كان بحاجتها .. بحاجتها كي تعيد له التوازن داخله .. لكنه أحمق .. بمجرد أن ذكرت اسمها حتى أرادها أن تخرس عن ذكرها قبل .. قبل أن تحتله الذكرى ..

حرك رأسه قليلاً ليتسلل بصره من تحت ذراعيه إلى حيث كانت واقفة في الجانب الآخر من الشارع .. تزم وجهها بعيداً عنه ترفض التطلع إليه .. لقد نفذ صبرها وهو يدرك ذلك، في السابق لم تكن تحتمل رؤية انزعاج ولو طفيف يطل من عينيه أو يبرز بتوتر جسده .. تفعل أي شيء وكل شيء من أجله .. لكنها في الآونة الأخيرة تغيرت ..
وتغيرها هذا سلب أي راحة قدر له الشعور بها .. كان يشعر بها تبتعد عنه تحاول أن تنسلخ من روحه الهائمة بها .. وهو لا يحتمل .. كيف له أن يحتمل فراقها .. تغادره آدميته عند مغادرتها حياته ..

ابتلعت ريقها تحاول أن تقاوم غصة تملكتها وهي تراه منحني الظهر مسنداً رأسه إلى المقود .. شدت قبضتيها بقوة كأنها تحاول بشدهما تثبيت قدميها مكانهما تمنعها من الهرولة باتجاهه .. لقد تمادى فعلاً بتصرفاته معها .. إحساس غريب بدأ يلح عليها

مؤخراً .. لقد بدأت تشعر بأنه يستغلها .. لا تعرف كيف .. هو لم يجبرها على شيء .. قلبها الذي مال إليه من صغرها ليتربع على عرشه بشبابها هو الذي جعلها تخطو نحو تلك الحياة السرية دون أي اعتبار لشيء سوى عشقها له .. كم مرة ومرة وعدت نفسها في لحظات تمرد على واقع كان من صنع يديها ومشاعرها الخائنة لعقلها بأن تقتل حبه داخلها !! بأن تمضي بدرب لن يكون هو رفيقاً لها فيه !! دون جدوى .. كل حلم سكنه هو ،، كل عاطفة امتلكها هو ،، كلها كانت ملكه هو !!

- هدير ..

وصل إليها صوته الخافت ترافقه خطواته المترددة ليقف قربها ممعناً النظر بها بصمت .. وهي رفعت بصرها إليه بتأمل .. ليس له بل لحالهما معاً .. اصفرار وجهه أنبأها بالقلق الذي يعتريه .. وبرود نظراتها أعلمه بأنه قد أوشك على خسارتها ..

والاثنين غافلين كلياً عن عينين مترصدتين تتميزان غيظاً وهما تختزنان بحقد مشهد وقفتهما معاً !!

***

عند المساء في مستشفى البصرة العام .. كان ناصر مسجى على السرير منعزل وحيدا دون مرافق كغيره من المرضى اللذين اشتركوا معه في الغرفة ذاتها بعد خروجه من غرفة العناية المركزة .. غارقاً في سبات من أثر مخدر العمليات الذي ما زال يسري مؤنساً الدماء في عروقه .. كأن الوحدة تأبى أن تحله من عهدٍ ربطهما معاً منذ أن تنفس أول نشقة هواء ولمح أول نقطة ضياء .. لم يفعل الشحوب الذي بسط ستاره على ملامحه وجسده المستكين المستسلم سوى في زيادة هالة من التوحد جذبت أنظار الممرضات إليه .. رجل وسيم يبدو عليه الثراء .. وملائكة رحمة ساهرات في الليل لم يمانعن في نسج الأحلام حتى وإن فاقت الخيال

بالخيال حول هذا الغريب غير مباليات سوى في تحريك ركود أيامهن المتشابهات دون طموح يسكنهن فعلاً لتحقيق تلك الأمنيات .

- كيف حاله ؟

تكلمت إحداهن .. لتجيب الأخرى

- يقول الدكتور قاسم .. بأنه قد يفيق من البنج بعد ساعتين من الآن .. مسكين كان حادثاً مروعاً ..
- وساقه .. هل ستشفى ؟ ماذا قال عنها ؟
- ما زال الوقت مبكراً كي نعرف مدى الضرر الذي سيكون
- اممم .. خسارة شاب مثله، آمل أن لا يصاب بعجز بساقه .. ألم يعرف أحد حتى الآن ما اسمه ؟؟
- كلا .. فقط بأنه قادم من بغداد .. رمقته الممرضة بعطف وهي تفكر للحظات لتلتفت

إلى رفيقتها قائلة بسرعة كمن اكتشف شيئاً
.. سهى أين ملابس المريض؟

- مـ .. ماذا !! هااا .. لا أعرف ربما في غرفة المنظفات .. مرمية هنا أو هناك .. لماذا ؟
- هل تعرفين ؟ أراهن بأنها منذ أن نزعت عنه في غرفة العمليات لم يقم أحد بالتقليب بها .. ربما

قاطعتها سهى وقد أنير وجهها بالترقب

- هل تظنين بأنه ربما قد نجد ما نستدل به على هويته ؟
- نعم .. الكل انشغل بحالته الحرجة .. الشرطة تفتش سيارته .. لكن ملابسه ..

لم تنهي الممرضة جملتها لتتسابق مع رفيقتها إلى حيث تقع غرفة المنظفة .. كلتاهما قد وجدت بهذا الخاطر ما يشحذ سكون اللحظات المزعزع بأنات المرضى التي اعتادتها أذنيهما حتى عد جزء من

السكون نفسه .. بشيء من الحركة التي جعلت كل واحدة منهما تظن نفسها بطلة لمسلسلٍ ما !

دقائق مرت تنازعت كلتاهما فيها على تفتيش قطع البدلة الممزقة لناصر .. لتصرخ أحدهما بفرح وهي تقول

- وجدتها .. هههههه .. وجدت ..
- ماذا

اقتربت الاثنتان من بعض وقد أمسكت إحداهما دفتر ملاحظات صغير .. ما إن فتحته سهى حتى سقطت ورقة صغيرة منه التقطتها رفيقتها التي ما إن قرأت ما فيها حتى علت ملامحها الدهشة المرفقة بخيبة أمل !!

الفصل السادس عشر

محاورة بصوت خافت لم تعكر سكون الغرفة التي تضم في أحد زواياها على سرير حديدي بأعمدة بيضاء كجدران الغرفة المربعة جسد الرجل المريض الغافل عما يدور من حوله من تساؤلات وتكهنات ..

- ماذا قررت أبي .. هل ستخبر العم عبد الرحمن بحادث ولده ؟

قطب السيد نعمان حاجبيه وهو بحيرة من أمره .. لقد فوجئ باتصال وئام به قبل ساعتين تخبره عن رجل تعرض لحادث على طريق بغداد البصرة يحمل

عنوان البيت في جيبه .. لم يحتج الأمر لذكاء ليعرف بأن الرجل هو ناصر ..

- لا أعرف بنيتي .. لكن بناء على معرفتي بناصر لا أظن بأنه سيرغب بأن تعرف عائلته عن الحادث

شاركت وئام والدها تفحص الجسد النائم والملامح الهادئة المستكينة للرجل المخدر

- هل تظن ذلك ؟
- بل أنا متأكد.
- ولكنهم عائلته والدي ومن حقهم معرفة ما حدث له
- أخبريني هل حالته مستقرة ؟

- حسناً أبي .. من الأفضل أن يجيب الدكتور قاسم عن سؤالك هو الطبيب المسؤول عن الحالة
- حسناً .. سأذهب إليه .. سأعتمد على إجابته باتخاذ القرار بإعلام عبد الرحمن أم لا

ألقت وئام نظرة إلى ساعة يدها لتقول

- لا داعي أبي .. دقائق ويحين موعد الكشف للمرضى وسيأتي الدكتور قاسم إلى هنا

انسحب السيد نعمان إلى الوراء ليجلس على المقعد بجوار سرير ناصر .. الذي تم نقله بناء على طلب من وئام التي انصاعت لرغبة والدها إلى غرفة خاصه به و لو كان بيده لنقله إلى مستشفى خاص بدل الحكومي لكن حالته لا تسمح ووجود وئام

قربه هون الأمر عليه .. بصوت يلون نبراته الأسف قال

- إن هذا الشاب سيء الحظ فعلاً ..

ابتسمت وئام بهدوء وهي تقول

- بل محظوظ أبي .. نادراً ما ينجو أحد من حادث كالذي وقع له ..
- معك حق .. لكني لا أملك إلا أن أتأسف عليه
- يبدو بأنك تقدره كثيراً

بان الإعجاب بعيني والدها .. وهو ينظر إليها للحظات ويعاود النظر إلى ناصر قائلاً بما يؤكد كلامها

- طبعاً .. هذا ناصر .. أنتِ لا تعرفين يا ابنتي .. لو .. كان لي ولد لتمنيت أن يكون مثله

أجابته وئام مدعية الامتعاض وهي تحاول أن تغير من مزاج والدها الحزين

- ماذا أبي ألا أكفيك أنا !
- أنتِ ابنة رائعة .. تعرفين مدى افتخاري بك .. لكنه رجل كلا .. كلا لا تعبسي هكذا .. ناصر رجل من طراز خاص .. يحيط من يعرفونه بسد أمان؛ يفني نفسه من أجل غيره .. تعرفين هو يشبه رجال العرب السابقين .. رجل ذو نخوة

رجل يشبه رجال العرب السابقين !! .. لم تسمع والدها يوماً يطري على شخص بهذه الطريقة .. ليس من السهل أن يحوز أحدٌ على إعجابه .. هي ابنته أجهدت نفسها لسنوات حتى تلمح الإعجاب بعينيه وما زالت لا تصدق بأنها أخيراً قد حازت

عليه .. نخوة ؟ .. ما الذي رآه والدها بهذا الشاب حتى يتغنى بفضائله أمامها بهذا الشكل ؟! رغم معرفتها بوالده الذي كان دائم الحضور إلى بيتهم في البصرة لم تتعرف إلى أي احد من أولاده سابقاً ..

خطوات واثقة تبعتها طرقات خفيفة على الباب أخرجت وئام من حالة التأمل التي كانت مستغرقة فيها ..

- مساء الخير

دخل قاسم إلى الغرفة كابحاً ضيقاً عميقاً يشعره من أن يبرز من عينيه لدى رؤيته وئام برفقة والدها قرب المريض .. ناصر عبد الرحمن .. اسمه الذي ردده السيد نعمان بفخر -مكملاً التعريف به- ابن أعز أصدقائي ..

- دكتور .. والدي يريد أن يعرف وضع ناصر الصحي

ناصر ! .. ضاقت عينيه وهو يحدجها بنظرات ساخرة .. وقد انتبه لاستبدالها كلمة المريض بالاسم الشخصي وهو شيء لم يكن متداول التعامل بالمستشفى ..

- أمم .. حسناً -بصوت مهني جاد تكلم قاسم- حالياً وضعه مستقر .. تم زرع صفائح بلاتين على طول الساق اليمنى .. بعد أسبوع على الأقل نستطيع أن نحكم نهائياً على نجاح العملية في حالة استجابة عضلات الساق للحركة وتقبل الجسم للمعدن

كان يتكلم وهو يدور حول ناصر متفحصاً جراحه .. تناقض شخصيته دوماً كان يسبب الحيرة داخلها ..

قاسم الساخر الذي لم يردعه شيء يوماً من أن يتسلى على حساب أعصابها .. وقاسم الطبيب الجراح البارع جداً .. المهني والبارد كما هو الآن .. راقبت أصابع يديه الرشيقة -وهما تتحركان على ساق فاقد الوعي بخفة وحذر شديدين- بانبهار ..

- هل تسمحين دكتورة ..
- مـ .. ماذا

رفعت بصرها إليه .. متى أصبح بجانبها -طالعتها عينان بارديتين- ماذا به ؟

- دكتورة -ردد كلماته بنفاذ صبر- أريد أن أكمل الفحص .. أنتِ تقفين بطريقي

عاد الجلف الساخر ليقضي على الطبيب الساحر المهارة .. ابتعدت محرجة مخفضة رأسها وهي تنظر

إلى والدها على أمل بأنه لم يلاحظ أسلوب قاسم الجاف معها دون أن تستطيع أن تمنع نفسها التساؤل عن سبب تغير مزاجه ..

كان يحاول أن يضبط أعصابه كي لا تفلت منه .. كيف تتجرأ على تفحص المريض بهذه الطريقة وبحضور والدها !!! لم يكن في عينيها وهي تنظر إليه تلك الرسمية التي تتستر خلفها دوماً .. بل الإعجاب !! تباً لها كانت تنظر بإعجاب مراهقة بلهاء إلى الرجل .. ووالدها لم يلاحظ !!

- دكتور قاسم .. هل ترى بأنه من الأفضل نقله إلى مستشفى خاص .. تعرف العناية تكون ..

قطع كلماته مشيراً بأنه يفهم ما يقصده .. لم يكن أحب على قاسم من نقل المريض إلى مستشفى أخرى .. لا ينقصه ثري مدلل وطبيبة مراهقة .. لكن حسه المهني تغلب على رغباته .. فرد ببرود

- سيد نعمان .. المريض أجريت له العملية كأفضل ما يكون .. ما يليها عناية روتينية تتوفر بالمستشفى العام والخاص بنفس المستوى .. ومن الأفضل أن أتابع أنا حالته كوني من أجرى العملية له

أطرق والد وئام برأسه أرضاً .. بارتباك واضح عرفت ابنته أسبابه وجهله قاسم الذي انتظر بترقب أن تتوضح له ردات فعل الأب

- لا أخفيك دكتور .. أنا لا أود إعلام عائلة ناصر بما وقع لابنهم .. تعرف بأنهم يقطنون بغداد .. و

- عفواً .. لكن من الواجب أن تعلم عائلة المريض بالحادث الذي وقع له .. هذا أمر لا نقاش فيه

الصرامة التي ظهرت على ملامح قاسم مع نبرات صوته الحازمة جداً فاجئت وئام .. كيف يتجرأ على أن يكلم والدها بهذه الفظاظة !!

- دكتور! والدي لا يقصد .. صمتت قليلاً وهي تبحث عن كلمات تكون بها عبارة هادئة التعابير مراعية حضور والدها .. هناك اعتبارات يـ
- دكتورة .. هذا قانون المستشفى .. لايجوز التجاوز عنه .. سيورطنا بتبعات قانونية إن خالفناه .. لا تنسي بأن وجوده هنا بعلم الشرطة

- أنا معك دكتور قاسم .. لكن بضع ساعات أخرى لن تشكل فرقاً

تكلم السيد نعمان وهو يلاحظ ذبذبات التوتر تنتقل بخفة بين ابنته والطبيب الشاب .. يكمل بعد ثوان صمت أراد بها أن يجذب اهتمام الطبيب الذي يحدج ابنته بنظرات تكتم غضباً .. حتى يفهم وجهة نظرة

- كم بقي من الوقت حتى يفيق ناصر من المخدر ؟

أخذ قاسم نفساً عميقاً حتى يرد على والد وئام بروية .. وقد تحرك من مكانه حيث كان مواجهاً لها وانتقل إلى حيث أبيها

- في أي لحظة .. لكنه .. سيكون مرهقاً جداً بعدها

- لكن سيكون بوعيه قادراً على اتخاذ قرار، أليس كذلك ؟

رد قاسم موافقاً بضيق وقد فهم ما يرمي إليه السيد نعمان

- نعم
- حسناً -بابتسامة من حصل على نتائج ترضيه- بضع ساعات لن تضر أحداً .. اعتبر بأنه سيتم إبلاغ عائلته خلالها، هم يسكنون بغداد أي لن يصلوا إن افترضنا بأنهم قد علموا فوراً إلا بعد سبع ساعات على الأقل - وبترضيه أضاف- يا ولدي تفهم رغبتي، لا أود أن أسبب لعائلته الألم وأنا أعرف جيداً بأن ناصر يوافقني الرأي .. سترى بنفسك وإن حدث ما يخالف حدسي فأنا مدين لك بالاعتذار
- أبي ..
- التفتت إليه وئام مستنكرة قوله .. لقد التزمت الصمت ووالدها يحاول إقناع قاسم لكن أن يصل الأمر بأن يعتذر!
- دكتور أ ..

دون أن يعير اهتمام للغضب المرتسم على ملامح وجهها والبارز بصوتها على الأقل ظاهراً قاطعها وهو يقول لوالدها

- لا داعي سيد نعمان .. سأرسل لك تعهداً من المعتاد أن يوقعه ذوي المريض أو المريض نفسه .. خلال ثلاث ساعات أريده موقعاً .. هذا كل ما أستطيع فعله .. بالإذن

***

ألقت بجسدها المنهك كعقلها تماماً على سريرها الخشبي الضيق المساحة .. السكون الذي عمقه الليل أحاط بها من كل جانب وأفكارها شاركت الظلام لونه .. والعزلة التي لفت حياتها هجمت عليها على حين غرة بكل تفاصيلها عندما أحست بالضعف الذي أرخى مقاومتها فتمكنت منها .. وتلاعبت بهواجسها .. وغذتها .. خلال أيام .. أخبرها بأنه سيتصل بها خلال أيام .. لم يمر سوى يومٌ واحد وليلة .. ليس وقتاً طويلاً .. بل طويل .. طويل جداً، هذا ما أحسته وهي قابعة بجانب الهاتف تنتظر اتصاله بها .. تنهدت متحسرة على تلك الأيام التي كانت تتوقع في صباح كل يوم منها رؤيته وقضاء بضع ساعات برفقته .. مدت يدها تمسد خصلات شعرها الحالكة السواد .. تتلمس لمسته لها .. وتشعر بدفء عينيه العسليتين يغمرها حتى يزول البرد من أطراف مشاعرها .. أغمضت عينيها .. مفسحة المجال للخيال كي يطفوا على سطح واقعها ويبعد بألوانه طيف الأسى عن لحظاتها .. ندى حزين بلل طرف أهدابها المرتجفة المسدلة على خدين توردا ترقباً .. للأحلام التي تتعشم أن تحل ضيفاً عليها .. وتمتمت شفتيها برقة .. ناصر .. كأنها تؤكد للحلم مطلبها

***

أنة خافتة جذبت انتباه وئام .. قفزت من الكرسي حيث كانت جالسة بمكان والدها الذي طلب منها أن تظل جوار ناصر حتى يجري مكالمة لصديقه عبد الرحمن يعلمه فيها بأن ناصر وصل بالسلامة وأنه

يأخذ قسط من الراحة في غرفته أعدها له بالمنزل .. أنة أخرى .. أمسكت بمعصمه تقيس نبضه بسرعة وهي تقول بصوت خافت

- حمداً لله على سلامتك ..

راقبت جفني المريض وهما ترفرفان ببطء في محاولة منه للتخلص نهائياً من تأثير المخدر الذي أثقل حركتهما .. رطب شفتيه بلسانه ليتمتم بضعف

- عطـ .. عطش

ألم .. ألم شديد يرافقة غثيان مزعج .. ودوار وجفاف رهيب .. كل هذا أحسه ناصر عندما بدأت تباشير خروجه من تحت تأثير المخدر .. أحس بشيء يوضع على شفتيه .. قطرات ماء التهمها كأرض يابسة تلح بطلب المزيد ..

- مـ .. ماء

عاود الصوت الناعم يحادثه

- هذا يكفي الآن .. لا أستطيع أن أعطيك المزيد من المياه ..

ضغط جفنيه بقوة ليفتحهما بعد ثوان .. يحاول الوصول إلى رؤيا واضحة لصاحبة الصوت الناعم .. أين هو .. حاول أن يتحرك .. لتضرب أضلعه صاعقة ألم .أصدر آه قوية من بين شفتيه الشاحبتين

- اهدأ .. لا تتحرك ..

يدين وضعت على كتفيه تثبتهما مكانهما على السرير ..

- أغمض عينيك لثوانٍ -ابتسمت بعطف وهي تلاحظ انصياعه المتردد لكلماتها- لا ترتبك صفي ذهنك .. افتحهما الآن ..

فتح عينيه .. ببطء أخذ يتفحص المكان حوله المضاء بإنارة خافتة .. الجدران البيضاء .. العارية من اللوحات .. كلا ليست خالية تماماً .. طالعته جدارية ملصقة عليه .. لهيكل عظمي !! .. تابعت نظراته رحلتها في مساحة الغرفة المتوسطة الحجم .. لتصل أخيراً لعند صاحبة الصوت الناعم .. ملامح رقيقة وعينين بنظرات ذكية مختفية خلف زجاج نظارات طبية .. أخفض بصره ليقع على معطف أبيض وضح هيئتها وعرف بها ..

تمتم بضعف مستغرباً

- مستشفى ؟ .. أنا في مستشفى !!

رفعت يديها من على كتفيه عندما أحست باستكانة جسده وهي تقول بلطف

- لقد وقع لك حادث على الطريق -سارعت بالتوضيح عندما لاحظت تقطيبة جبينه- لا تخف لم تتعرض لسوء كبير

- لستُ خائفاً !

أجابها مستنكراً .. مستكثراً على نفسه .. شعور طبيعي داهمه على حين غرة من صلابته التي تأصلت عميقاً بطبائعه في لحظة ضعف شديد .. لماذا ساقيه لا تستجيبان لأوامر عقله .. لم لا تتحركان ! كتم تساؤله .. ضاغطاً شفتيه بقوة يمنعها بالتفوه بما يقلقه ..

- هل أفاق ؟

تنبه ناصر للصوت القادم المألوف .. الذي دخل بصمت إلى الغرفة دون أن يصدر ما ينبه لقدومه

- نعم أبي ..

أبي !! التفت برأسه إلى المتحدثين .. يتطاول ببصره إلى الرجل الذي نادته الممرضه بأبي الذي تحجبه بجسدها الذي تمركز بينهما يحاول بيأس الوصول إليه يدفعه شبه تأكد بأنه ليس غريباً عنه .. يا إلهي أتمنى أحداً أعرفه بقربي الآن ..

الألم والخوف والوحدة مشاعر تتنازع بداخله .. تتبارى دون رأفه .. أيهم سيكون سبباً للقضاء على مقاومته لذاته ..

***

بعد أسبوعين ..

صعدت درجات السلم المتحرك المعدنية تحاول أن تصل إلى الرفوف العليا حيث توجد بضع التحفيات الخزفية الدقيقة الصنع وثقالات الورق .. منذ أسبوع وبعد مكالمة وصلتها من طرفه استقرت بعمل كان مفاجأة لها .. مكتبة صغيرة قريبة من مدرستها تعمل فيها لنصف نهار فقط .. هكذا أمر هو حتى يضمن بأنها لن تهمل دراستها .. أخبرتها أم خلدون التي كانت حلقة الوصل بينها وبينه بذلك والتي تطل عليها كل يوم تقريباً والتي في بعض الأحيان تأتي محملة بوجبة طعام للغداء أيضاً .. لم يحاول ولو لمره طوال الأسبوعين الماضيين أن يتكلم معها بنفسه .. لم تكن تستطيع شيئاً سوى أن تصغي لتوصياته وتطيعها .. عليها أن تكون صادقة مع نفسها لقد أعطاها ما طلبته منه .. عمل .. نفذ لها رغبتها والتزم بوعده لها .. وأصبح لديها مورد مادي مناسب ضمن لها سد الكثير من حاجتها بعمل غير متعب .. كتمت تنهيدة .. لقد اشتاقت لرؤيته فعلاً وملت حومانها حول الهاتف كمتسولة

علها تلتقط صوته عندما تكلمه أم خلدون من هاتف المكتبة دون أن تتجرأ على أن تطلب محادثته فقط تأمل بأن يطلبها هو .. رن جرس الباب مؤذناً بقدوم أحد ما إلى المكتبة .. بددت أفكارها نافضة إياها من عقلها كغبار علق على ملابسها وأسرعت بالنزول من السلم المعدني موجهة اهتمامها لعملها والقادم الجديد .. الذي لم يكن سوى الشاب المزعج الذي واظب على ملاحقتها منذ أن عملت في المكتبة والذي ارتسمت على وجهه ابتسامة لعوب عند رؤيته لها قابلتها هي بعبوس شديد جعل عيناه تبرقان بالمرح ..

الفصل السابع عشر

البصرة ..

- آسف أمي .. لم أحب ترككم بمثل هذا الظرف لكن العمل .. تعرفين .. أ .. أمي .. تجعد جبينه هو يستمع لسيول الشكوى التي جرفت بها والدته راحة البال بعيداً عنه .. أمي أرجوك .. حاول بملل .. أعرف .. أعرف صدقيني لكن ليس باليد حيلة .. غيابي عن البيت سيمتد لفترة أطول .. نعم .. نعم .. صمت للدقائق ليقول مضطراً .. سأحاول .. تصبحين على خير

أغلق سماعة الهاتف بهدوء .. انحنى بجسده على السرير كي يأخذ وضعاً مريحاً أكثر، ما زال لا يستطيع أن يجلس باستقامة أكثر من دقائق معدودات رغم مرور أكثر من أسبوعين على الحادث .. مد يده يمسد رجله المصابة .. لم يستطِع حتى الآن الوقوف عليها وبحسب كلام الطبيب بأن الأمر طبيعي ويحتاج إلى أشهر حتى يتمكن من أن يقف ويمشي بصورة طبيعية خلالها سيكون العكاز رفيقاً له والألم كذلك .. كعهدها تجمعت الأفكار بعقله لتتلاعب بمكامن قلقه .. لقد أحسن السيد نعمان بعدم إخبار أهله بالحادث الذي تعرض له هم ليسوا بحاجة لأن يضاف إلى حياتهم قلقاً وتوتراً جديدين يكفيهم ما يعانونه الآن؛ لقد علم من والدته بأنها ستذهب هذا المساء لبيت تلك الفتاة بيداء .. تباً .. كان يحس بمدى ألمها وقرفها ممن ستلتقي

وتخطب .. لكنه الحل الوحيد المتاح ليس هنالك من بديل وغيابه عن البيت أصبح فرضاً ربما إذا بحث عميقاً بداخله لوجد بأنه غير راغب بالتواجد قريباً من أي أحد يعرفه وبأن الحادث كان الضارة النافعة له .. طرقات خفيفة عند الباب

- تفضل

رفع بصره إلى الباب وهو يتوقع القادم .. فكر عندما ظهرت له قامتها المتوسطة الطول الرشيقة دون نحافة بأنها قد هونت بوجودها من حوله الكثير من معاناته .. دون أن تعلم

- مساء الخير ناصر
- مساء النور دكتورة ..

طالعها وجهه الشاحب الصامت التعابير رغم الألم الذي تعرف بأنه يعاني بشدة بابتسامة ضيقة أحست بأنه قد أرغم نفسه على رسمها على شفتيه .. خلال الأسبوعين الماضيين تعرفت عن كثب على ناصر .. وأدركت بأن والدها محق بكل كلمة قالها عنه وبكل صفة نعته بها ..

- كيف حالك الآن ؟ أفضل ؟

وجهت له سؤالها وقد اقتربت منه متناولة معصمه بين يديها تقيس نبضه

- الحمد لله

الرزانه في صوته لم تفارقة إلا نادراً .. فقط عندما يشتد الألم فيتكلم بعصبية من بين شفتيه المضغوطتين بشدة .. ظهرت ابتسامة ناعمة على شفتيها وهي تكمل فحصه وقد وضعت السماعة على صدره .. وقد لاحظت نظراته المتفحصة لها .. والتي على خلاف المعتاد لم يتولد بداخلها

الانزعاج منها .. لم توحي نظراته إليها بشيء يثير ارتباكها ليست كنظرات قاسم المستفزة .. طبعاً لا توجد مقارنة بينهما؛ ناصر إنسان مختلف جداً بطباعه وشخصيته كأن بداخلها شيء ما يهرول باتجاه ذلك النوع من الاحتواء الذي يوحي بأنه قادر على تقديمه لمن يحيطون به

- هل اتصلت بالعم عبد الرحمن ؟

حاولت أن تستدرجه للكلام معها .. تعرف بأنه رغم تكتمه وتلبسه مظهر الصلابة متوتر جداً، ليس من السهل على أحد أن يتقبل حالة العجز التي يعيشها خصوصاً لمن يشبه ناصر -الذي علمت من والدها الذي أسهب بشرح كل ما يخصه- مسؤول عن أعمال عدة يشرف عليها بنفسه بطاقة فريدة تكاد تقسم مما سمعت بأنها سبب ذلك الحادث الذي كان سببه

الرئيس الإرهاق الذي تملك منه والذي قضى على وعيه وجعله فريسة سهلة لعوارض الطريق

- قبل دقائق أنهيت المكالمة .. مع والدتي
- أمم .. ما زلت مصراً على عدم إبلاغهم .. افتح عينيك أكثر ..

وضعت ضوءاً داخل عينيه وهي ترفع بيدها جفنه لتكمل ..

- بالحادث الذي تعرضت له

ابتعدت عنه قليلاً بعد أن أنهت الفحص لتسحب الكرسي وتضعه بجوار سريره وتستقر عليه

حرك نفسه ليعدل من نومته على السرير ليستطيع رؤيتها بوضوح

- لا داعي لأن يعرفوا ..

- أنا لا أتفق معك .. لو كنت أحد أفراد عائلتي لانزعجت جداً منك لعدم إعلامي بما حصل لك .. والدتك من حقها أن تعلم أنت ولدها ! ستتألم كثيراً بسبب قرارك هذا
- لا أظن ..

نظرت إليه وقد لاح سؤالها بعينيها قبل أن تتفوه به شفتيها

- ماذا تعني بأنك لا تظن ؟

تدارك بسرعة كلماته التي صدرت منه بشرود

- لا أظن بأنه يجدر بي إعلام اهلي بما حصل .. الأفضل أن لا أفعل
- كما تشاء ..
- دكتورة .. كـ
- وئام

نظر إليها وقد أطلّ من عينيه أثر خفيف للدهشة سرعان ما تلاشى بعد أن قالت بمرح يلونه العتب

- أنا أناديك ناصر فمن العدل أن تناديني باسمي وئام فقط
- حسناً .. لأنكِ طبيبة
- بالنسبة إليك لست طبيبة فقط أنت ابن العم عبد الرحمن معرفتنا تتجاوز جدران المستشفى ألا ترى هذا !!

ابتسم مقراً بهدوء

- نعم معك حق

ضحكت برقة لتقول والمرح زاد ملامحها المتناسقة جاذبية

- جيد بأنك أخيراً وافقتني على شيء

صمت حل بالمكان عندما فُتح الباب بقوة ليظهر قاسم من خلفه وقد ظهر العبوس الشديد على وجهه

كان صوت ضحكاتها يصل إلى أسماعه حتى كاد يصمها .. طوال أسبوعين ولم يمر عليه يوماً خلالها دون أن يراها في غرفته .. إن رؤيتها برفقته تؤجج النار بداخله .. النار التي لا يضمن بأنها ستفلت من سيطرته قريباً لتحرق الأخضر واليابس في طريقها دون اعتبار لأي شيء

- مساء الخير -بابتسامة مقتضبة وصوت يكاد يفلت منه غيظه- كيف حال مريضنا اليوم ؟
- بخير الحمد لله .. دكتور قاسم متى سأخرج من المستشفى ؟

وجه ناصر سؤاله إلى قاسم دون أن ينتبه لما يعتمل بصدر طبيبه من مشاعر متضاربة

اقترب قاسم من سرير ناصر ليأخذ طبلة المعلومات المعلقة بطرفه قائلاً وهو يراجع انتظام مرور الممرضين على غرفته وإذا ما تناول الأدوية التي وصفها له

- ما زال الوقت مبكراً للتحديد .. من الغد سنبدأ بمتابعة استجابة أعصاب ساقك للحركة

رمق وئام بنظرة ناقمة عندما بدأت الكلام

- لا تقلق ناصر ستكون على خير ما يرام .. وستخرج قريباً إن شاء الله لتستقر عندنا بالبيت وسأتكفل بالعناية بك هناك

ليرمي الطبلة من يده بعنف عندما أنهته مجفلاً إياها وتمتم بصوت غير آسف وهو ينحني لالتقاطها من الأرض

- وقع من يدي .. استقام بعدها في وقفته ولم يتمالك نفسه وهو يرى برود نظرتها إليه سوى أن يقول ساخراً .. هنيئاً لك سيد ناصر .. طبيبة بارعة عرضت خدماتها كممرضة مقيمة .. أراهن بأنك متشوق أكثر للخروج من المستشفى بعد سماع عرضها هذا
- دكتور قاسم! ..

قطب ناصر حاجبيه وهو يراقب تناوش الكلمات بين وئام وقاسم الذي على ما يبدو يكن المشاعر لها وهي ليست مكترثة له، نظر إلى عينيه اللتين تلمعان بحدة وهو ينظر إليها ليستمد منهما إحساسه بها لينظر إلى وئام بنظرة أخرى مختلفة مقيمة .. معدداً مزاياها .. فتاة جميلة .. بطباع هادئة .. دكتورة ابنه صديق والده .. ارتفع حاجبه وهو يتابع سير أفكاره، هو يدرس بنظرات ثاقبه ملامح

أنوثتها البارزة رغم هيأتها المهنية .. وهو يقول بداخله .. لمَ لا .. !! انتبه إليها وهي تكلمه وانتبه أيضاً إلى النظرات التي يحدجه بها الطبيب

- آسفة ناصر لا بد بأننا أزعجناك

أفكار كثيرة تدور برأسه وخيارات لا يعرف هل سيمضي بها أم لا .. لا يعرف إن كان للطبيب فرصة معها .. ولا يعرف أيضاً إن ! تنحنح مجلياً صوته وهو يقول دون أن يحول نظراته عن قاسم ليرد بمرح متحدي

- كلا .. أبداً .. بالعكس لقد كسرتما الملل ..

رد قاسم بغيظ واضح وقد نبذ جانباً كل برود الأطباء وعمليتهم

- جيد بأنك وجدت مشهداً كوميدياً تتسلى به ..

- كفى دكتور .. آسفة جداً ناصر .. حاولت أن تغير دفة الحديث إلى بر آمن دون أن تدري بأنها تغذي نار قاسم بالحطب .. ربما لو توفر لك تلفاز
- هذا مستشفى حكومي وليس فندق .. ممنوع ..

التفتت إلى قاسم وقالت بغضب بالغ مقاطعة كلماته

- حسناً .. يوجد من الممنوعات من لا يحاسب على تجاوزها
- أنا أحاسب .. لن يكون السيد ناصر سوى مريضاً عادياً دون أي مميزات إضافية .. كونه ابن صديق بابا لا يجعله مريضاً مفضلاً عندي
- هذا رأيك !
- نعم .

- لا بأس ..

التفتت إلى ناصر لتقول بصوت حاولت قدر استطاعتها أن يكون هادئاً غير مبالية بثورة قاسم ولا ردات فعله المتهورة مثله ..

- هل تقرأ الشعر؟

ودون أن تنتظر إجابة من ناصر الذي كان يراقبهم وعلى وجهه امتزجت تعابير مختلفة من مرح لاستغراب ودهشة ..

- لدي ديوان نزار قباني إنسان حساس مثلك لا بد من أنه يحب شعره .. سأجلب لك الديوان لتقرأه .. وبعد أن ألقت نظرة متحدية إلى قاسم أكملت بنعومة .. أو لا داعي لأن تقرأه بنفسك لا أود أن تتعب عينيك .. سأقرأ لك أنا بعض قصائدي المفضلة ..

رمت كلماتها وخرجت متصنعة الهدوء غير مبالية بفم قاسم الفاغر من شدة جرأتها والذي لم يتوانى بعد أن أغلقه عن اللحاق بها .. خلت الغرفة إلا من ناصر الذي لم يولد لديه الحديث الدائر من حوله والذي كان هو محوره سوى رغبة عارمة بالضحك لم يتأخر بمجاراتها فأطلق ضحكات عالية متسليه كان قد نسي كيف يكون صداها في نفسه

***

بغداد

- ليس مناسباً لها أمي

سحبت ولدها بعيداً عن غرفة الضيوف التي احتلها عمران ووالدته وقد تفاجأت برده

- ماذا تقول مازن .. أليس عمران صديقك ؟ أكاد لا أصدق بأنه قد جاء بصحبة والدته كي تخطب بيداء له ..

كيف له أن يخبرها بأن عمران شخص فاسد الطباع دون أن يدين نفسه .. رغم أنه ابتعد عن ذلك الدرب المنحرف الذي جمعهما معاً، لكنه لا يملك الشجاعة كي يعترف لوالدته بما انتهج من سلوك في الفترة الماضية

- أمي أرجوك .. افهميني .. عمران لن يسعد بيداء إنهم أناس من مستوى مختلف عنا .. لن تعرفي ماذا سيحدث إن تزوجت بيداء بعمران، لن يصبروا طويلاً حتى يعيروها بفقرها وبأنهم قد تفضلوا عليها بأن زوجوها ولدهم

نظرت إليه بشك لتقول

- عندما طرقوا باب البيت كانوا يعرفون بأن سكانه أناس عاديين .. وهم من جائوا كي يطلبوا ابنتي .. وليس نحن من ذهب إليهم .. مازن تكلم ما هو السبب الحقيقي لرفضك الخطبة ؟! ما تقوله ليس مقنعا أبداً

كان عليها أن تلح كي تفهم .. إن رغبة عمران بالزواج من ابنتها فرصة لا تعوض، بيداء ستجن إن عرفت بأن مازن يرفضه .. وبعد أن التقت والدته التي أبهرتها برقيها وسلوكها الحسن باتت هي أيضاً تتشبث بفكرة الارتباط هذه ..

- أمي عمران شاب طائش جداً .. الزواج إن فكر به لن يكون بالنسبة له سوى شيئاً مال لتجربته كي يلهوا فقط .. أنتِ لا تعرفي مدى تمادي عمران في اتباع رغباته

- والتي هي في محلها الآن .. الزواج .. لم يطلب الشاب شيئاً حراماً أراد الحلال !!

في المطبخ كانت بيداء تقف قرب الباب تتنصت على الحديث الدائر وقد وضعت يدها على قلبها تضغطه بقوة وكل حواسها قد دخلت حالة من الاستنفار والترقب .. ارتجفت شفتيها تريد أن تطلق صوتاً خنقها حبسه .. إنها تعاني بصمت وإن كان ما عانته من جراء طيشها واستهتارها لكن لا يمنع بأن تعاني وتتألم .. تتألم بشدة .. وقدميها تلحان عليها بأن تسارع الخطوات عند أخيها وبأن تنحني عند قدميه تطلب من أن يعتقها من نار خطيئتها بأن يدعها تبدأ صفحة جديدة بيضاء .. نعم بيضاء .. الله يغفر .. تمتمت بداخلها كأنها تتلوا عهوداً مشفوعة بأمنيات مقبولة

- سألح بطلب المغفرة فقط أفسح لي المجال كي أفعل .. كي أعود حرة .. قيود ذنبي قد علمت على روحي ووسمتني بعار لن يهون من أثره سوى كلمة موافقة تصدر منك .. أخي .. الجاهل بذنبي الباحث عن أمان لي دون أن تعلم بأنك تقف في طريق حصولي عليه ..

تحركت بخطوات مذهولة إلى داخل المطبخ مبعدة نفسها عن مرمى حديثهما الذي لم يفلح سوى في تشتيت أنفاسها لتضيع روحها في دهاليز مخاوفها .. جلست بسكون مستسلم على كرسي طاولة الطعام الصغيرة وضعت كفيها واحداً فوق الآخر على سطحها .. أغمضت عينيها .. وانتظرت رحمته هو فقط من أدركت بأنها رغم خطيئتها لن يوصد بابه بوجه تضرعها الصامت .. أليس هو من جلبه إلى بيتها ومن لاح بالتفاتة ضياء الفرج ؟ لن يمنعه أحد إن

أراد أن يتوج الفرج بالفلاح .. ولن يتمكن من أن يرده أي أحد إن شاء أن يطفئ نور الأمل ويغلق دورب النجاة ..

غريب ذلك الإيمان الذي يحل على حين غرة في نفس إنسان ربط حول عنقه حبل الأهواء والرغبات وسلم طرفه للشيطان يوقده حيث يشاء .. والأغرب منه هو ذلك اليقين الذي يزين نفوس المحتاجين .. أو ربما ليس هو الغريب .. بل من الغرابة بأن نظنه غريب .. دخيل .. على نفوسنا بينما خلقنا كي ينمو هو بداخلنا .. والغريب حقاً هو بأن ينمو سواه فينا ..

***

البصرة

لم تعرف لمَ قالت ما قالته هناك بغرفة ناصر .. كل ما كان يجول بخاطرها هو أن تصدم قاسم بكلمات لم تعرف بأنها ستكون أول من يُصدم بها .. لقد استفزها وهاجمها من دون حق .. ليس من شأنه أبداً إن كان ناصر سيسكن بيتهم أم لا .. تنهدت بانزعاج وهي تفكر .. يا إلهي ما الذي سيظنه ناصر بها و .. خطواتها السريعة كانت تلاحقها خطوات أخرى .. وصلت إلى غرفة الفحص خاصتها فتحتها استدارت كي تغلق الباب خلفها .. لا تريد رؤية أي أحد الآن ليس قبل أن تستعيد هدوئها .. دفعت الباب لترتد ناحيتها بقوة ..

- ماذا تريد ؟؟ ألا يكفيك المهزلة التي قـ

حدجت عيناه غضباً وهو يقول هادراً بعد أن دخل الغرفة و أغلق الباب من خلفه

- المهزلة كانت من صنع يديك .. ناصر لا تتعب عينيك .. أخذ يقلد صوتها وحركتها .. أقرأ قصائد لك .. ألا تخجلي .. أنتِ طبيبة محترمة كيف ترضين لنفسك أن تظهري بمظهر المراهقة المهووسة

اتسعت عيناها مشدوهة بالهجوم الذي شنه عليها

- أ .. أنا .. كيف .. التقطت أنفاسها تريد أن تجد صوتها .. كيف تجرؤ على أن تتحدث معي بهذه الطريقة

اقترب منها أكثر وهو يقول بصوت خافت يحمل في طياته تحذير واضح

- أجرؤ على أكثر من هذا .. اسمعي دكتورة .. ممنوع منعاً باتاً أن أراك في غرفة المدعو ناصر هل فهمتِ

- آآ .. حقاً .. وبأي بصفة تمنعي
- للأسف حتى الآن لا أملك سوى صفة واحدة لكن لاتتقلقي سأعمل على أخذ الصفة التي تعجبني حقاً مع الوقت .. نعود إلى صفتي الحالية مساعد رئيس قسم جراحة العظام والأعصاب .. وبصلاحيات منصبي أمنعك من دخول القسم للتسكع وقراءة القصائد للمرضى .. واضح

ارتفع حاجبها حتى وصلا منابت شعرها .. ياللصفاقة ..

- أنت لا تُصَدّق .. حسناً .. لي الحق بأن أعود أي مريض في أوقات الزيارة

كتف ذراعيه أمامه واعوج فمه قليلاً تبعه رأسه ونظرات متفحصة طلت منها ما طل من المشاعر

المتضاربه ليقول بابتسامة خبيثة مستفزة وبكل هدوء

- أنا الطبيب المعالج للمريض .. وسأمنع عنه الزيارات حتى إشعار آخر

رمى كلماته وخرج من الغرفة وقد رد لها الصاع صاعين وتركها بفم مفغور كما كان فمه قبل وقت قصير

***

بغداد ..

سحب الكرسي المقابل لها .. عليه أن ينصحها

- بيداء .. لا بد بأنك عرفتِ بأن عمران وأمه هنا في البيت .. لطلب يدك ..

لم ترفع رأسها واستمرت بتفحص كفيها الموضوعين على الطاولة وقلبها مستمر بالتضرع .. سهل الأمر .. أنقذني .. بينما مازن ظن إطراقاتها كان سببها الحياء الذي تشعر به كل فتاة تفاتح بموضوع الزواج .. أكمل ما يريد أن يقوله وقد قرر أن يكون صريحاً معها ما لم يستطع أن يعترف لأمه به سيبوح لبيداء به

- سأكون صريحاً معكِ، أرجو أن لا تلوميني على صراحتي هذه ولا تصدمي منها كل ما أريده هو صالحك أختي .. عمران شاب مستهتر بيداء .. أنا أعرفه جيداً .. قد تقولين لماذا اتخذته صديقاً لك إذاً ؟! سأخبرك بأني كنت رفيقاً له بطريق الملذات المر .. أنتِ فتاة جميلة جداً .. وعمران رآكِ من الطبيعي أن يشعر بالرغبة بالحصول عليك .. أنتِ لا تعرفين الطريقة التي يفكر بها الشاب لدى رؤيته لفتاة جميلة .. عرف بأنه لن يحصل عليها إلا بالزواج .. سامحيني بيداء .. ما إن ينال ما يريد سينبذك ويعود ليبحث عن تجربة أخرى يخوضها .. عمران لن يحبك أبداً ولن يصون كرامتك ستتعبين معه .. صدقيني

هل للألم حد يقف عنده ؟! وهل للمرارة الظامئة لرشفات من روحها أملاً بالارتواء ؟! لا تظن ..

***

البصرة ..

أمسك ناصر الديوان الذي جلبته له الممرضه بين يديه بسخرية .. هو يقرأ شعراً ولنزار !!! يا

إلهي إن الدنيا بالأشهر القليلة الماضية قد أخذته بدروب لم يظن بأن من مثله سيطرقها .. رفع بصره إلى الساعة المعلقة بالحائط .. إنها السابعة مساء .. الوقت يمضي هنا ببطء شديد زاد وقعه على نفسه التصاقه الإجباري بالسرير .. حرك الوسائد خلف ظهره وأمسك الديوان يقلب صفحاته بملل شديد .. مر ببصره على عناوين القصائد متسلياً بغرابتها .. زوجة الخليفة .. قصائد متوحشة .. ضحك بصوت خافت وهو يتخيل بأن أبيات القصيدة تلتهم قارئيها .. لقد تحولت الكلمات العاطفية إلى فلم رعب بطله زومبي بفعل تصوراته الساخرة .. استمر بالتقليب وقد وجد مرحاً من نوع غريب يتسلل إلى نفسه .. وعدتك أن لا أحبك .. أوشك أن يمر العنوان عليه كسابقاته ..

لكن الكلمات تسربت إلى داخله وتغللت إلى فكره مجبرة إياه على التوقف عندها وقراءتها .. .

وعدتك أن لا أحبك .. ثم أمام القرار الكبير .. جبنت ..

وعدتك أن لا أعود .. وعدت ..

وعدتك أن لا أموت اشتياقاً .. ومت ..

وعدت مراراً .. وقررت أن أستقيل .. مراراً .. ولا أذكر أني استقلت ..

وعدتك أن لا أكون ضعيفاً .. وكنت ..

وعدتك أن لا أقول بعينيك شعراً .. وقلت ..

وعدت .. بأن لا .. وأن لا .. وأن لا ..

وحين اكتشفت غبائي .. ضحكت ..

ابتلع ريقه بصعوبه وهو يقرأ كلمات كانت تتحدث عنه .. كأنه هو من سطرها بمشاعره

وعدتك أن لا أبالي .. بشعرك حين يمر أمامي ..

وحين تدفق كالليل فوق الرصيف .. صرخت ..

وعدتك أن أتجاهل عينيك .. مهما دعاني الحنين ..

وحين رأيتهما تمطران نجوماً .. شهقت ..

رغماً عنه تسللت الكلمات إلى قلبه ليذعن عقله لنداء ذاكرته ويشرع كلاهما بمعونة الكلمات برسم صور من الماضي القريب لفتاة بشعر أسود شاركها فرارها الأهوج وعينين مربكتين .. وشفتين أحس نعومتهما .. زفر أنفاسه المكتومة كرغباته ..

تلاحقت أمام عينيه الذكريات كما تراقصت برفقتها الكلمات فلم يستطع سوى أن يذعن لها ويشرع بمتابعتها .. بشغف

وعدتك أن لا أحبك .. كيف ؟ .. وأين ؟

وفي أي يوم وعدت ؟؟؟ ..

وعدتك أن لا أحبك .. ياللحماقة .. ماذا بنفسي فعلت ..

لقد كنت أكذب من شدة الصدق ..

والحمدلله أني كذبت

أغلق الكتاب بين يديه ورغماً عنه علقت أصابعه بين الصفحات تُعَلّم مكان القصيدة، عيناه اتجهتا نحو الهاتف .. تعلمه بوسيله تحقق له رغبة اعترته وتحثه على الانصياع لها ..

الفصل الثامن عشر

بغداد

- بيداء .. أنتظر ردك ..

صمت دام للحظات .. رفعت بعدها بيداء رأسها وقالت لمازن بهدوء

- أنا موافقة ..

لم يعرف لمَ لمْ يصدم، كأنه توقع هذا الرد من شقيقته .. لكنه رغم ذلك لم يقاوم الإصرار على حثها بأن تفهم

- بيداء هل كنتِ تصغين لما أقوله لك .. هل استوعبتِ كلامي

مسحت شفتيها بلسانها وقد أحست بالجفاف ..

- نعم .. مع ذلك أنا موافقة

ضرب بقبضة يده الطاولة أمامه ونهض واقفاً دون أن يبالي بإجفالة بيداء والذعر المطل من عينيها وهو يصرخ هادراً بوجهها

- أنتِ حمقاء .. غبية لا تعرفين ما الذي ستقدمين عليه .. عمران لا يفيدك .. المال ليس كل شيء

حمقاء .. غبية .. وأكثر .. أكثر بكثير يا مازن .. استجمعت قوتها وطبائع صلفة كانت يوماً جلدها الثاني .. ونهضت مواجهة أخيها وهي تقول

- المال .. وهل يوجد ما هو أهم منه .. المال كل شيء .. لا أريد أن أعيش فقيرة طوال حياتي .. أنا أستحق أفضل من هذا .. لوحت بيدها مشيرة إلى البيت مستنكرة .. من مثلي

لا تسكن البيوت المهترئة الكئيبة السكان ..
من مثلي لها الحياة تنطلق فيها ولا تحبس
بين جدران، أريد ان أعيش شبابي لقد
ظلمتني مازن كثيراً وبسببك تركت المدرسة
كي أفعل ماذا ولأجل ما لم يكن مهماً فقط
لأنك أردت هذا .. كفاك تدخلاً بشؤني
واتخاذ قرارات عني كي ترضي نفسك ..
ولأنك رفضت صداقة عمران تريد أن تجبرني
على رفض الزواج منه بعد أن كان رفيقك
لسنوات .. لكن هذا لن يكون .. سأتزوجه
وأنجو بنفسي وستساندني أمي بقراري هذا

أنهت كلامها وسقطت جالسة على الكرسي وقد
استهلكت كلماتها تلك كل طاقتها .. لتبدأ دموعها
بالانهمارعلى خديها .. كانت تبكي كلماتها التي
طالما رددتها لنفسها سابقاً .. تبكي طموحاً سكن
نفسها فدمر حياتها .. وحدد خياراتها .. كانت
تبكي حياة مقبلة عليها تعرف أي شقاء سينالها فيها
.. تبكي نظرة اشمئزاز طلت من عيني أخيها ..
كانت تبكي وعياً حل على فكرها فأناره متأخراً ..
متأخراً جداً !!

***

وضعت ناهدة فنجان القهوة التي تناولته مجبرة
تحت نظرات والدة العروس الغير المصون على
الطاولة الصغيرة الموضوعة بجانب الأريكة التي
احتلتها وعمران .. قاومت بشدة تفحص المكان من
حولها لا تريد أن تتوهم المرأة الجالسة أمامها
بأنها تقيم مستواهم المعيشي من خلال ذلك التفحص
.. كان كل همها مُنصب على جعل نفسها تصدق
وتستوعب ما تفعله هي هنا ! جاءت لتخطب لابنها

عمران .. كم حلمت بهذا اليوم الذي ستخطب لابنها لكنها لم تتصور يوماً بأنها ستخطب له فتاة لستر عارها وعار ولدها .. للتغطية على خطيئة وانتهاك إذا كشف عنه المستور لكان فضحية وخسارة لا يمكن التعويض عنها ..

- دقائق وتجهز بيداء

أرغمت ناهدة نفسها على الابتسام بوجه المرأة التي أشفقت عليها جهلها .. أو ربما حسدتها عليه هي على الأقل تشعر بالفرحة فابنتها قد جاء ليخطبها أناس من علية القوم .. بينما هي قد سلبت منها هذه الفرحة وأصحبت هماً لا يوصف مدى ثقله وكرب حل على العائلة بفضل طيش ولدها و استهتار العروس .. العروس رددت بمرارة .. طرقات خفيفة على الباب أذنت بقدومها .. رفعت ناهدة بصرها ليقع على فتاة شابة جميلة جداً .. طبعاً لا بد أن تكون بهذه الصورة حتى يغر ولدها ويجر رجله إلى مصيدة نصبتها له ..

- تقدمي ابنتي رحبي بوالدة خطيبك وخطيبك .. لا تخلجي هيا

كلمات رددتها الوالدة الغافلة عما يدور حولها وعما يعتمل بصدر المحيطين بها .. اقتربت بيداء بخطوات مرتجفة إلى تلك المرأة التي تذوقت قسوة كلماتها لتقف قربها

نهضت ناهدة لتواجه سارقة الهدوء الذي كان يزين حياتها المنتشلة الفرحة من قلبها وكما الأصول تعانقت المرأتان واحدة نافرة وقد صمت أنفها عن استنشاق رائحة معانقتها التي عفنتها فعلتها وأخرى تناثرت كرامتها وأحست بصغر قيمتها .. بينما

أطرق عمران بوجهه إلى الأرض .. عند سماعه زغاريد أم بيداء التي صدحت بأرجاء البيت لتتجاوز جدرانه لتصل إلى الشارع حيث كان مازن يقف متأسفاً ..

***

بين بغداد والبصرة !!

كانت جالسة برفقة ترف و حاتم في غرفة الجلوس الصغيرة ترسم لهما بألوان الباستيل أشكالاً لحيوانات يحدودنها هم بدءاً من القرد وانتهاء بالقطة العرجاء ذات اللونين الأبيض والرمادي التي تصر على تسلق حائط البيت رغم ساقها الملتوية متسللة عبر النافذة إلى المطبخ تعيث به فساداً .. هدير في الأيام الأخيرة كانت نادراً ما تجلس معهم وتفضل الانزواء في غرفة نومهما .. بينما والدتها أحست بالإرهاق الذي كثيراً ما كان يصيبها فذهبت لتأخذ قسطاً من الراحة ..

- ارسمي الآن عينا القطة ترف .. حاتم وأنت لون الحصان بينما أرد على الهاتف

نهضت من على الأرض متجهة إلى حيث الهاتف

- سديم .. سديم .. نادتها ترف .. بأي لون ألون عينا القطة

رفعت السماعة ووضعتها على أذنها وهي ترد على سؤال ترف

- خضراء .. ستكون جميلة بعينين خضراوين
- بل سوداء .. لا يوجد أجمل من العيون السوداء

أبعدت السماعة بسرعة عن أذنها .. ابتلعت ريقها وهي تنظر إلى السماعة كأنها تنتظر من محدثها

الخروج منها .. معقول .. ناصر هذا صوته .. يا إلهي هل تحلم .!! .. بيد مرتجفة أعادتها إلى أذنها عندما تناهى إلى سمعها صوته الخافت

- سديم ؟

قطب حاجبيه. متوتراً هل انزعجت من كلماته .. التي أفلتت منه دون قصد عند سماعه صوتها

- سديم ؟؟ هل ما زلتِ على الخط
- نـ .. نعم

زفر أنفاسه بارتياح عندما سمع صوتها المتردد يحدثه .. وارتسمت ابتسامة صغيرة على شفتيه وهو يقول لها بنعومة

- مرحباً ..
- مرحباً ..
- مع من كنتِ تتكلمين ؟

ألقت نظرة على الطفلين المشغولين بالتلوين وقالت

- مع ترف وحاتم .. هما يلعبان بالألوان و .. هـ .. هل عدت من السفر ؟

زادت ابتسامته اتساعاً وهو يسمع غمغمات صوتها

- كلا .. هل اشتقتِ لي ؟ .. أردف قائلاً بصدق لم يتمكن من كتمه أكثر .. أنا اشتقت لك كثيراً

رفعت يدها إلى شفتيها تكتم شهقة تريد أن تصدر منها، دارت ببصرها في المكان في الصغيرين في الجدران في الأرائك ومن خلف النوافذ تظن بأن لكل ما حولها أذان تسمع ما يقوله لها .. ولا تريد هي أن يسمع أحداً .. ليس خوفاً .. لكنها فقط تريد أن تسكب كلماته في أذنيها هي وحدها لا تحب أن يشاركها به أحد

- اشتقت لي ؟

مط شفتيه وهو يشعر بأن كل الخيوط أفلتت من يده وبأنه أصبح عاجزاً عن أي مقاومة فاستسلم

- أحمق من لا يشتاق لك .. سديم .. ضغط شفتيه ليحول الحديث إلى بحر آخر أكثر أماناً قبل أن يخوض بذلك الغير آمن .. أخبريني كيف حالك ؟
- أنا .. أنا بـخـ .. لم تستطع مجاراته فنطق لسانها بما يجول بخاطرها .. لم لا تعود إذاً .. إن .. إن كنت ..

أغمضت عينيها بعجز ليس لديها الجرأة بأن تكمل ..

- مشتاق .. أنا كذلك .. ولكني لا أستطيع أن أعود الآن ولو تعرفين كم أتمنى في هذه اللحظة أن أعود .. لـــ

قاطعته بلهفة

- لمَ .. لمَ .. لا تستطيع ؟
- هناك أشياء كثيرة تمنعني ..
- الأعمال .. لقد أخبرتني أم خلدون بأن هناك أعمالاً معلقة استوجبت ذهابك إلى البصرة

تنهد وهو يقول

- نعم .. العمل الذي جئت من أجله كلفت صديقاً ليقوم به بدلاً عني ..

بحيرة لمسها بصوتها قالت

- إذاً ما الذي يمنعك .. هل أعجبك جو البصرة .. ابتسمت بخيبة .. الجو أدفأ هناك من بغداد

جال ببصره في جدارن الغرفة الكئيبة .. قائلاً بسخرية

- حسناً .. لم أعرف جوها حتى الآن ..

زادت الحيرة بصوتها

- إذاً لماذا .. ؟

نظر إلى ساقه المصابة .. هل يخبرها ؟ .. ترى هل ستهتم إن علمت ؟ أم أنها اخذت ما تريد منه ولم يعد شخصاً مهماً عندها ولم يعد من داعٍ لإظهار ذلك الاهتمام الذي منحته إياه في صباح اليوم الذي قضوه على الكورنيش عندما طلبت منه أن ينام عند ملاحظتها تعبه ..

- لقد تعرضت لحادث سيـــ

شقهت بقوة وأسقطت جسدها على الكنبة التي كانت تقف قربها وهي تقول بعدم تصديق

- حادث .. يا إلهي .. هل أنت بخير ؟ لم تخبرني أم خلدون بشيء

تسارعت الكلمات من بين شفتيها مرتبكة وخائفة وهي تنطق بوضوح بمدى القلق الذي اعتراها عند سماعها خبر الحادث الذي تعرض له

- اهدئي .. اهدئي .. سديم .. تكلم محاولاً أن يخفف عنها خوفها عليه الذي أثلج صدره .. أنا بخير الآن
- كيف .. كيف تكون بخير وقد ..
- بخير صدقيني .. وإلا كيف أتكلم معك الآن .. اسمعيني صغيرتي لا أريدك أن تخبري أم خلدون بما قلته لك هي وأهلي لا يعرفون بأمر الحادث
- لا يعرفون !! لكن لماذا

- أرجوكِ سديم .. تكتمي على الخبر ولا تجعليني أندم لأني قلت لك
- حسناً كما تشاء .. لكن هل أنت متأكد من أنك بخير ؟

ضحك بمرح وهو يقول لها

- أقسم لكِ بأني قد أصبحت بخير ..
- ألا تشعر بالألم ؟
- تريدين الصدق ؟ لقد خف منذ سمعت صوتك .. لديك تأثير غريب علي سديم تأثير يجعلني -ضحك ساخراً من حاله الغريب- يجعلني أدور حول نفسي كالأحمق

لم تظن سديم يوماً بأن للأحزان لحظة تتجمد فيها .. حتى توشك أن تتكسر وتتناثر كأنها لم تكن يوماً عندما يلوح المستقبل ببارقة أمل

***

البصرة

دلك قاسم كتفه .. وهو يستعد للخروج من غرفة الفحص إلى البيت بعد أن أنهى الزيارة الدورية للمرضى .. وذلك بعد ساعتين من ذلك النقاش الحاد مع الدكتورة المراهقة .. تباً من يراها وهي تنظر إليه يظنها تنظر إلى كاظم الساهر مثلاً .. للأسف هو لديه هذا التأثير على النساء الذي لم يحزر سببه حتى الآن .. طبعاً هو يقصد كاظم وليس ناصر ! ربما السبب هو النظرة الكئيبة التي تطل من من عينيه .. تابع تحليله للانجذاب النسوي بمرح .. يبدو بأن تلك النظرة تثير النساء وتحفز الخيال عندهن وكل واحده منهن تظن بأنها قادرة على إخراج الرجل من كآبته .. لابد بأن وئام

واحدة منهن بوجود ديوان نزار والكئيب ناصر الذان يشيران بقوة إلى صدق نظريته .. ابتسم بعبث وهو يتوقف في طريق خروجه متطلعاً إلى نفسه في المرآة المكسور جانبها والمعلقة بإهمال على الحائط منذ سنوات .. بريق مرح ولمعان روح متوقدة ما يشع من عينيه ..

- قابل الدنيا بابتسامة مهما فعلت بك حتى تجبرها على ردها إليك

كانت هذه إحدى نصائح والده له التي لم يخالفها يوماً بل انتهجها مبدأ لحياته .. والده الذي راح ضحية هو و جميع أفراد عائلته للقصف الجوي الذي تعرضت له مدينته الفاو وقت الحرب الإيرانية العراقية في الثمانينات .. نجا هو من الموت المحقق لأنه كان ليلتها في بيت عمه والذي أصبح مسكناً له بعد الخراب الذي حل واحتلال المدينة من قبل الإيرانيين .. والذي اضطر قبل سنتين إلى تركه والاستقلال ببيت متواضع بعد أن رفض الزواج من ابنة عمه لمى وذلك على أثر وقوعه بهوى تلميذة طب حسناء تدّعي الرزانة وتلاحق ذوي النظرات الكئيبة .. اتسعت ابتسامته وهو يفكر بأنه سيتكفل بتغيير ذوقها ما إن يتزوجها .. وفي خضم أفكاره التحليلية وأثناء ابتكاره لنظريات جديدة لم ينتبه إلى الطرقات السريعة على باب الغرفة .. والتي فتحت بعدها بثوان لتظهر من خلفها وئام التي انشقت شفتيها عن ابتسامة متسلية لتقول

- لماذا تبتسم لنفسك في المرآة دكتور ..

التفت إليها بسرعة وقد باغتته حضورها لتردف هي بمرح وقد لاحظت انزعاجه

- هل وجدت في شكلك ما يضحك
- انتبهي لكلامك دكتورة

كلمها محذراً إياها من أن تتمادى معه .. ولكنها كانت قد وجدت حسب ظنها فرصة عمرها بالسخرية منه بعد أن ذاقت الأمرّين منه

- ماذا .. و ما شأني أنا .. أنت من كنت توزع الابتسامات للمرآة -ضحكت وهي تراه يقطب حاجبيه- حقاً دكتور بماذا كنت تفكر ؟

زالت التقطيبة بذات السرعة التي ظهرت بها ولاح بدلاً عنها بريق أثار توجسها بعينه ومع ارتسام ابتسامة متهكمة على شفتيه أيقنت بأنه حتماً سيشرع بالسخرية منها

- هل حقاً تريدين أن تعرفي بما أفكر؟

شيئاً بداخلها حثها على التراجع عن سؤالها لكنه العناد من تغلب على حدسها فقالت بتحدٍ

- نعم ..
- متأكدة؟
- نعم
- حسناً .. سأخبرك لكن تذكري بأنك من طلب هذا

اقترب منها بسرعة ماداً يده إلى الباب خلفها كي يغلقه

- مـ .. مالذي تفعله

تعابير وقحة لاحت على تقاسيم وجهه زادها عمقاً نظراته اللامعة التي طافت على وجهها بتمعن أحنى وجهه حتى صار قريباً من وجهها

- أنا كنـ

استهجنت قربه منها .. وقررت التراجع لا يمكن أبداً .. أبداً التكهن بتصرفاته .. لكن هل يعقل بأنه ينوي .. !!

- لا أريد ..

سارعت بالكلام وهي تحاول أن تمد يدها من خلف ظهرها كي تفتح الباب لتهرب من أمامه

لكنه أفشل هروبها بأن ثبت كفه على الباب يحول دون فتحها له

- ما هو الذي لا تريدينه وئام ..

جاءها صوته الهامس ليضاعف ارتباكها فردت متلعثمة والأفكار تتخبط برأسها يميناً ويساراً

- لا .. لا أ .. أريد أن أعرف بماذا كنت تفكر

عوج فمه مدعياً عدم الرضا

- لماذا غيرتِ رأيك فجاة .. ابتسم بخبث .. كنتِ مصرة قبل لحظات

- هكذا

ردت متوترة .. وهي تلعن غبائها

- لا .. لا .. أعطني سبباً مقنعاً .. أو .. لا تكلفي نفسك عناء ادعاء سبب .. أنا مصر بأن تشاركيني -صمت قليلاً ليردف بنعومة- أفكاري ..

اقترب منها أكثر ليقول

- كنت أفكر ...... بكِ

راقب الذهول الذي ارتسم على وجهها، لم يقاوم الضحك وهو يقول لها

- أراهن بأنكِ تتمنين أن أقول ذلك .. لديك خيال واسع دكتورة

لكن مزاجه المرح تلاشى عندما نظرت إليه بحيرة خالطها شيئاً ما أشبه بالعتب

- لماذا تفعل هذا ؟ لماذا تتحين الفرص فقط للسخرية مني ؟

تراجع خطوة إلى الوراء وقد فوجئ بكلامها فقال مستنكراً

- أنا لا أسخر منكِ ..
- هذا ما تفعله دائماً منذ التقيتك

زفر بضيق وهو يفكر بأن منطقيتها تمنع عنها النظر إلى أبعد من أنفها

- لا تقولي بأنكِ ستعودين لذكر الذراع الاصطناعية .. اعتذرت منكِ مئات المرات

هزت رأسها نافيه وهي تقول بإصرار .. وقد ضجرت .. كلا ليس الضجر ما تحس به بل التعب ..

لقد تعبت من أسلوبه الملتوي معها .. لا تعرف ماذا يريد، يقلب بتصرفاته وأقواله كل ما هو مفروغ منه .. الفوضى .. كان يستمتع بإثارة الفوضى بداخلها ليتركها بعدها ويقف بعيداً فخوراً بإنجازه

- ليس فقط الذراع .. رغم أن اعتذارك أيضاً لم يكن صادقاً .. بكل شيء .. كل موقف يجمعنا تكون سخريتك حاجزاً بيننا

ارتجفت شفتاه بخفة عندما سمع كلماتها .. وبانت في عينيه نظرة مختلفة لم ترَها وثام سابقاً أو ربما حرص هو على عدم إظهارها لها، بهدوء قال لها

- حاجزاً يمنع ماذا ؟؟ ..

أطرقت برأسها إلى الأرض وهي لا تعرف بماذا تجيب .. لأنها فعلاً لا تعرف .. أحست به يأخذ نفساً عميقاً ليقول لها بثبات

- أنا أحترمك دكتورة عليكِ ان تقتنعي بهذا .. والتعبير الأصح بأني أحب أن أمزح معك ليس لأكون الحواجز بل لأحرص على إلغائها .. فكري جيداً بكلامي

رفعت رأسها أخيراً لتنظر إليه بدهشة واضحة .. ألغى الخطوات التي ابتعادها ليقف قريباً منها ويطرح عليها سؤاله بتردد بدا جلياً بشكل أثار ريبتها

- ماذا لو كنت فعلاً أفكر بك .. ماذا لو قلت لكِ بأني مهتم بك .. ماذا سيكون ردك .. ؟؟

اعوج فمه بخيبة بعد لحظات تعشم بها برد آمل بالحصول عليه بعدما لاحظ الرفض بعينها لتخبوا الابتسامة في داخله .. على الرغم من احتفاظ شفتيه بها .. تمتم بهدوء

- .. لا بأس ..

تراجع مبتعداً عنها قائلاً يغير الحديث ..

- ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

الفصل التاسع عشر

البصرة ..

تراجع مبتعداً عنها قائلاً يغير الحديث ..

- مالذي جاء بك إلى هنا ؟

راقبته بنظرات متوجسة وهو يتكئ بظهره على الحائط بدون مبالاة تراها لأول مرة زائفة .. هناك شيءٌ ما انطفأ بعينيه

- هل سأنتظر طويلا .. ؟دكتورة؟

وصلها صوته عالياً لينبهها من شرودها به إليه

- دكتور -تكلمت بصوت أرادته حازماً- بشأن زيارة ناصر الممنوعة .. دكتور أنتَ لست جاداً .. لايعقل بأنك تكون !

ببرود شديد

- بل يعقل .. الزيارة ممنوعة .. وانتهى

تحرك من مكانه إلى حيث مكتبه يريد حمل حقيبته الصغيرة ليخرج من الغرفة .. كان يشعر بمراقبتها ومتأكد بأنها لن تتوقف عن الكلام .. لكن لا مانع من المحاولة

كان يتحرك أمامها ببرود يثير غيظها وكأنما هي ليست موجودة بالغرفة .. راقبته وهو يسير متجاهلاً إياها إلى حيث الباب يفتحه ويخرج والأدهى من ذلك بأنه يغلق الباب خلفه .. كأنه

يريد بذلك غلق باب النقاش أيضاً .. ولكنه يحلم إن اعتقد بأنها ستتركه ينفذ ما يريد على هواه

سمع خطواتها تلاحقه بالممر الشبه خالي .. ليتبعه صوتها اللاهث

- دكتور .. لحظة دكتور قاسم

ضحك بداخله ياللأدب الذي حل عليها فجأة وهي تخاطبه .. توقف على حين غرة منصاعاً لطلبها واستدار ناحيتها .. ليرتطم جسدهما معاً .. وضع يده على خصرها بعفوية .. لا يعرف إن كان إمساكه بها لغرض حمايتها من السقوط أو انتهازاً لفرصة لم يشعر برغبة لتفويتها .. راقب عيناها تتسعان لقربه منها بهذا الشكل حتى احتوت حدقتهما تفاصيله كاملة .. ليري بانعكاس صورته تعابيراً

لاحت على وجهه جعلته يسرع بإزاحة ذراعه عن خصرها ..

تمتمت بإحراج بالغ وقد احمر خديها فبدت جذابة لدرجة تسبب له الاختناق

- آسفة

ردت بصوت مكبوت

- لا بأس .. أحم .. ماذا كنتِ تريدين دكتورة

عليها أن تتكلم .. يجب أن تتكلم بدل أن تقف كبلهاء مشدوهة .. أين الكلمات عندما تحتاجها !!

بنفاذ صبر قال

- دكتورة أرجوك .. أنا متعب وبحاجة للعودة إلى البيت كي آخذ قسطاً من الراحة .. وأنتِ تعطليني عن ذلك

عصبيته أعادتها إلى وعيها وأنشلتها من حالة الذهول المربكة التي تسبب بها اصدامها به

- دكـ .. دكتور .. لقد اتصل بي والدي قبل قليل يريد أن يرى ناصر

لمحت عدم التصديق بعينه

- أقسم بأن هذا ماحدث .. يعلم بأني سأبيت الليلتين القادمتين بالمستشفى .. وبما أنه لم يرَ ناصر منذ أمس الأول .. أخبرني بأنه سيأتي مساء الغد لرؤيته .. لا أستطيع إخباره بأنك منعت الزيارة عنه هكذا بدون سبب

استمع إلى كلامها بصمت حافظ عليه لثوانٍ بعد صمتت هي

- دعينا من الأسباب التي تصرين على عدم رؤيتها .. دعيني أكمل .. يستطيع والدك زيارة ناصر

- وأنا ؟ الرفض الذي بدا بعينيه جعلها تسارع بالكلام قبل أن تؤكده شفتاه .. أرجوك والدي يتوقع مني أن أصحبه إليه .. ماذا أقول له .. بأنه تم منعي من دخول القسم ! سأشعر بالإحراج الشديد إن أخبرته

اضطر قاسم للإقرار بصحة كلامها .. لم يرد يوماً أن يسبب لها الحرج أو أن يقلل من قيمتها أمام من يهمها ومن لا يهمها .. رغم تصورها بأن هذا ما يفعله

- حسناً .. لهذه المرة فقط دكتورة وبعدها أوجدي طريقة تعلمين بها والدك

أدار لها ظهره متابعاً سيره يضم كفة يده التي لامست خصرها كأنه يحفظ بذلك أثر اللمسة من أن تتسرب بعيداً عنه كصاحبتها

***

في اليوم التالي

حاول ناصر أن يقف متحاملاً على نفسه، الألم شديد جداً يكاد يفوق قدرته على التحمل .. أمسك بالعكاز المعدني بقبضة عنيفة كأنه يفرغ ألمه بتلك القبضة .. خطوة واحدة .. نصف واحدة ليتراجع متهالكاً إلى السرير وهو يعب الهواء في رئتيه اللتان ازداد ضيقهما حتى نفرتا من أنفاسه الملتقطة .. شحب وجهه وزاد تقطيبه .. وضع كفه على صدره يضغطة بقوة يحمله نوع آخر من الألم عله

يلهيه عن تذكر ذلك الألم الآخر .. على هذا الحال وجده قاسم بعد ربع ساعة

- هل حاولت السير بمفردك ؟!

قال قاسم كلماته بانزعاج وهو ينظر إلى العكاز المرمي أرضاً .. أجابه ناصر من بين أنفاسه المضطربة

- لقد ضجرت .. لا أستطيع التحمل أكثر
- عليك ذلك .. لايوجد أمامك سوى الصبر

أعانه على الاستلقاء على سريره .. الشحوب على وجه ناصر أقلقه .. هو طبيب إن تحفظ على وجود ناصر أو حتى أي إزعاج سببه يجب عليه أن يعزله جانباً .. تكلم بمهنيه ناصحاً

- أرجو منك أن تدع التهور جانباً .. الحركة بمفردك ممنوعة .. الضغط على ساقك بهذه الطريقة يهدد بفشل العملية

النفور من وضعه والعجز الذي يشعر به فتت قدرته على التحمل

- وهل هي ناجحة أصلاً !! منذ أكثر من أسبوعين وأنا مرمي على السرير .. دون تحسن

نظر إليه قاسم وهو يستغرب تذمره .. عليه أن يعترف بأن ناصر لديه قدرة على التحمل نادراً ما لاحظها على أحد مرضاه .. لكنه اليوم يبدو على غير عادته

- سأعد لك حقنة مسكنة .. الألم هو من سبب لك هذا الضيق ..

نظر ناصر إلى الساعة .. الألم شديد لكن ..

- هل ستجعلني الحقنة أنام ؟

عقد قاسم حاجبيه وهو يرد على استفسار ناصر

- نعم .. ستنام على الأقل ثلاث ساعات وبعدها يبدأ جسدك بالاسترخاء ليزول الألم حتى صباح يوم غد .. لماذا هذا السؤال ؟

تنهد ناصر قائلاً وهو يمد يده يدلك ركبته رغم أن الألم لا يسكنها هي بل ما دونها الذي لا يجرؤ على الاقتراب منه .. تصورها جالسة قرب الهاتف تنتظر اتصاله .. لن يجعلها تعاني الخيبة

- علي إجراء مكالمة .. ضرورية جداً ..

نظر إليه قاسم متعجباً اعتراضه، هو أعرف الناس بحجم الألم الذي يعاني منه ناصر .. يرفض حقنة المسكن من أجل اتصال هاتفي .. انحنى يلتقط

العكاز من الأرض ليقع بصره عند استقامة جسده على ديوان نزار موضوعاً على الطاولة المرفقة بالسرير المعدني .. تحركت تشكيلة من الظنون بداخله وكلها من النوع الذي يجعله يأكل بنفسه من شدة الغضب ..

- هاتف !!! تؤجل علاجك من أجل إجراء مكالمة -ضحك ساخراً- جديدة فعلاً .. لم أسمعها مسبقاً

نظر إلى ناصر من تحت حاجبين مقطبين

- لم أقل نكتة ..

كتف قاسم ذراعيه أمام صدره وقد بدأت المهنية التي بدأ بها حواره مع ناصر بالتلاشي مع تذكره بأن الرجل الذي أمامه حرك هوساً بداخل وئام سعى لسنوات بأن يحركه لكن ليكون هو محوره وليس هذا القاطب دوماً

- حسناً .. هي تبدو كذلك لي .. لم أرَ مريضاً يتحمل الألم لأجل مكالمة -لم يتمالك نفسه من سؤاله دون اهتمام لرد فعل ناصر- مع من تلك المكالمة ؟
- ليس من شأنك
- ربما هو شأني وأنت من تدخل به
- ماذا تقصد ؟ لاحت الحيرة بعيني ناصر لتزول بعد لحظات بعد أن خطر بباله ما يبدو بأنه يفسر حالة الدكتور الغريبة .. هل تقصد وئام ؟! .. الغضب على وجه قاسم دفع ناصر للضحك أولاً بصوت خافت .. يا إلهي أنتَ

بالفعل تقصد الدكتورة .. ثم أطلق ضحكات عالية

- ألم تكن تتألم قبل لحظات ؟

من بين قهقاته رد ناصر

- وما زلت .. يا إلهي يا دكتور أنتَ فعلاً شخص غريب

تحرك قاسم من مكانه نحو ناصر ليس ليهجم عليه كما يتمنى لكن ليجلس على الكرسي المعدني أيضاً .. بجواره .. هناك نقاش سلمي ربما .. يجب أن يدور بينه وبين هذا المريض المتعب للأعصاب

- ماذا تقصد بكلامك هذا ؟

زال المرح من وجه ناصر لتحل الجديه محله

- أنت تحب الدكتورة أليس كذلك ؟

كرر كلمات ناصر ذاتها .. حسناً لديه حق الاقتباس .. أليس كذلك ؟ خصوصاً عندما لا يجد رداً يفحم به مريضه

- ليس شأنك !
- بل أصبح شأن لي بفضلك ..
- ماذا تعني ؟
- لقد جعلت مني طرفاً .. بشكوكك

ضحك قاسم ساخراً

- شكوك ! .. أرجوك هل تعني بأن وئام لا تهمك بشيء

كانت نظرات ناصر مبهمة لم يستطع قاسم أن يستشف من خلالها أي شيء

- ومن قال هذا ؟

- أنت مهتم بها .. كاد من شدة غيظة أن يحطم أسنانه التي كان يكزها بقوة ليكمل وقد فاقت غيرته كل منطق .. ولن أستغرب إن اشتقت لها بعد غيابها عنك وتريد الاتصال بها

ابتسامة متسلية ارتسمت على شفتي ناصر الذي لم يتواني عن التلاعب بأعصاب الدكتور الذي بالكاد يثبت على كرسيه ليقول باستفزاز

- حسناً يبدو بأن معلوماتك منقوصة دكتور .. لقد كانت الدكتورة وئام هنا صباحاً

هب قاسم من مكانه قائلاً بانفعال واضح

- ماذا قلت ؟! وئام كانت هنا
- نعم .. لمَ التعجب ؟ من الطبيعي أن تعودني ألست ..

قاطعة قاسم بعصبية بالغة

- ابن صديق والدها .. حفظتها أقسم بأني حفظتها هذه الجملة التي تعرف بحضرتك

تنهد ناصر بملل ليقول لقاسم وقد عادت الجدية لتسكن ملامحه

- اجلس دكتور .. نحن نحتاج لأن نتكلم

رمقه قاسم بضيق عندما ردد ناصر ما سبق وفكر به لكنه لم يقاوم ادعاء عدم الفهم

- عن ماذا؟

ابتسامة ساخرة ارتسمت على شفتي ناصر دون أن تصل إلى عينيه الساكنتيْ النظرات

- عن الدكتورة وئام

عض قاسم على باطن شفتيه ليضغط على نفسه أخيراً ويعود إلى الكرسي الذي تحمل ثقل جسده وتوتر أعصابه ليحتله مجدداً ناظراً إلى الرجل الذي حول فتاته الذكية إلى مفتونة بلهاء، ليكون صادقاً مع نفسه يتمنى لو كان هذا الافتتان الأبله يكون هو بطله .. كان يتمنى لو أثاره هو بها .. وليس هذا القادم الغريب

- لم لا تخطب وئام إن كنت تحبها لهذه الدرجة ؟

رفع قاسم حاجبه .. أي لعبة يلعبها ناصر

- أنت تنصحني بخطبتها ! .. أرجوك هل تظنني غبياً لأصدق ما تقول

ابتسم ناصر بهدوء وهو يدرك نوع الأفكار التي احتلت عقل الدكتور

- أنا لا أكن المشاعر لوئام، ليس النوع من المشاعر التي تظنها على أي حال ..
- هل تريد أن تقنعني بأنك لست مهتماً بها ولم تفكر بها كزوجة !

أرجع ناصر ظهره إلى الوسائد خلفه وهو يفكر بأن الصراحة هي أقصر الطرق كي يصل المرء إلى ما يريد

- لا أنكر بأني فكرت بها كزوجة .. مناسبة .. هل فهمت ما أعني .. تفكيراً عقلانياً بحتاً لم يدم طويلاً .. هناك أمور تطغى في بعض الأحيان على العقل والمنطق .. فتجبرك على الانصياع لها

لم يعرف قاسم تسمية لنوع الراحة التي أحسها لاعتراف ناصر، كل ما يعرفه بأن أعصابه المشدودة

ارتخت فجأة واستراح جسده على الكرسي .. يبدو بأن هناك من يشغل تفكير ناصر أيضاً .. حمداً لله .. لكن ماذا عنها ..

- لكن وئام ..

قطع كلماته .. لا يستطيع أن يتفوه بما يفكر به .. لكنه أدرك بعد سماعه كلمات ناصر بأن اعترافه غير ضروري

- وئام لا تحبني ربما فكرت بي بذات الطريقة التي فكرت أنا بها مجرد شخص مناسب .. والدها معجب به وحسب ما عرفته عنها هي تحترم رأي والدها وتقدس أفكاره .. فبالتالي نظرتها إلي امتداداً لرأي والدها

أشفق ناصر على قاسم وهو يلاحظ ارتباكه الواضح والحيرة التى أطلت من عينيه ففضحت توتره ..

أطرق قاسم برأسه أرضاً للحظات وقد كره عكس عينيه لمشاعره .. مشاعره تجاه وئام التي أنمتها السنين .. حتى أصبحت جزءاً منه لا يستطيع أن يتوقع بأن الحياة ممكن أن تمضي به دونها .. تكلم قاسم بما يجول بخاطره أخيراً وقد مل كتمانه لمشاعره وهواجسه

- أنا أحبها فعلاً .. لكنها لا تبادلني المشاعر ذاتها بالعكس .. معي تكون متصلبة جداً ورسمية كأنها غلفت قلبها بزجاج ملون يُمنع عنه الرؤية ..
- حسناً يبدو بأنك تعاني من نفس المشكلة

رفع قاسم رأسه وقد بوغت بكلمات ناصر ..

- ماذا تعني ؟

- إنها تكن لك المشاعر لكنها ربما لا تريد التمعن بها .. ركنتها جانباً ترفض الاعتراف بها .. إن معاملتها المختلفه معك تدل بوضوح على اهتمامها بك .. وإلا لمَ التصلب ؟!
- هل تظن ذلك ؟
- بل أنا متأكد ..

أشار قاسم برأسه إلى ديوان الشعر قائلاً

- وماذا عن هذا ؟

مد ناصر يده يمسك الديوان، قلب صفحاته وابتسامة مرح تتلاعب على شفتيه

- كانت ترد على تصرفاتك المغيظة لها بما يماثلها ..

نظر قاسم بتساؤل إلى ناصر وهو يمد إليه يده بالديوان ..

- خذه إليها وتقرب منها بما تحبه هي حتى تجبرها على الاعتراف باهتمامها بك ..

أخذ قاسم الديوان واعوج فمه

- سأبدو مضحكاً جداً .. إن حاولت قراءة الشعر لها أو حتى الادعاء بحبي للشعر
- صدقني .. هناك من بدا مضحكاً أكثر وهو يقرأ الشعر لنفسه -ضحك بمرح ساخر- على الأقل سيبدو مظهرك طبيعياً .. إضافة لذلك أنا لم أقل لك بأن تقرأ لها الشعر إنما شاركها ميولها حتى وإن بدوْتَ غير مقنعاً فهي ستعرف بأنك فعلت هذا لأجلها .. وهذه خطوة توصلك إليها
- هل تظن ذلك ؟

- نعم .. اجعلها تقتنع بصدق مشاعرك .. لا يوجد أسهل من كسب حب امرأة إن أيْقَنَت بأنك صادق معها

فجأة قلبت الموازين ومن كان غريماً أصبح صديقاً .. يجيد النصح .. كم هو رائع بأن تجد أحداً بقربك يسديك النصيحة .. يوجهك للدرب الذي يوصلك لمبتغاك بعد أن تصاب بوصلة إدراكك بعطب فتتيه منك الدورب وتتشابه الخطوات فلا تعرف إن كنت قد تقدمت خطوة أم تراجعتها .. إن كنت تحث بالمسير إلى الامام أم أن كل ما تفعله هو التقهقر إلى الخلف

نهض قاسم من مكان جلوسه متجهاً إلى الباب وبعدها بالتأكيد لقسم القلب حيث تعمل محتلة قلبه وعقله

بعد إيماءة تشجيع تلقاها من ناصر .. تباً .. لقد نسي ..

رفع ناصر رأسه حين سمع نحنحة من قاسم الذي بدا عليه الخجل فجأة

- ناصر .. أحم .. أنا ..
- ماذا ؟

اعوج فمه ساخراً من نفسه وهو يعدها بأن يجد حلاً لموضوعه ووئام ليقول أخيراً لناصر باندفاع من يريد التخلص من مما يثقل كاهله

- سأعطيك حقنة مسكنة فقط .. أحم .. لن تحملك على النوم .. لقد .. أخبرتني وئام بأنها ووالدها سيأتون لزيارتك مساءً .. وكونك نائماً حجة مقنعة كي يعدلا عن الزيارة .. آسف حقاً

لم يتمالك ناصر من إطلاق ضحكات عالية لدى سماعه كلام قاسم رغم ما عاناه من آلام من جراء غيرته لكنه حقاً شاب ذو شخصية تبعد عن المرء الملل

- لا بأس .. حقاً .. قالها من بين ضحكاته ليكمل وقد حرص على التطلع إلى وجه طبيبه ليراقب رد فعله على ما سيقوله .. أنا أيضاً لم أخبرك بأن وئام لم تأتِ إلى غرفتي بمفردها بل بصحبة أبيها

الفصل العشرون

بغداد

دخلت ناهدة إلى البيت وهي في أوج غضبها يتبعها عمران الذي كان يتذمر بصوت مكتوم وهو يفكر بأنه قد تأخر عن موعد انتهاء عملها بسبب ذهابه مع والدته و بيداء ووالدتها لشراء الجهاز .. كانت رحلة كئيبة اضطر الجميع أن يدعي فيها الانبساط كي لا تلاحظ والدتها شيئاً مما دار من خلف ظهرها ..

وضعت الأغراض التي انتقتها لنفسها أرضاً واستقرت على أول أريكة صادفتها لتجلس عليها وقد أرهقت كلياً نفسياً جسدياً

- أمي أنا خارج ..

التفت ناهدة إلى ولدها لتقول بضيق

- إلى أين ؟ .. إنها السادسة مساءً ووالدك لا يسمح لك بالخروج بعد المغيب

نظر إليها عمران معترضاً

- أمي أرجوك إلى متى سأبقى هكذا .. كأني فتاة لا يجوز أن تخرج ليلاً

نظرت إليه ناهدة بعدم تصديق لتنهض من مكانها وقد اشتعلت بغضبها

- يالك من قبيح عديم المسؤولية .. هل نسيت فعلتك ؟! ألا ترى أين كنا لتونا !! نشتري جهازاً لعروسك .. العروس التي أُجبرنا على خطبتها لستر عار الفضحية .. تحملت أن أدور معها في الأسواق وأنا أبتسم وأجامل وداخلي

يتمزق .. الكذب عمران .. دوماً كان الكذب ينطلق على لساني بشؤونك .. والوقت الذي نفرت فيه من التستر عليك وكرهت كذبي .. أوقعتنا في مصيبة لا يفيد فيها سوى الكذب والادعاء .. واحد غيرك يطرق برأسه خجلاً من هول فعلته لا يستطيع رفع عينيه بوجه أحد ..

هزت رأسها بأسف بالغ وندم يتآكلها على سلوك انتهجته مع ولدها حيث لا يفيد الندم

- أنت أناني لدرجة لا تطاق .. لدرجة تثير الاشمئزار

تهاوت بإرهاق ساقطة بجسدها حيث كانت تجلس وضعت رأسها بين يديها .. ولوم نفسها عما آل

إليه حال عائلتها لا يجعلها تحس بغير المرارة التي سكنت أوقاتها منذ أن علمت بمصيبة ابنها ..

شعرت بخطوات عمران المترددة وهو يقترب منها راكعاً على ركبيته مسنداً ذراعيه على ساقيها ليقول

- امي أنا آسف .. أسف جداً

رفعت بصرها تتطلع إلى وجهه الذي لا يقل شحوباً عن وجهها وبحثت هناك في أعماق عينيه عن بصيص أمل يعشمها بأن ولدها ربما سيتغير .. و بأن إحساسه بالذنب والذي يكسوا ملامحه ربما يتعمق أكثر ليكون ندماً يقوده إلى طريق التوبة ..

احتضنت وجهه بكفيها لتقول بيأس

- تغير عمران أرجوك .. تغير

ليحتضنها ولدها صاماً شفتيه وقد اعتقل لسانه فلم يتمكن من أن يحري جواباً لا يعرفه .. ضمت ناهدة

فلذه كبدها الفاسدة إلى قلبها الذي نعى بصمت أملها المتهالك الأركان ..

***

- ألم أخبرك بأن لا تتصل مره أخرى ..

لم تنتظر جواباً من محدثها فأغلقت سماعة الهاتف بوجهه بعنف .. ضمت قبضتها بقوة كأنها تحاول أن تثبت أعصابها المرتجفة ..

- من كان على الهاتف ؟

استدارت بسرعة عند سماعها صوت شقيقتها .. اهتزت شفتيها تريد البوح بأفكارها التي تعكس هواجس تملكتها في الآونة الأخيرة رغماً عنها .. لتقول أخيراً بضعف دون أن تتجرأ على البوح بما يعتمل بصدرها من مخاوف لا تمل مضايقتها والضغط عليها كي تنتبه لها ولا تسفه وجودها

- لا أحد مهم .. !

- لكن

بغضب ردت

- كفي عن الإلحاح سديم .. لقد قلت لا أحد مهم .. انتهى .

كعاصفة تنذر بالخطر تحركت هدير خارجة من غرفة الجلوس دون أن تبالي بالدهشة التي علت وجه شقيقتها .. أوصلتها خطواتها العشوائية إلى حديقة البيت المتواضعة .. تنهدت بضيق ساحبة كرسياً وضعته في أحد أركانها وجلست رامية بجسدها عليه دون أن تعير اهتمامها للبرد القارس الذي ناقض صباحاً يوم مشمس مر عليها ..

جو بغداد كما هو من سنين مرآة لنفوس سكانها .. تراه فجأة وقد تبلد بالغيوم أو عصف بالأتربة

كأنه يشارك الناس غضبهم وأحزانهم و تراه على حين غرة وقد سكن مجون مزاجه وهدأت انفعالاته ليلف المدينة القديمة بنسائم عذبة تطبطب على جراحهم وتهون عليهم مصابهم عندما يحل التعب على أجسادهم ويسترخون مستسلمين لأقدراهم ..

رفعت نظرها إلى السماء وأفكارها حجبت عنها رؤية عظمة خالقها .. لم تدرك بأن في لوح الأقدار ما نص على تفتيت تلك الأفكار وإجبارها ككثيرين غيرها على التطلع إليها بلهفة المضطرين لطلب النجاة من صاحبها بعد أن يعجز بنو جنسها الفاني من إنقاذها ..

***

تباً لك هدير .. رمى علاء نفسه على السرير وهو يشعر بالغيظ منها .. منذ يومين وهو يحاول أن

يكلمها وهي مصرة على رفضها له .. لقد صرحت له بما تريد .. النور ،، تريد أن ترى علاقتهما النور .. هو يريد هذا يريده بشدة لكن ليس هنا .. في أي مكان آخر .. لكن هنا !!! سيخسرها بمجرد أن يعلم أهلها وتقرر سديم أن تتكلم وهذه المرة سيجبر على مواجهتها شابة تستطيع أن تدافع عن نفسها تستطيع أن تحاججه داحضة بكلامها كل الأكاذيب التي أطلقها فيما ما مضى وليست طفلة من السهل تكذيبها ..

***

- هل سيأتي ناصر ليحضر عرس عمران

وجهت ناهدة سؤالها للحاج عبد الرحمن بعد أن أخبرها بأنه أنهى لتوه المكالمة الهاتفية مع ناصر

- كلا ..

تراجعت تغلق باب المكتب من خلفها وهي تقول بضيق

- لكن يا حاج ماذا سيقول الناس عنا عندما يعلموا بتغيبه عن حفل الزواج .. تعرف بأن أول الأسئلة ستكون عنه ..

قلب في الملفات أمامه دون أن يرى ما فيها حقاً .. كان يحاول التهرب من سماع أي خبر بشأن ذلك العرس المزعوم لكنها ناهدة من تصر أن يعلم بكل ما حدث كأنها تحاول تأهيله لتحمل القادم من الأيام .. كأنها تحاول إفهامه بأنه لم يتبقَ سوى وقت قصير ليودع البيت طهره حالما تطأ القدم الملوثة أعتابه ..

- لقد راعينا الناس وأفكارهم بما يكفي ..
- ماذا تعني ؟

- كلامي واضح ناهدة .. ما كنت سأقيم هذا العرس المهزلة لهذان الفاسدان ولولا خوفي من كلام الناس وظنونهم التي ربما تصيب فيكشف سر فضحيتنا ..

رغم معرفتها بأن عبد الرحمن محقٌ بما يقوله لم تقاوم المحاولة مجدداً

- لكن وجود نـ

أغلق الملف الذي بيده بقوة أجفلتها ونظر إليها بحدة

- دعي ناصر وشأنه ناهدة .. دعيه يعيش حياته .. بعيداً عن هذه الدوامة التي تكاد تغرقنا فيها
- أي حياة هذه .. لم يحصل أي شيء للآن .. لمَ أنت متأكد بأن ناصر سيعجب بوئام ؟

- ولمَ لا ؟! وئام فتاة ممتازة جداً .. جميلة .. وراقية تناسبه في كل النواحي وناصر ذكي جداً ولن يغفل هذا التناسب أبداً ولن أستبعد إن أحبها ..

فركت ناهد كفيها ببعضهما .. بقلق .. لتبوح أخيراً بمخاوفها

- لكن .. لكن إذا حصل ما تريد ربما .. ربما يقرر ناصر الاستقرار بالبصرة .. وئام وحيدة أبيها مؤكد بأنه سيحاول أن يقنعه أن يبقى هناك ويكون شريكاً له ..

لم يستطع عبد الرحمن أن ينكر بأن المخاوف ذاتها قد سكنته لكنه يريد أن يحصل ناصر على الأفضل، هو يستحق الافضل

- وإن حدث ما قلتِ لن امانع

شهقت معترضة

- هل حقاً تستطيع أن تتحمل فراق ناصر ! هو ولدنا نحن يجب أن يعيش بقربنا لا أن يبني حياته بعيداً عنا
- معنا لن تكون له الحياة التي يرغبها .. لقد أثقلنا عليه كثيراً ناهدة؛ كبلناه بقيود الالتزامات لسنوات طويلة .. أفضل أن أراه بعيداً وسعيداً .. على أن يكون قريباً وتعيساً .. خسرنا عمران بمدنا له الحبل .. لا أريد أن نخسر ناصر بشده قوياً حول رقبته ..

أخفض عبد الرحمن رأسه مدعياً عودته إلى الأعمال أمامه

***

البصرة

جلس قاسم بغرفة الفحص الخاصة بوئام .. لقد أخبرته الممرضة بأنها تكشف على أحد المرضى في غرفة الطوارئ وبأنها ستعود قريباً .. وذلك بعد أن رمقت الكتاب الذي يحمله بفضول حمله هو على أن يرمقها بنظرات حادة جعلتها تسارع بالذهاب .. لا ينقصه سوى ممرضة حشرية يكفيه إحراج حمل الديوان في أروقة المستشفى .. ماذا سيقول زملاءه عنه إن رأوه .. ابتسم لنفسه وهو يفكر بأنهم سيتهمونه بالعشق .. وما أصدقه من اتهام .. تحرك في جلسته متململاً بضجر .. أمسك الديوان يتأمل غلافه الأنيق ذي اللون الترابي والخط الذهبي بكلمات كبيرة تتباهي بتعريفها باسم الشاعر الكبير نزار قباني .. شاعر الحب .. ضحك بسخرية .. قلب الصفحات بدون اهتمام وهو يفكر بكلمات ناصر .. تقرب إليها بميولها .. ماذا يقصد هل يحمل ديوان شعر ويقف حاملاً ورده حمراء عند باب غرفة الفحص وروائح المطهرات تعبق بالمكان ويتلوا قصيدة تتغزل أبياتها بمحبوبته ؟! يا إلهي سيكون سخيفاً جداً ومثيراً للضحك .. حسناً إن رأى هو أحد يفعل ما تخيله لتوه لسقط من شدة الضحك .. وقع بصره على أحد عناوين القصائد .. خطاب امرأة حمقاء !! .. قلب في الصفحات ليصدمه عنوان آخر .. رسالة من سيدة حاقدة !!!! تراجع رأسه مشدوهاً .. ليتمتم بنزق وهو يغلق الديوان بملل .. أي نوع من النساء كان يعرف هذا الشاعر .. لحضات وعاود الضحك بصوت خافت وهو يتصور شكل وئام وهو يقرأ لها أبياتاً من إحدى هذه القصائد، سيرتفع حاجباها عالياً ويفغر فمها كعادتها عندما لا تستوعب ما يقوله لها .. ليعقد حاجبيه بخفة وفكرة غريبة طرأت بباله .. ماذا

لو ؟؟ .. هل سينفع الأمر ؟؟؟؟؟ صوت الباب أخرجه من أفكاره

- دكتور قاسم ؟ ما الذي جاء بك ؟

رفع حاجبه وهو يمارس عادة انتهجها منذ أن رآها وهو أن يقوم بتفحصها مبتسماً وبعدها بثوانٍ يقرر أن يجيبها

- وهل من الغريب حضوري !
- حسناً .. ليس دائماً

ترك مكانه ونهض واقفاً مواجهاً لها ليقول بنعومة

- جئت لك بديوان نزار .. رفع يده ملوحاً به .. لقد أرسله لك ناصر ..

رمقت وئام الديوان في يده لترفع بصرها إليه بشك

- ولماذا أرسله معك ؟

ابتسامة غامضة ارتسمت على شفتيه أثارت توترها .. وفكرت .. يا إلهي أرجو بأنه لم يثِر مشكلة مع ناصر

- لا أعرف لمَ لا يفعل .. كنا نتحدث قليلاً ..
- تتحدث!! مع ناصر !!

ازدادت ابتسامته واستدار ليضع الديوان على مكتبها وهو يقول بمرح

- نعم .. كان حديثاً ممتعاً جداً .. عرفت فيه لأي درجة ناصر يعزك .. لاحظ تقطيبها السريع وقد بدا التوجس بعينها .. تعرفين لم أظن بأنه يكن لك كل الاحترام والعاطفة -صمت لتتسع الابتسامة أكثر فأكثر ليكمل بنعومة بالغة وهو يرنوا إليها بنظراته العابثة- الأخوية

ليزول مرحه بالكامل وهو يلاحظ بريق ألم لاح بعينيها قائلاً بعنف وهو يقترب منها غير مبالٍ بتراجعها

- أخت .. هل فهمتِ ! ناصر لايكن لك مشاعر الحب التي تتوهمين .. قلبه مشغول بأخرى
- وما أدراك أنت ؟

زم شفتيه بقوة ليقول من بين أسنانه

- كانت كلماته تحمل هذا المعنى

هزت كتفيها بطريقة استفزته لتقول ببرود

- حقاً !! .. ماذا قال لك بالضبط لـ

لم تعرف ما الذي دهاها وهي تحاول استفزازه وإثارته بهذه الطريقة

رفع كفه يوقف استفسارتها التي استنفرت أعصابه التي أوشكت على الانفلات من قبضة سيطرته

- لست آلة تسجيل لأنقل لك كلامه نصياً .. اسمعي مني وثام .. ولا تجعلي من نفسك بلهاء غبية .. حافظي على احترامك الذي أوشك ان يتبدد

شهقت من عنف هجومه و فظاظة كلماته التي أخرجتها من وعيها فمدت يدها تدفع يده التي تشير إليها

- كيف تجرؤ على إهانتي بهذه الطريقة .. إذا كنت بلهاء غبية فأنت لـست سوى متطفل مزعج يـ

أوقف سيل كلماتها قبضتيه اللتين غرزتا أعلى ذراعيها .. وعينيه اللتين شعتا بغضب حارق أوشك أن يلسعها ليهيبهما ..

- متطفل !! -بصوت لا يشبه صوته كلمها- هكذا تريني متطفلاً ؟!

كان يقاوم بشدة رغبته بأن يهزها بقوة تجعلها تشعر بالأذى الذي تسببت به كلماتها ..

- قـ .. قاسم

راقب ارتجاف شفتيها والدموع التي ظللت عينيها .. تهدد بانهمارها في أي لحظة دون أن يبالي بهما والغضب قد أعماه

- أن أبدو متطفلاً لكِ .. أهون من أكون بلا كرامة .. واحزري من أقصد بكلامي -اقترب منها حتى حطت شفتيه بالقرب من أذنها ليهمس بغضب- لقد نجحتِ بإبعادي دكتورة .. تهانينا

دفعها عنه بقرف وتحرك خارجاً من الغرفة .. أما هي فسقطت متهالكة على الكرسي الذي كان يحتله هو قبل قليل .. وقد تساقطت دموعها أخيراً دون أن تعرف إن كانت تبكي الألم الذي حل بذراعيها .. أم جرأته .. أو كلماته الأخيرة .. هل حقاً قرر أن يبتعد !! هل ستخلوا حياتها من قاسم !!

***

وصل إلى قسمه وبعدها إلى غرفة الفحص الخاصة به وأقدامه تأكل الأرض التي تحط عليها والغضب يلون نظراته فلا يرى أمامه .. أغلق الباب من خلفه بعنف .. وجهها الذي شحب عندما أخبرها بأن ناصر يعتبرها أخته التصق بذاكرته .. مد يده يفرك

رقبته بقوة .. لقد حدث ما كان يخشاه، لقد أحبته .. تباً لها أحبته .. ضرب بكف يده الحائط القريب منه متحسراً على نفسه .. سنوات طويلة هو يحاول أن يستميلها إليه دون جدوى .. ما الذي يميز ناصر عنه لم اختاره قلبها دونه .. كان يشعر بالانهزام يتغلل عميقاً بداخله مستهلكاً طاقته الإيجابية التي جعلت منه رجلاً قهر ظروفه الصعبة وأدارها بقبضته ليكون كما هو الآن جراحاً ناجحاً -تنهد متضايقاً- وعاشقاً فاشلاً .. فاشلاً !! يا إلهي ما الذي يفكر به .. كلا .. كلا لن تلتصق به أكثر الصفات مقتاً إلى نفسه .. لن يكون شخصاً بائساً تعيساً يبكي على أطلال حب غابر .. هذا ليس قدره مستحيل أن يكون .. لن يكون قاسم إذا لم يحصل عليها لتكون له كما تمناها دوماً منذ أول يوم رآها فيه ..

حسناً وئام .. سترين مني ما لم تريه من أحد .. أقسم بأني سأجعلك تدورين حول نفسك !!

الفصل الحادي و العشرون

بين البصرة وبغداد

- أخبريني هل تدرسين جيداً .. أم أهملتِ الدراسة بحجة العمل ؟

كانت عيناها تراقبان المكان حولها وهي تكلمه بصوت خافت

- كلا .. لم أهمل دراستي ثم أن العمل لا يأخذ الكثير من وقتي .. حسناً هو عمل مريح جداً

ابتسم مسروراً بإجابتها .. لم يكن يريدها أن تعمل أصلاً لكن إصرارها دفعه للتفكير بنوع عمل لا يتعبها ولا يلهيها عن دراستها تلك الصغيرة .. صغيرته المثقلة بالهموم

- وأم خلدون هـ

قاطعت كلماته بلهفة

- ناصر أنا أود أن أتكلم معك بشأن أم خلدون

قطب حاجبيه

- ما بها .. هل تأخرت بالقدوم إليك ؟
- كلا .. كلا بالعكس .. لكن حقاً لا داعي لمجيئها اليومي إلى المكتبة ..

سكتت لتترك جملتها معلقة لا تعرف صياغة ما تبقى من كلماتها ليعالجها هو بسؤال هو نفسه غيرمقتنع به

- لا أفهم هل يضايقك وجودها ؟ .. هل أزعجتك بشيء؟

أجابته باعتراض أراحه

- لا .. بالطبع لا .. بالعكس لكني فقط لا أريد أن أسبب لها الإزعاج، لا أحب أن أتعبها معي ..

وصلتها صوت ضحكته الخافتة فاستمعت لها بشغف .. مشتاقة كثيراً لرؤيته .. كثيراً جداً

- لقد أقلقتني .. لا عليكِ أم خلدون امرأة محبة .. لا تتوانى عن تقديم العون لأي أحد - ليكمل بصوت حمل زهواً طفولياً- وخصوصا إذا كان هذا الأحد أنا .. هي مستودع أسراري رغم أن حياتي نسبياً خالية من الأسرار وأنا أعتبرها كأم لي -ليكمل بنعومة- تهتم لمن أهتم أنا به .. هل فهمتِ قصدي ؟!

بابتسامة فرح وحركة غباء انتبهت لها بعد ثوانٍ .. أومأت موافقة بأنها قد فهمت .. دون أن تحاول

التكلم لأنها ببساطة لم تعد قادرة على التفوه بحرف واحد

***

بعد أسبوع .. البصرة

- دكتور قاسم

رفع رأسه من المريض المستلقي باستكانة مستسلماً لفحص طبيبه .. لقد واجهتها تلك النظرة مجدداً .. النظرة الدخيلة على عيني قاسم لم تكن ساخرة يغيظها بها ولا باردة يستفزها من خلالها ولا عنيفة تربكها .. كانت .. فارغة .. باهتة .. كانت غير مهتمة !! وبصوت يماثل تلك النظرة البغيظة

- نعم دكتورة ؟

حاربت انزعاجاً يريد الظهور جلياً على وجهها دون أن تدرك بأن عينيها تكفلتا بإظهاره ..

- هناك مريض في الطوارئ أظنه بحاجة لأن تفحصه أنت أيضاً ..

رد عليها وقد عكف مجدداً على فحصه للمريض

- حسناً .. سآتي بعد قليل

عضت شفتيها وتحركت بتردد لتجلس على الكرسي المجاور لمكتبه وتقول بإصرار

- سأنتظرك ريثما تنتهي

التفت إليها بوجه خالي التعابير ليهز كتفيه بدون اكتراث ويقول

- كما تشائين .

أوشكت أن تضرب الأرض بقدمها من شدة الغيظ .. أو ربما ترمي عليه سجل المراجعات أفضل علها تحظى بإحدى النظرات السابقة التي تعلمها بأنه يراها فعلاً .. هذا التغيير لم تتمكن من التعود عليه على الرغم من كونها تدرك بأنها لها الفضل الأول فيه لكنها لم .. تحبه .. والأدهى من كل هذا التهذيب المفاجىء الذي حل على قاسم .. قاسم يتصرف معها بتهذيب .. !!! قاسم مهذب !!!! يا إلهي إنها نكتة العام لا بل الأعوام العشرة التاليه من شدة غرابتها !!

***

بغداد

هزت القفل المضلع الشكل جيداً تتأكد من أنه مقفل لتخرج المفتاح وتضعة في أحد جيوب حقيبتها

المدرسية الملقاة على ظهرها و التي تموه بها أمام أهلها حقيقة تركها للمدرسة .. وما إن سارت بعض خطوات ناحية الشارع كي تعبره للجهة الأخرى حتى تراجعت مرتعبة عندما توقفت أمامها سيارة سبور خضراء فجأة .. والتي فُتِح زجاج نافذتها ليطل منها وجه سائقها الشاب ذاته الذي دأب على ملاحقتها مؤخراً دون أن يعير اهتماماً لتجاهلها المتعمد لكل محاولاته

- مرحباً يا فاتنة ..

كما توقع سارعت بالتحرك بخطوات مرتبكة بعيداً عنه بعد أن ألقت نحوه نظرة وجله .. عكست خوفها .. منذ أكثر من أسبوعين وعندما دخل بالصدفة إلى المكتبة التي فتحت جديداً لشراء ميدالية لمفاتيح سيارته بدل تلك التي كسرت وقع بصره عليها ..

فتاة صغيرة ليست جميلة جداً لكن فيها شيء يجعله لا يمل النظر إليها يجذبه بقوة .. حاول معها دون جدوى كانت ترد على أسئلته بشأن بضائعها المعروضة دون أن تحاول حتى النظر إليه .. لم تبالِ به ولا بسيارته الحديثة .. لم يغرها شيء .. وهذا ما ضاعف من اهتمامه بها .. لم يتنظر طويلاً ليقرر الترجل من سيارته بعد أن أطفأ محركها ليسارع بملاحقتها .. دقائق قليلة الوقت الذي أستغرقة كي يلحق بها

- انتظري يا فتاة ..

لاحظ بعينيه المترصدتين لأي حركة تصدر منها أنحاء جسدها إلى الأمام وانخفاض رأسها أرضاً مع تسارع خطواتها لترتسم ابتسامة صغيرة على شفتيه لم تكن ساخرة ولا ماجنة بل كانت ابتسامة سرور

.. واصل سيره خلفها لا يبتعد عنها سوى خطوة واحدة ..

- هل تعرفين ؟ ليس من اللائق بأن يلقي عليك أحد التحية دون أن ترديها .. صمتها المتجاهل لم يثنيه عن ملاحقتها .. شخص غيري كان سيأخذ موقفاً منك .. لكني بالتأكيد لن أفعل .. قهقهة خافتة صدرت من بين شفتيه ليردف بعدها .. أعرف بأن الخجل ما يمنعك من التحدث إلي .. أفهم هذا جيداً ولذلك سأعذرك هذه المرة

تقدم أكثر ليسير بجانبها يجاري خطواتها بجرأة هي جزء من طبيبعته التي لم تشذبها الأصول .. حتى يجبرها على التكلم معه وقد كان له ما يريد ..

توقفت سديم فجأة وقد أيقنت بأن تجاهلها لهذا الشاب لن يجدي نفعاً

- ماذا تريد مني .. ؟ كف عن ملاحقتي

ابتسم بمرح ولاح العبث بعينيه

- لن أكف إلا عند حصولي على ما أريد .. اتسعت ابتسامته عندما ظهر الارتباك جلياً على وجهها .. ما رأيك لو نذهب إلى مكان ما نشرب شيئاً ونتكلم .. ها .. ماذا قلتِ ؟ لن تندمي صدقيني .. وبعدها أعود بك إلى بيتك سالمة بدون أن يمسك سوء!

نظرت إليه سديم وهي تصدق ما يقوله هذا الشاب بكل هدوء وثقة بأنها ستنفذ ما أراد منها وتذهب معه هكذا

- هل أنت مجنون ..

ضحك بصوت عال وهو يقول

- هل ترين دعوتي لك جنون .. لمَ ترين نفسك أقل من أن تحصلي على دعوة كهذه .. نظر إليها بتمعن وهو يتفحص هيأتها بقلة حياء .. لديك ما يجذب أي شاب لـ ..

لسعة كفها على وجنته أجبرته على قطع كلماته الوقحة .. فنظر إليها بدهشة وهو يمد يده إلى وجنته المصفوعة لا تقل عن دهشة سديم التي لم تعرف كيف واتتها الشجاعة على القيام بصفعة؛ هي سديم رأس النعامة .. تفعل ما لم تفعله طوال حياتها .. لتعود وتفعل ما اعتادت عليه وهي تمسك حقيبتها بسرعة وتسرع بالركض هاربة قبل أن يفيق الشاب من ذهوله فيرد لها الصاع صاعين

***

البصرة

بتعب شديد فتح قاسم باب بيته الحديدي ليدلف إلى داخله سائراً بالممر القصير الضيق الحدود ذي البلاط الزيتي اللون والذي تقع على أحد جانبيه حديقة مربعة الشكل قد زرعت جوانبها بشجيرات الورد المتعددة الأصناف لا يكسر هيمنتها على الحديقة سوى نخلة شامخة تتباهى برشاقة عودها وطيب ثمرها البرحي الصنف لم يزرعها هو متعمداً كالبقية إنما كانت نتيجة نواة تمر صغيرة قذفها فاستقرت على التربة التي رحبت برفيقتها فاحتوتها بشوق من وجد وليفه بعد فراق .. وكأنها تصرح بدون حياء بأنه ليس هناك من يبدع بوصف شموخها كما تفعل النخيل الباسقات ..

رمي حقيبته على أحد الأرائك في غرفة الجلوس ليخلع حذاءه أثناء سيره لتستقر فردة هنا وفردة أخرى قرب باب المطبخ الذي كان أول وجهة له حيث تقبع الثلاجة المتوسطة الحجم في أحد أركانه، فتحها على أمل بأن يجد ما يؤكل فيها ملبياً نداء معدته .. عليه أن يعترف بأن جفاءه مع وئام جعله يخسر الكثير ومن ضمن الخسائر وجبات الطعام التي كان يفرض نفسه للحصول عليها .. اعوج فمه بقرف عندما أخرج صحناً لم يستطع التعرف على ماهية ما يحتويه .. ترى ما كان ؟ قطب مفكراً للحظات .. لم يتمكن من التذكر .. فـأعاده إلى مكانه في الثلاجة .. سيخرج بعد أن يرتـاح قليلاً ليأكل في مطعم ما .. مر ببصره على المطبخ الأنيق التأثيث وأدواته التي لم يمس منها إلا القليل .. ترى هل تجيد وئام الطبخ ؟؟ يتمنى بأن تكون كذلك وحتى

إن لم تكن ستقوم والدتها بالطبخ لهم حين يتزوج ابنتها ليس من المعقول أن تتركها وهو يموتا جوعاً .. هز رأسه بحزن وابتسامة ساخرة سكنت شفتيه ربما عليه أن يحصل عليها كزوجة أولاً وبعدها يفكر بمن سيتولى الطبخ .. بخطوات متثاقلة جر نفسه إلى حيث غرفة النوم .. رمى بجسده على السريرالضيق، تعبه لم يستطع أن يبدد الأفكار التي سببت له ألماً في الرأس .. والتي محورها فتاة أحلامه ..

- كف عن اللف والدوران قاسم وصارحها بمشاعرك
- ماذا لو رفضت ..

رمقه ناصر بنظرة تأمل

- أليس من الأفضل لك أن تعرف لدربك نهاية حتى لو كانت مؤلمة
- كلا .. أفضل أن أعيش سراب أنها ستكون لي يوماً على أن أواجه برفضها
- هل تعرف ما هي مشكلتك .. أنك مصر بأنها سترفضك دون أن تفكر ولو للحظة بأنها من الممكن أن ترحب بمشاعرك تجاهها .. قاسم إن قلبها خالٍ، اعمل على شغله أنت قبل أن يسبقك آخر ..

تنهد بضيق وهو يذكر حواره مع ناصر في ظهيرة اليوم .. يسبقه آخر! .. ها .. يقتله ويقتلها وينتهي الأمر .. استدار على جنبه .. هو ليس مرتاحاً لما يحدث .. هذا الجفاء يغيظه هو قبل أن يغيظها هي كم يتحرق شوقاً للحديث معها ومناوشتها الكلمات لكن هذا لم يعد يفيد بعد الآن

رغم أنه يمتعه جداً ويعصبها جداً جداً، لكنه يريد المزيد يريدها أن تأتي إلى هنا تحتل أخيراً هذا البيت الذي أثث كل ركن فيه وهو يفكر فيها .. حدق بالحائط أمامه .. وهو يفكر بالغرفة التي تقع بجواره .. الغرفة التي أقسم بانه لن ينام فيها حتى تسبقة خطوات عروسه إليها .. عاوده الخاطر ذاته لا يعرف هل يستسلم له أم ينبذه .. (اشغل قلبها أنت) .. ألحت جملة ناصر عليه، يحفزه الخاطر كي يصغي لهما معاً

***

في اليوم التالي

فتحت وئام باب غرفة الفحص تتبعها الممرضة ..

- كما قلت لك .. الرجل العجوز بحال خطرة يحتاج إلى عناية متواصلة .. تناوبي وزميلة لك التواجد بغرفته لا تتركاه ولو للحظة بمفرده وأنا سأكون قريبة إن احتجتماني بشيء
- كما تشائين دكتورة ..

ابتسمت وئام بلطف للممرضة

- شكراً لك .. خذي راحتك
- بالإذن

أبعدت وئام سماعة الفحص من على رقبتها .. وهي تفكر بضيق بشحة الأدوية التي يحتاج المرضى لها وخصوصاً مرضى القلب .. الكميات التي تزود بها المستشفى من قبل الحكومة والتي تحصل عليها من جراء اتفاقية النفط مقابل الغذاء والدواء تافهه جداً .. نصف هذه الأدوية إن لم يكن ثلاثة أرباعها يذهب للسوق السوداء والمرضى المساكين ذوي الدخل المحدود .. عليهم أن يكتفوا بما يحصلوا عليه من دفتر حصص الأدوية .. ضحكت بمرارة؛ كل شيء في بلدها يوزع بالحصص إلا الألم فإنه يُمنح بسخاء !!

جلست على الكرسي خلف مكتبها المعدني واضعه رأسها بين يديها من شده الإرهاق .. والعجز عن تقديم العون لمرضاها يضاعف إرهاقها .. ويشعرها بالإحباط .. الشديد .. هبطت برأسها على سطح المكتب لتنزلق يداها معه دافعة سجل المراجعات أرضاً، تأوهت بضجر ورفعت رأسها منحنية بجسدها كي تلتقطه من حيث استقر ليقع بصرها على قصاصة من الورق قديمة ممزقة

الأطراف .. قطبت حاجبيها ومدت يدها لتلتقط أصابعها الورقة التي بدا من هيأتها بأن هاربة من سلة المهملات متجاوزة السجل الملقى بجانبها .. رفعتها إلى عينيها التي مرت بسرعة على الأحرف المضحكة الرسمة .. لتعاود قراءتها بتأني وليرتفع حاجباها اللذان كان قاطبين منذ لحظات ليصل كعادتها عندما يثيرها أمر ما أو يستفزها إلى منابت شعرها وهي تتلوا ماورد بها بصوت عكس ذهولها

(في حديقة منزلي شجيرات لأنواع من الورود وأصناف من الزهور منها الجوري ومنها القرنفل كلها زرعتها بيدي وأنا أفكر بكِ .. أنتِ !! هل تعرفين ما أنتِ بالنسبة لي ؟ أنتِ كعبق الجوري ينقي أيام حياتي من حزنها وكنفحة من عطر

القرنفل تداعب مشاعري .. فتنتعش روحي .. ليتكِ فقط تشعرين بي)

***

بغداد

راقبت أم خلدون بعينيها الثاقبتين سديم التي بدت متوترة على غير عادتها ..

- هل يوجد ما يقلقك بنيتي ؟

التفتت سديم إليها لتقول بهدوء ظاهري

- كلا .. أبداً ولم القلق !

رمقتها أم خلدون بنظرة متشككة ردتها سديم بابتسامة عريضة لم تقنعها .. لتعود وتدير رأسها باتجاه باب المكتبة وهي تشاغل نفسها بترتيب بعض المجلات عن التطلع إلى الشارع .. مع كل رنة

جرس يوشك قلبها على التوقف وهي تظن بأن القادم هو الشاب الذي صفعته يوم أمس .. رغم أنها قد قمعت الخوف الذي أوشك أن يمنعها من الحضور إلى العمل بشجاعة لكن القلق من مواجهة الشاب مرة أخرى يسكن تفكيرها ويشد أعصابها والأدهى من كل هذا هو إصرار أم خلدون على البقاء برفقتها اليوم طوال فترة العمل مما يحملها على التظاهر بأنه لا يوجد ما يقلقها رغم إدراكها بأنها قد فشلت فأم خلدون لم تنفك عن مراقبتها .. والأهم من كل ذلك هو خوفها من أن يعلم ناصر بأمر هذا الشاب ..

لم تحبذ أم خلدون ما تفعله .. لكن هناك شيء يحدث لسديم ولا تريدها أن تعلم به بل وتصر على إنكاره .. وهي بخبرة من لديها أربعة أولاد استطاعت أن تميز هذا .. وهذا مادفعها لملاحقة سديم دون علمها غير مبالية برد فعلها إن علمت .. الفتاة أمانة في عنقها أمانة أصبحت تدرك مدى أهميتها لناصر .. ابتسامة حانية سكنت شفتيها عندما تذكرت نبرة صوته المشبوه بالخجل وهو يطلب منها أن تعتني بالصغيرة كما يدعوها .. نادراً ما كان يتفوه باسمها وكأنه بعنتها بالصغيرة يضع لنفسه حداً كي لا يتجاوزه، من السهل عليها أن تحزر ما يجول بفكره وما يجيش بصدره من هواجس وكيف لا تستطيع وهي التي احتضنت طفولته المثقلة بالأوامر منذ كان بالعاشرة من عمره والتي حاولت بكل جهدها أن تكسر قساوتها بعاطفتها وحنانها اللذان لم يضيعا مع ناصر الذي اعتبرها كأم بديلة .. أخرجها من أفكارها التي كانت تتصفح الأيام الماضيات بروية صوت سديم

ركزت بصرها جيداً لتهتف بذعر وكفها تضرب صدرها بقوة

- يا ويلي

الفصل الثاني والعشرون

بغداد

هي تمثل تحدياً صارخاً له لم يستطع مقاومته بل لم يرغب أصلاً بالمقاومة !! ليست الأولى التي ترفض أن تجاريه في رغباته لكن الفرق يكمن أن من رفضنه سابقاً كن قد أدركن بأنهن لسن سوى دمى يعبث بها ويرميها حين يملها، فلِمَ يرغبن بلعب دور قد حددته روحه العابثة لهن ؟! لم يعترض؛ هذا حقهن .. لكن هي لم تنظر إليه حتى !! لم يشغل ولو حيز بسيط في فكرها وهذا ما جعل منها حالة مختلفة .. لا ينكر بأن انجذاباً عميقاً يشده إليها وبكفها الذي حط على وجنته في صفعةٍ أذهلته

.. سكنت تفكيره أكثر .. لم يكن يتوقع هذا التصرف من فتاة الخوف يكون ظلاً لها ..

وأخيراً لمح هيأتها المتوجسة .. راقبها وهي تسير بخطوات هادئة من مكانه في سيارته التي ركنها في شارع جانبي يضمن له رؤيتها قبل أن تراه وابتسامة متوعدة حلت على شفتيه لتوضح مسار تفكيره .. قد حان وقت العقاب

ضغط دواسة البنزين بقوة لتهدر السيارة منطلقة إلى حيث سديم التي التفتت إلى الوراء على أثر سماعها صوت المحرك الهادر .. استقلت الرصيف بسرعة وقد أوشكت السيارة التي رُكنت بمهارة فائقة حيث كانت تقف مشدوهة على صدمها وقد تجمدت أطرافها فلم تستطع التحرك .. فُتِحَ الباب

بالسرعة ذاتها ليقف أمامها الشاب ذاته الذي رمى نظاراته إلى داخل السيارة باستهتار واضح

- بيننا دين لا أحب تركه في عنقي

وبدون أن يمهلها فرصة لفتح فمها سارع بإمساك ذراعيها ساحباً جسدها الذي أُخذ على حين غره ليرتطم بجسدِهِ المتحفز بقوة .. حرك إحدى يديه من على ذراعيها لتزحف إلى خصرها ويمنع عن سديم أي منفذ للتملص من أحضانه .. خمول حركتها الغير متوقع جعله يطمع بالمزيد الذي لم يكن يهدف إليه .. لم يكن في نيته سوى إخافتها ورد صفعتها بطريقته الخاصة لكن ذلك التراخي الذي شعره لوح لرغباته بلون احمر أعمى عينيه .. فازدادت جرأة يديه

هناك في أعماق أعماق وعيها صوت ضعيف يريدها أن تسمعه دون جدوى .. الماضي بعباءته السوداء قد لف المكان .. وعلاء يحاصرها .. لـــ .. عـ .. .بـــ .. ـــة كطرقات مطرقة على وعاء نحاسي .. بدأت الأحرف تطرق دماغها الذي أوشك أن ينفجر من شدة الضغط .. همست دون وعي منها

- علاء ....
- عمران .. اسمي عمران فاتنتي

لم يصلها صوت الحاضر الغائب وكيف لها ذلك والماضي الحاضر هو الذي هيمن على حواسها ! التصقت بالجدار وهي تحاول الهرب، علاء لم يسمح لها .. علت صرخاتها التي تاه صداها في البيت الواسع الشبه خالي .. وضع كفه بضغطة على فمها بقوة .. قصيرة القامة نحيلتها كأي طفلة في

الحادية عشر يمكن التغلب عليها بسهولة أو هكذا ظن .. أرعبتها نظرات عينيه الحمراوين .. لكنها لم تكف عن المقاومة .. لم تكف يوماً .. قدرتها على التملص منه دوماً كانت تنجيها دون أن تعرف حقاً، من ماذا تحاول هي أن تتملص ؟ منه ؟! ومن من تنشد النجاة ؟ لكن فقط هناك ما يثير ريبتها به .. بدأ الصوت يزداد حدة وتعنيفاً .. يريد إجبارها العودة إلى الحاضر المتلاشي إزاء قوة الماضي .. خطوات راكضة سريعة على الأسفلت الأسود وصوت يعلو

- اتركها

لم يشبه بحدته صوتها وهي تصرخ به ماذا يفعل .. وكأن وجودها طمس احمرار عينيه، تركها تسقط أرضاً شبه فاقدة الوعي من شدة خوفها وقد مر

جسدها أثناء سقوطه بحافة شباك النافذة المفتوح الحاد ليترطم كتفها به بقوة مخلفاً أثراً ما زال عميقاً بداخلها .. بنظرات غائمة ووعي شبه غائب سمعته يلتفت إلى والدته مطلقاً أعذاراً كانت هي أكثر من مستعدة لتصديقها

- كانت تريد القفز من النافذة .. فأمسكتـــــــ ..

فورة الغضب التي أثارتها ذكريات عجزها السابق عن تفنيد كذبات روجها علاء صنفتها بنظر العائلة كطفلة موهومة أزاحت عباءة الماضي المؤلم لتعي حاضراً وقد لاح في ذهنها استعداداً لسماع ذلك الصوت في أعماقها بأنها لم تعد ضعيفة كما كانت لتتحرر روحها من ضغط الأيام الماضية ويشتد جسدها ويتصلب بعد تراخي حركة يدها بقوة وقد

وعت أخيراً لما يدور حولها لتدفع جسد الشاب الذي خنق أنفاسها وأزاح ستار الزمان الذاهب بقوة

أحس عمران بتصلبها، حاول أن يقضي عليه ليفاجَأ بدفعة قوية أبعدته عنها .. نظر إلى وجهها المحمر كانت تشهق أنفاسها كمن يصارع أمواجاً عاتية بحثاً عن متنفس هواء ينقذه .. رفع يده عنها بسرعة وقد هاله التعبير الذي ارتسم على وجهها .. تركيزه عليها تشوش لدى سماعه صوتاً غاضباً ناهراً أتاه من خلفه

- دعها فوراً .. أيها الفاسق

التفت إلى مصدر الصوت ليرى من صاحبته .

- أم خلدون !!!! مـ

ضربات عشوائية الهدف طالت جسده لم توجعه بقدر ما أربكته، مصدرها قبضات الفتاة المكورة بعصبية

- ماذا تفعل ؟ اتركها فوراً .. ألا تخاف الله !!

وصلت أم خلدون عندهما تسبقها كلماتها، لم يعرف إن كان الحظ من جلبها لتمر من هذا الشارع بالذات في الوقت من الظهيرة أم شيء آخر ؟!

كانت تقاوم سنين عمرها المتقدمة وهي تسارع بخطواتها تلتهم الأرض الإسفلتية التهاماً .. قد أوشك قلبها على التوقف عندما رأت السيارة وهي تتجه نحوه سديم .. ليعاود الدق بعنف زائد عندما رأت عمران يترجل منها ويسحب الفتاة الذاهلة إليه

فجأة دفعت بعيداً عنه لتقف امرأة عرفتها بعد لحظات استطاعت بها أن تميز ما يدور حولها

- ألم يكفِك ما فعلته ؟! أم أنك مصر على جلب المصائب أينما تحط قدماك !!

سمعت صوته وهو يتلكأ بالإجابة إزاء هجوم أم خلدون التي توجس قلبها بأنه سينالها منه الكثير .. الكثير .. هطلت دموع متأخرة الانحدار على خديها لسنين مضت عندما التفت إليها أم خلدون .. متى رحل ؟ وكيف ؟ لم تشعر به وكل حواسها تريد الهرب من مهامها !! أغمضت عينيها من جراء نظرات أم خلدون التي لم تحاول أن تفرزنها .. محضرة نفسها لسيول من الاتهامات تطلقها امرأة تكون أقرب الناس إلى حلمها ساكن البصرة الذي حسب ما ظنت بأنه يوشك على الاندثار كبقية الأحلام التي تعشمت لسنوات تحقيقها

شهقت بقوة عندما حطت ذراع أم خلدون على كتفها لتجذبها إلى أحضانها بحنو وصوتها يصلها عذباً متفهماً صافياً من قبح الإدانة الظالمة !!

- لا عليكِ يا ابنتي .. إنه مجرد شاب فاسد .. لا عليكِ

زادت شهقات سديم وذرفت دموعها بسخاء وهي تحوط أم خلدون بذراعيها مندسة أكثر بين أحضانها تلتمس أماناً وجدت أخيراً مرفأً له .. وقلبها يهمس لها بخفوت مطمئناً إياها بأنها لم تفقد ناصرها .. للآن .. !!

***

لمست بأصابع مرتجفة البياض اللاهث لفستان عرسها الرائع التصميم .. وقفت أمام مرآتها تتأمل جمالاً بهر كل من لاح له .. حُسْناً امتلكته و ظنت

بأنه سيوصلها إلى حيث القمر لتستقر فيه لكنها كانت مخطئة .. كم كانت مخطئة .. وقد خسف بها غرورها الأرض فأبعدها بعيداً .. بعيداً جداً عن القمر والنجوم وأسكنها أرض الندم الجرداء التي سبقها إليها الكثيرون ممن اعتلتهم ميولهم فقادتهم إلى حيث هم .. إلى العدم !!

- لم أظنك ستكونين أقل جمالاً مما أنتِ عليه الآن يا ابنتي

مسدت والدتها الثوب على جسدها تلاحظ بعين ناقدة التعديلات التي أحدثتها الخياطة على قياسه ..

- بعد أيام قليلة ستكون ابنتي عروساً تسرق أنفاس من ينظر إليها -ضحكت بمرح لتقول بصوت متآمر- وأولهم زوجها الشاب

كانت بيداء تتلقى تعليقات والدتها التي تكاد ترقص جذلاً كالصنم بدون أي رد فعل يذكر .. وأصابعها ما زالت تمر بشرود على قماش الفستان الناعم الدقيق التخاريم .. ونظراتها تتركز على بياضه الناصع الذي بدا لها وكأنه قد طاله الدنس ما إن لف جسدها الذي فارقه طهره

***

- خذي صغيرتي .. اشربي

تناولت سديم كأس المياه من يد أم خلدون التي جلست بجوارها على الكنبة الطويلة ذات اللون الأخضر الفاتح والتي تحتل جانب غرفة الجلوس في بيت أم خلدون التي أصرت على إحضارها إليه كي ترتاح قليلاً كونه أقرب من بيتها

- شكراً

تمتمت سديم بصوت خافت وهي تخفض رأسها أرضاً، أخذت أم خلدون الكأس الفارغ من يدها لتضعه على الطاولة المستديرة و التي تتوسط الغرفة لتعود إلى الفتاة الشاحبة التي كانت تحاول السيطرة على ارتجاف جسدها دون جدوى

- هل أصبحت أفضل ؟
- نعم .. شكراً لكِ

ربتت أم خلدون على كتف سديم قائلة بلطف

- لا عليكِ يا ابنتي .. سأكلم ناصر و ..

أرجعت سديم رأسها بقوة إلى أم خلدون لتهزه باعتراض عنيف قائلة بصوت متوسل

- كلا .. كلا .. أرجوكِ لا تخبريه ..
- ما الذي تقولينه سديم .. يجب أن يعرف ناصر بما حدث

عضت سديم شفتيها بقوة، أم خلدون لا تعرف بأن ناصر طريح الفراش في المستشفى هذا إضافةً لكونها لا تضمن رد فعله إن عرف بما حدث خصوصاً بعدما علمت من أم خلدون بأن ذلك الشاب يكون أخاه الأصغر .. يا إلهي لمَ الأمور تتعقد دائماً !!

- خالتي .. أنا بحاجة إلى العمل و

أمسكت أم خلدون كف سديم تقاطع كلماتها بضغطة عليه وهي تقول بتأني

- الأمر لا يتعلق بكِ فقط يا ابنتي .. الشاب الذي تعرض لكِ هو أخوه .. من حقه أن يعلم صدقيني يا صغيرة التكتم في بعض الأمور يفاقم من حجم المشكلة .. هل تدركين لولا رحمة الله الذي هداني لأتبعك ما كان قد

حصل .. عمران ليس له حد يلتزم به، لا أستبعد إن سحبكِ إلى السيارة و أخذك بعيداً

شحب وجه سديم أكثر عند سماعها كلمات أم خلدون .. لا تظن بأن عمران سيتمادى معها إلى هذه الدرجة، كلا مؤكد لم يكن ليفعل !! هو أخ ناصر لا يمكن أن يكون كما وصفته أم خلدون !! فكرت بضيق؛ كم تكره أن يعلم ناصر وعائلته بحادث اليوم .. ربما سيقال بأنها فرقت بين الأخوة وسببت المشاكل بينهم كما قيل عنها سابقاً بأنها قد فرقت العائلة .. لماذا ؟ لماذا دائماً تجد نفسها غارقة في خضم أحداث سببتها مواقف كانت دوماً تتجنبها ؟؟ لو لم تصفعه لما حدث ما حدث .. كان سيتركها وشأنها و ..

- أرجوكِ لا تخبريه .. أتوسل إليكِ خالتي .. لا أريده أن يعلم ..
- لكن ..
- أرجوكِ خالتي .. لن أذهب للعمل لعدة أيام -صمتت لثوان تلتقط فيها أنفاسها، وتكمل بعزم مشوب بحيرة- سأغير دربي فلن يتمكن من لقائي ..

أسكتتها نظرة عتب سكنت عيني أم خلدون التي قالت لها بلطف

- لن يراكِ في الغد .. لكنه ربما سيراكِ بعده وإن لم يكن هو سيكون هناك غيره .. هل ستواظبين على تغيير دربك في كل مرة ؟! -رفعت كفها تمسح خد سديم الرطب- لن تصلي يوماً إلى ما تريدين إن استمررتِ

بالهرب من دون مواجهة .. لن يكون
لدروبك التي تستمرين بتغييرها من نهاية
.. بل لن تكون دروب أصلاً بل ستكون متاهة
أنتِ دائمة الضياع فيها .

***

البصرة

تململ ناصر في مكانه متأففاً، إنها الساعة العاشرة
وهي لم تتصل للآن .. أمسك سماعة الهاتف ليردها
مكانها .. كلا .. الاتفاق أن تتصل به هي .. لا
يريد أن يسبب لها المشاكل باتصاله هو، ربما
سترد عليه شقيقتها أو والدتها .. ماذا سيقول ؟ هل
يطلب محادثتها بكل وقاحة أو يغلق الخط
كالمراهقين !! فرك جبينه بضيق .. ليس أمامه
سوى الانتظار .. كم يكره الانتظار !!

***

لم يرها منذ الظهيرة عندما دخلت إلى غرفة
الفحص التي تخصها بعد أن تسلل منها خارجاً بعد
أن وضع القصاصة بمكان لا يمكن إغفاله بعد دقائق
.. الدور الذي يعكف هو على تمثيله يكاد يخنقه،
يريد أن يراها أن يشاكسها -ابتسم بخبث- أو أن
يصطدم بها بالصدفة .. لا يريد الجلوس هكذا
كالصنم .. يخطط .. هاا .. يخطط !! هو لا يجيد
التخطيط أبداً .. نهض من مكانه مسرعاً متجهاً إليها،
لن يفعل شيئاً فقط يود أن يعرف رد فعلها على تلك
القصاصة .. ترى هل يوجد احتمال ولو واحد
بالمئة بأنه خطر ببالها عند قراءتها لها ؟؟ربما
يلمح بعينيها ما يريحه .. كم يتمنى ذلك .. وصل
تقريباً إلى حيث الممر الفاصل بين قسم العظام

والقلب ليسمع وقع أقدام مسرعة .. وقعاً يعرفه جيداً

كانت تسير بخطى مسرعة في ممرات المستشفى تقصد غرفة ناصر الذي أرسل لها أحد الممرضات يطلب رؤيتها .. لم تعرف ما يريد لكن طلبه في هذا الوقت يثير فضولها لدرجة .. كبيرة جداً .. و ..

اصطدامها بجسد رجولي أخرجها من أفكارها، رفعت بصرها بسرعة تريد أن تتأكد من هوية صادمها

- آسفة دكتورة .. لم أكن منتبهاً

بابتسامة خفيفة وخيبة إدراكها هوية من صدمها طلت من عينيها

- لا بأس دكتور حامد .. لا عليك

ضحك الدكتور حامد وهو يقول

- الركض طوال النهار في أروقة المسشتفى وممراتها سـ
- يسبب حوادث كثيرة منها الممتع ومنها المزعج

التفت كلاً من وئام وحامد إلى الدكتور قاسم الذي ظهر فجأة

- لا عليك دكتور لا داعي للانزعاج، الدكتورة وئام لم تقصد الاصطدام بك -رفع بصره يجيل النظر في الممر الواسع نسبياً والمضاء بطريقة ممتازة ليكمل ساخراً- ربما يجدر بنا الطلب من الإدارة توسيع الممر وإنارته بصورة جيدة تكفل للأطباء المرور السليم

بدون حوادث تسببها الطبيبات الـ ..

سارحات

قبضت وئام على كفيها بقوة تشدهما بعصبية واضحة .. بينما أدار الدكتور حامد بصره بين الاثنين ملاحظاً التوتر الذي تصاعد بالأجواء ليفضل الانسحاب بهدوء

- بالإذن

ابتسامة مقتضبة وجهها قاسم للدكتور حامد زالت ما إن ابتعد ليلتفت إلى الدكتورة التي برز غيظها من عينيها خلف زجاج نظارتها ليستبدلها بأخرى ساخرة وهو يقول

- هل تعمل ؟

رفرفرت جفينها بارتباك سببه سؤاله الذي لم تفهمه

- ما .. ما الذي تقصده؟

زفر بضيق وهو يقترب منها مشيراً برأسه إلى وجهها

- النظارات التي تضعيها هل تعمل حقاً .. أم ماذا ؟

ووسط دهشة أغرقتها، مد يده لينزع النظارة من على عينيها .. وهو يقول بكل برود ..

- لا أظن بأنها تعمل، ربما يجدر بكِ أن تستبدليها .. وإلا كيف لم تري رجلاً بحجم الدكتور حامد يمر أمامك دون أن تريه فتصدميه

قالت معترضة

- هو من صدمني ..

مدت يدها تحاول أخذ النظارة من يده ليسارع بإبعادها عنها .. بضيق قالت ..

- دكتور قاسم كف عن مزاحك هذا وأعطني نظارتي

عوج فمه قائلاً بسخرية

- من قال أني أمزح .. أقترح عليكِ العدسات أفضل بكثير ..

صمت ليقول بعد ثوان تفحص ملامحها فيها بدقة مستفزة ..

- هل تعرفين .. خذي ..

مد يده إلى كفها يضع نظارتها فيها ويغلق عليها بقوة ..

- لو وضعتِ مئة عدسة ستبقين عمياء لا تبصرين من هو أمامك

رمى كلماته تاركاً كفها مستديراً ينوي الذهاب .. راقبته وهو يبتعد، مدت كفها ذاته إلى جيب معطفها الأبيض حيث وضعت القصاصة لتقبض عليها بقوة وهي تقول بصوت متحدي

- ربما لا يوجد من يستحق النظر إليه

توقفت خطواته وأحست بتصلب جسده الذي استدار متجهاً نحوها بحدة .. لتدرك بيأس بأنها كانت تتلاعب باللهب

الفصل الثالث والعشرون

البصرة

راقبت تراجعه نحوها بقلب وجل لكن إصرارها على انتزاع اعتراف منه ثبت أقدامها محلها بعد أن ساورتها رغبة بالهرب منه .. كانت عيناه تعكسان غضباً عميقاً، وشفتاه المزمومتين بقوة تبشران بكلمات كالحمم اللاهبة ستقذف بوجهها قريباً

وقف بقربها تماماً حتى كاد جسده يلامس جسدها، لم يراعِ ارتباكها لقربه ولم يهتم به بتاتاً

- ماذا تقصدين بكلماتك هذه؟

صرخ بوجهها عندما لم تنطق شفتاها بكلمة بينما عينيها كانتا تتفحصانه دون أن ترمشا

- تكلمي.

- لا تصرخ بوجهي

ازداد تقطيبه وهو يقول لها بصوت عكس مدى حنقه

- أصرخ !! تفحين كلماتك المسمومة في وجهي دون أن تبالي بوقعها علي وتعترضين حضرتك على صراخي !!

انكمش جسدها مع ازدياد اقترابه منها لتنتفض بذعر عندما سحبها إليه بعد أن أمسك كتفيها بقوة وعيناه تأكلان تفاصيلها ليقول بصوت مهدد شبه هامس

- احذري أن تفقديني صوابي وئام .. صدقيني لا يفصلني عن الجنون سوى شعرة، كلمة حمقاء أخرى منك وتنقطع

راقب بوله ارتجاف شفتيها وتنفسه يزداد حدة، وقد تمادى متوغلاً في التفكير باختراق الممنوعات ليعيده صوتها المرتجف إلى وعيه الذي كان يرحب بفقده

- وماذا عنك ؟ لماذا تعطي نفسك حق التفوه بما شئت من الكلمات

بصعوبه رفع عيناه من مكان تركيز بصره إلى عيناها اللتان لمعتا بإصرار مريب

- ماذا تعنين ؟
- كلماتك القاسية التي لا تفتأ إسماعي إياها، اتهاماتك لي، هل فكرت ولو للحظة ما قد يفكر بي الدكتور حامد الآن وأنت تتهمني بتعمد الاصطدام به ؟ وقبله ناصر وحدة تصرفاتك بحضوره .. هجومك المستمر علي

بدون سبب يذكر إلا إذا رأيت مزاجك الطائش سبب كافٍ !! و لم تكتفِ .. بل تجاوزت كل الحدود بكتابتك تلك الكلمات

حاولت الفكاك من قبضته لتنجح أخيراً بعد أن رمت شكوكها الصريحة بوجهه

- ألست أنت من كتب القصاصة ؟

ابتلع ريقه بصعوبه ليغص به بعد أن سمع آخر ما تفوهت به

- أ .. أي قصاصة

تلكُؤ لفظه للكلمات أكد لها ظنونها التي كان مصدرها القصاصة المهترئة .. خطوة إلى الأمام أم التراجع إلى الخلف ؟ عليها أن تتخذ القرار وتجازف، مدت يدها بعد أن خفت مسكته دون أن تتحرر منها بالكامل إلى جيبها لتخرج له القصاصة

- هذه .. هل تريد أن أقرأها لك ..

راقبت اللون الشاحب يغزو بشرته التي كانت تتوهج منذ لحظات خلت من شدة عصبيته، ادعت عدم مبالاتها وأخذت تردد كلماتها ببرود

- في حديقة منزلي شجيرات ..
- كفي عن هذا الآن -نهرها وهو يكز على أسنانه- إياكِ والعبث معي

ذهب البرود أدراج الرياح وانتفضت وثام مبتعدة عنه لتقول بغضب عارم

- وماذا عن عبثك أنت ؟ أخبرني ما هي غايتك من كتابة هذه الكلمات ؟ تكلم هيا كن رجلاً صريحاً وتكلم .. أم أنك تخجل من الاعتراف بأن هدفك هو السخرية مني فقط كعهدك دائماً ؟!

لم تبالِ بملامح الاعتراض التي ارتسمت بوضوح على تقاسيم وجهه وهو يسمع اتهاماتها ..

- لقد تماديت كثيراً هذه المرة قاسم، لم أتصور بأنك ستصل إلى حد ..

صمتت تلتقط أنفاسها لتكمل بعد لحظات بصوت متهدج من فرط انفعالها ..

- بأنك ستصل إلى حد التلاعب بمشاعري !!

اتسعت عيناه وهو يسمع اتهاماتها له لتضيق بشدة وهو يلاحظ دموعاً بدأت بغزو عينيها اللتين كانتا مستمرتين بتعنيفه حتى بعد صمت شفتيها .. التقت نظراتهما طويلاً واستمر الصمت لفترة أطول .. قطعته تنهيدة يائسة منها، تحركت تريد الابتعاد ليمنعها هو بأن قبض على ساعدها بقوة ليجرها خلفه

- دعني قاسم

زمجر بغضب مكتوم

- اصمتي الآن وئام لقد قلتِ ما يكفي وحان دوري الآن ..

***

بغداد

تنهيده خافتة صدرت من شفتيها ربما مصدرها كان حلماً سببت إيقاظها من نومتها الثقيلة جداً ..

تململت في سريرها ليقع بصرها الغائم بالنعاس على الساعة المعلقة على الحائط لتنهض بسرعة

- ناصر .. يا إلهي

مشت بخطوات شبه راكضة متجهه إلى حيث الهاتف لتبطىء عندما سمعت صوت هدير قادماً من غرفة

الجلوس .. تنفست بعمق وسارت بهدوء إلى داخل الغرفة، آخر ما تريده هو إثارة شكوك شقيقتها

- مساء الخير

تمتمت بالتحية التي ردتها إليها هدير بهدوء بينما استمر الصغيران بمشاهدة فلم الأميرة النائمة الكارتوني الذي كان يبدو بأن هدير تشاركهما متابعته، جلست على ذات الكنبة التي تجلس عليها هدير لكن مع احتفاظها بمسافة تفصل بينهما

- هل أنتِ بخير؟

التفتت سديم ناحية هدير التي كانت تنظر إليها بتمعن

- نـ .. نعم .. لمَ السؤال ؟

هزت هدير كتفيها بخفة وهي ترد بعد أن حولت نظراتها بعيداً عن شقيقتها

- لا شيء ليس من عادتك النوم حتى هذه الساعة .. قلقت عليكِ
- كلا .. كلا .. أنا لست مريضة
- الحمد لله

حان دور سديم لتتمعن بملامح شقيقتها .. هدير كانت تبدو مختلفة جداً بالآونة الأخيرة، هادئة بصورة غريبة لا تتكلم كثيراً وشاردة الذهن معظم الأوقات .. كانت في حالة من السكون لم تعرفها فيها أبداً

- تـ .. تبدين متعبة هدير

رنت إليها هدير بابتسامة شاحبة تجيبها بإيجاز وهي تنهض من مكان جلوسها

- ضغط العمل .. فقط ضغط العمل !!

راقبت سديم جسد أختها الذي زادت نحافته بصورة ملحوظة

- لمَ نهضت ؟ ألا تريدين إكمال الفلم ! إنه مسلٍّ

نظرة حزينة طلت من عيني شقيقتها وهي تتطلع إلى شاشة التلفاز و قد ارتجفت شفتيها بخفة تكاد تكون غير ملحوظة

- كنت أراقب الصغيرين بدل والدتي .. أنتِ موجودة الآن انتبهي إليهما .. تابعي الفلم معهما ..

فجأة مدت يدها تمسد على شعر سديم ..

- ما زال دور الأميرة يليق بكِ كثيراً .. كم ..

تنهيدة تعلن حسرة صاحبتها شقت صدرها وفرضت نفسها على محيطهما المليء بالغموض ..

- كم أتمنى أن تنتهج الحياة معكِ منهجاً مختلفاً، وتجدين أميرك أخيراً شقيقتي

أرخت سديم بصرها أرضاً وقد شغلت بالتفكير في كلمات هدير الأخيرة عن حالها الغريب .. لقد وجدت أميري هدير .. نظرت إلى السماعة .. أنتظر فقط أن يوافق هو على أن أكون أميرته والخوف .. شدت بأصابعها على قماش الكنبة القديم .. الخوف من أن يبتعد عني وأخسره يشلني ..

***

بين البصرة وبغداد

- أخيراً .. ما الذي أخرك للآن ..

وصل صوتها عبر الأثير ناعماً رقيقاً ليرسم له الخيال صورتها الغالية على قلبه

- آسفة .. لقد كنت نائمة و -باضطراب أضافت بعد صمت لم يدم سوى ثوانٍ معدودة- هل أنت منزعج مني ؟

ابتسم لخيالها قائلاً بصوت متسامح

- بالطبع لا .. لقد قلقت عليكِ فقط
- ناصر ....

التمس ترددا واضحاً بصوتها

- نعم صغيرتي
- أنـ .. أنا .. ..

عضت على شفتيها .. الكلمات التي خططت أن تقولها له بدت تافهه وغير مقنعه وهي تحاول نطقها .. لقد وعدت أم خلدون بأن تخبر هي ناصر بما حدث .. لكنها لا تستطيع، فقط لا تستطيع إخباره

- سديم ؟

القلق الذي برز بصوته أثقل كاهلها ..

- ناصر .. مـ .. متى ستعود إلى بغداد ؟

أرخى جسده أكثر على فراشه وهو ينظر إلى ساقه المصابة

- لا أعرف بعد صغيرتي ..
- هل ما زلت تتألم ؟
- ليس كثيراً .. العلاج الطبيعي يخفف الألم بدرجة كبيرة ..

ليكمل بداخله .. إضافة لصوتك الذي يقضي عليه نهائياً

- أتمنى بأن تشفى سريعاً وتعود إلى بغداد ..
- أشتقتِ لي صغيرتي ؟

صوت أنفاسها التي ارتبكت عند سماعها كلماته وهي لا تعرف بما تجيبه جلبت الابتسامة إلى شفتيه

- لا عليكِ .. سأعود قريباً .. هل تعرفين بأني كنت قد خططت الابتعاد عن بغداد لمدة أطول لكني فقط لا أملك القدرة على البقاء هنا، بمجرد أن يسمح لي الطبيب بالعودة سأعود ..
- أتمنى أن يسمح لك الطبيب بالخروج ناصر .. أ .. أنـ ..

قطب حاجبية وقد لاحظ ترددها مره ثانية

- صغيرتي ماذا بك ؟ ما الذي يشغل بالك ؟

استمر الصمت دون أن تقطعه سديم بإجابة لسؤاله، فتولدت لديه أسئلة كثيرة

- سديم تكلمي معي دون أن تحرجي
- ا .. الأمر لـ .. ليس إحراجاً لـ .. لكن

بنفاذ صبر حثها على التكلم

- لكن ماذا ؟

- ربما .. تـ .. تغضب إن أخبرتك ..

أغضب !! ما الذ ..

- كلا لن أغضب -وبنبرة آمرة- أخبريني

نظرت إلى الصغيرين بحجة التأكد من انشغالهما بمتابعة التلفاز بينما كل ما تريده هو كسب الوقت .. لكن تكسبه من أجل ماذا ؟ لا تعرف !! كل ما تعرفه بأنها تريد أن تنهي المكالمة بدون أن ينزعج منها

- ناصر .. أنا .. أود أن تجد لي عملاً آخر ..

تراجع رأسه إلى الوراء بدهشة

- عمل آخر !! لماذا ؟

خفت الدهشة من نبرات صوته عند امتزاجها بالغضب

- هل واجهتِ مشاكل بعملك هناك ..

- كـ .. كلا .. فقط أردت

- أردتِ ماذا ؟ ليس هذ وقت التلكؤ بالكلمات .. أخبريني حالاً ماذا هناك ؟

رفعت عيناها بعجز إلى سقف البيت .. ماذا تقول له

- سأخبرك .. أمي مريضة و أ .. وأنا .. وهي تحتاجني قربها و

ضاقت عيناه عند سماع كلماتها التي لم تقنعه

- سديم أنا أعلم الناس بساعات عملك الضئيلة جداً .. ما قلتِه لا يصدق .. قولي ما يدفعك لمثل هذا الطلب ؟

- ألم أقل لك بأنك ستغضب إن أخبرتك ما أريده ..

فرك جبينه وقد تمنى بأن تكون أمامه فعلاً ينظر إليها وهي تكلمه حتى يستطيع أن يستخلص منها الحقيقة

- أنا غاضب فعلاً .. لكن ليس بسبب رغبتك بتغيير محل عملك لكن لإصرارك على التفوه بأسباب غير مقنعة

تنفست بعمق، عليها أن تتشبث بكلامها، لا ينفع أبداً أن يعرف بما فعله أخاه، ربما سيذكر علاء أيضاً وتحرشه بها بذلك اليوم الممطر عندما أنقذها منه وضربه بقوة، ما الذي سيقوله عنها الكل مذنب وهي بريئة !! مؤكد سيتصرف معها كما فعل بذلك النهار بالسيارة ويظن بها السوء .. ناصر إن خسرته .. إن اختار أن يبتعد مجدداً ستموت حتماً ..

- ناصر الأسباب التي ذكرتها هي الحقيقة فعلاً .. أنا لم أكن أنوي إخبارك حتى لا تغضب، أنت ألحت علي .. أمي تحتاجني بالفترة القادمة والمكتبة أنا فقط من يعمل بها و
- خذي إجازة لأيام عدة إذا كنتِ مصرة بأن مرض والدتك هو السبب
- هو السبب فعلاً .. والإجازة لا تفيد .. أود أن تجد لي عملاً آخر. ناصر -بنعومة أكملت- أنت وعدتني بأنك ستلبي لي كل طلباتي ألم تخبرني بذلك ؟ هل ستنكث وعدك لي !

زفر بضيق ليقول بصوت مشدود

- لن أنكث وعدي سديم لم أفعلها سابقاً ولن أفعلها الآن .. اذهبي صباح الغد إلى موقع شركتي للمنتوجات القطنية، سأعطيكِ عنوانها

واسألي عن منذر سيتكفل هو بتحديد العمل المناسب لك .. سأعلمه بأن ينتظر حضورك ..

بصوت خافت همست

- شكراً
- سديم ..
- نعم
- أعطيكِ فرصه أخيرة .. هل أنتِ مصرة على ما قلته بشأن أسباب طلبك تغيير مكان عملك ؟

عضت على شفتيها بقوة أشد ..

- نعم

أحنى رأسه مفكراً بكلماتها وهو يتمنى فعلاً بأنها لم تقل سوى الحقيقة رغم شكه بذلك، قطع الصمت الذي استمر لثوانٍ مشحونة بالترقب ليقول لها كلمات جمعت الدموع بعينها

- كما تشائين .. لكن إن علمت بأنك قد كذبتِ علي انسي .. انسي بأنكِ قد عرفتِني يوماً !!

لتهطل بعدها بغزارة

***

البصرة

أغلق باب غرفة الفحص الخاصة به وهو ما زال ممسكاً بمعصمها بقوة رغم محاولاتها الإفلات من قبضته

- قاسم قلت اتركني

استمر بسحبها غير مبالٍ بضيقها ليجلسها على الكرسي قرب مكتبه ويقرب الآخر ليجلس أمامها مباشرةً .. ركز بصره عليها وهو يلاحظ ضيقها الشديد منه

- أنت تحبيني وئام أليس كذلك ؟

شهقت من شدة غروره وهي تسمع جملته التى بدت كأنها تقر بواقع حال لا يحمل جدلاً

- أنا .. ماذا !!!

حاولت النهوض من مكانها ليرجعها إليه وهو يقرب كرسيه أكثر حتى ضيق عليها

- أنتِ قلتِ هذا، لمَ الإنكار الآن ؟!
- أنا ؟!!
- نعم أنتِ .. ألم تقولي بأني تلاعبت بمشاعرك .. كيف أتلاعب بها إن لم أصل إليها .. ها .. ألم تقولي هذا !! أم ستقولين بأني توهمت سماع تلك الكلمات تصدر من بين شفتيك ؟

غزا الاحمرار وجهها من شدة الحرج والغضب أيضاً كيف فسر ما قالته بهذه الطريقة .. هل تكن تعني ما فهم .. أم أنها كانت تعني ذلك بالضبط !!

- بالفعل قلتها لكني بالتأكيد لم أقصد ما فهمته .. كيـ .. كيف

قطعت كلماتها وقد شدهت بالتعابير التي لاحت بعينيه وهو ينظر إليها .. لتسمع منه كلمة لم تحلم بأنه يوماً سيقولها لها

- أحبك ..
- مـ .. ماذا قلت ؟
- قلت أحبك ..

زاد احمرار وجهها وزاد افتتانه بها ليتفوه أخيراً بما يعتمل بصدره لسنين ..

- أعشقك، لا أستطيع العيش بدون رؤيتك والأمل بأنكِ يوماً ستكونين لي .. هل فهمت ؟؟

أمسك كلا كفيها يحتويهما بين كفيه

- منذ أول يوم رأيتك فيه لم تسكني الحلم فقط بل واحتللتِ الواقع أيضاً .. أعترف بأني تصرفت معك بخشونة أحيانا و -ابتسم عندما لاح التكذيب بعينيها- حسناً، معظم الأحيان .. لكن ربما يشفع لي عندك إحساسي بالغيرة من كل شخص تتكلمين معه وتضحكين -تنهد متحسراً- خصوصاً عندما تضحكين يا إلهي .. في بعض الأحيان كنت أفكر بأني لا محالة سأدخل السجن بسببك .. في كل حين تنتابني رغبة عارمة بجرك بعيداً عن كل ما يمكن أن يبعدك عني .. وأحتفظ بك في بيتي ..

رفع أحد كفيه ليمرره على خدها وهي ساكنة أمامه بدون حراك تستمع إلى ما يقوله بذهول شديد

- لكني كنت كمن يتمنى أن يخطف القمر من السماء أو يمنع النجوم من الضياء ..

لعقت شفتيها التان جفتا فجأة وهي تتمتم

- قاسم .. أنا

وضع أصبعه على شفتيها بلطف وعيناه كادتا تغرقانها بفيض من الأحاسيس الناعمة والعنيفة إلى المتملكة الحانية التي تتناوب الظهور فيهما ليقول بصوت هامس مترجي

- أريدكِ زوجة وئام .. هل تقبلين بي زوجاً لك ؟ زوجاً قد يكون جلفاً أحياناً وقاسياً أحياناً أخرى وربما أحمقاً يثير الغيظ طوال الوقت لكن الشيء الثابت الوحيد فيه هو عشقه لكِ ؟؟

أغمض عينيه يسحب نفساً أخيراً ليعاود فتحهما ليسأل سؤالاً قضى سنوات طويلة يتردد طرحه خوفاً من الإجابة

هل توافقين على طلبي ؟ ابتسمي لي لأعرف بأنكِ موافقة

الفصل الرابع والعشرون

بغداد

دخل إلى غرفته بخطوات متمهلة و عيناه تجولان ببطء على التغييرات التي جرت بداخلها، السرير المنفرد أصبح سريراً عريضاً بشراشف مزخرفة، لوحات جديدة زينت الحائط الذي أزيلت عنه بوسترات مايكل جاكسون و برتني سبيرز .. كل قطعة أثاث فيه استبدلت بأخرى، ابتسم بسخرية و هو يتمتم

- كل شيء معد لاستقبالك بيداء !

جلس على السرير .. يومين فقط وتأتي بيداء إلى هذه الغرفة بزواج لن يستمر سوى شهرين؛ هذه

هي الشروط التي لم تعرفها بيداء .. مد يده يمررها على الشرشف الحريري المفروش على السرير بلطف .. ناعم جداً .. كنعومة بشرة بيداء ؟ أم كنعومة الفتاة التي احتوى جسدها بين ذارعيه بعناق جريء !! رمى بجسده على السرير مستلقياً وهو مغمض العينين .. سديم؛ هذا هو اسمها، لقد سمع أم خلدون تناديها به .. ترى هل تكون قريبتها ؟ سحب المخدة ليضمها إليه .. و خيالاته تحتوي على بطلتين؛ الأولى ستصبح زوجته بعد يومين والثانية التي يتمنى لو تحل محل الأولى !!

***

البصرة

ثوانٍ مرت عليه كسنين و هو ينتظر منها أي مبادرة .. أي رد فعل يشير إلى قبولها عرضه .. ابتلع ريقه بصعوبة وهو يمعن النظر إلى ملامحها الجامدة أمامه، لا يريد التفكير بأن الرفض ما سيجعل شفتيها تنفرجان والعينين التي استقرت نظراتهما على كفيه التي ما زالت تمسك كفيها برجاء واضح سترفع إليه بنظرات باردة مستنكرة ..

- وئام ؟

رغماً عنه تسلسل اسمها من بين شفتيه .. في تساؤل سيكون الأخير .. لن يكون قادراً على الكلام، لا يوجد شيء يمكن أن يضيفه إلى ما قد قاله .. لقد عرّى مشاعره أمامها عندما ظن بأنها ستبادله مشاعره، هل كان مخطئاً ؟؟ سقطت نظراته

على كفيها، مسد بإبهامه بشرتها في وداع أخير لقرب ظل سنوات يحلم بأن يناله .. و ببطء سحب كفيه .. وقد تلاشت الأحلام وتحققت المخاوف .. لن يكون رجلاً يتحلى بالكرامة لو انتظر لثانيةٍ أخرى ..

أحست بأن دفء كفيه سيرحل قريباً عنها و هي حتى الآن لم تشبع من الدفء .. لم تكتفِ بعد من ترديد كلماته في صدرها، لم تكتفِ من تذوق عذوبتها .. فتشبثت أصابعها بأطراف أصابعه ترفض انسلاخها عنها

- عندما قرأت تلك القصاصة ..

تجمد في مكانه حين أحس بضغط أصابعها وصوتها الناعم المرتجف يبلغ عن مدى انفعالها وبأنه ربما .. ربما ستسعده كلماتها

- لم يخطر ببالي سواك .. رغم معرفتي بك و التي تقول بأنك لا تجيد سوى مهاجمة من حولك .. لم أفكر بأحد غيرك .. ربما لأني كنت أتمنى بأن تكون منك أنت ..

رفعت أخيراً وجهها إليه والنظرات التي كان يظن بأنها ستواجهه بما يكره لم تنطق إلا بما نطقت به شفتاه قبل وقت بسيط ..

- و عندما قلبت القصاصة بين يدي وقد استغربت اهتراءها -ضحكت بتوتر- وجدت بأنها .. بأن في ظهرها اسمي ورقم شعبتي في آخر سنة لي في الكلية .. لأكتشف بأنها جزء من دفتر محاضرات قديم فقدته حينها وسألتك عنه فأنكرت معرفتك به رغم تأكدي من أنك أنت من أخذه .. حسناً .. لديك ماضٍ أسود معي بفضل مقالبك المستمرة

جاء دوره ليحني هو رأسه، لكن مع بقاء عينيه مرتفعتان نحوها بنظرة مرحة يتخللها الخجل من ماضيه معها

- لأتأكد من مرسلها، لن يكون أحدٌ غيرك .. إضافة لعدم وجود طبيب بالمستشفى يعرفني منذ كنت طالبة غيرك أنت .. قاسم .. مجرد احتفاظك بدفتر المحاضرات وتسطيرك تلك الكلمات .. يجعلني أعيش حلم لا أود الاستفاقة منه ..

تركت أصابعه ورفعت كفاً مرتجفة لتحط على صفحة وجهه وهي تهمس بكلمة مشفوعة بابتسامة خجلة

- أحبك قاسم ..

للسعادة طعم إن تذوقته يوماً .. لن تمحي حلاوته مرارة الأيام القادمة مهما حاولت !!

***

بغداد في اليوم التالي

وقفت سديم متردده أمام بوابة العمارة الشاهقة الارتفاع .. أمسكت بيدها الورقة تريد التأكد من أنها أمام البناية المعنية والتي تقع فيها شركة ناصر .. عضت شفتيها بتوتر كعادتها عندما تقف أمام أعتاب مكان لم تطأهُ قدماها قبل الآن .. تقاوم بشدة رغبتها العودة من حيث أتت .. تباً للحظ التعس، كم كانت مرتاحة بعملها بالمكتبة وبوجود أم خلدون تحوم حولها .. حتى عاودت الأيام لعبتها معها وجعلت ذلك الشاب في طريقها

.. والذي -لحظها السعيد- يكون أخاً لناصر !! ناصر؛ الفرحة التي تترجى أن تعيش بقربها ..

- هل تحتاجين مساعدة يا ابنتي

أخرج -صوت رجل كبير بالسن عرفت من زيه بأنه حارس العمارة- سديم من أفكارها

- شركة .. أريد الذهاب إلى شركة المنتجات القطنية
- هاا .. تجدينها بالطابق الرابع .. إذا لم ترغبي بصعود السلالم يوجد مصعد هناك عند جانب المدخل

تمتمت سديم تشكر الرجل وتخطو بخطوات حذرة نحو الداخل

***

- لا بد أن أفهم ما يحدث غزوان .. الأرقام الأعمى فقط لا يلاحظ عدم تطابقها مع الجداول في دفتر الوصولات .. وأنا متأكدة بأني قد راجعتها سابقاً بدون أن أجد أي خلل فيها .. أريد أن أفهم ما الذي يحدث هنا ؟!

رجع غزوان بظهره إلى كرسيه يسنده عليه ببرود و هو ينظر إلى هدير متسلياً بفورة غضبها .. جميلة جداً ..

- لا أعرف ماذا تقصدين بكلامك هذا .. كيف تقولين بأنكِ قد طابقتِ الأرقام وها هي أمامي الوصولات التي تقول بأن هناك فرقاً بمسحوبات المبالغ ..

كانت عيناه تتأملانها بوقاحة فاقت كل حد وهي تسبح على تقاسيم جسدها تعلمها بنوايا صاحبها .. ضمت هدير قبضيتها معاً، ربما كي تحبس رغبتهما بتناول ثقالة الورق الزجاجية وتهشيمها على رأس هذا النتن الأخلاق والرائحة، وهي تقاوم غيظها كي تحصل على إجابه ممن جعله سوء الحظ مسؤولها في العمل ..

- لقد طابقتها ووضعت المبالغ بأكملها في خزنة الدائرة
- المبالغ في الخزنة .. يوجد نقص فيها عليكِ ..

وبابتسامة من حقق إنجازاً معجباً به أضاف بعد أن لاحظ انسحاب الدماء من وجهها ..

- عليكِ أن تكمليه هدير و بأسرع وقت ممكن .. قبل أن تعلم الإدارة و .. تعرفين الباقي ..

***

- مرحباً .. أود مقابلة السيد منذر لو سمحت

رفعت استبرق بصرها عن الأوراق التي كانت تعدها للطباعة على الآلة الكاتبة التي تحتل المكتب الصغير المرافق للمكتب الأساسي والذي ثقل سطحه بأنواع الملفات تنظر إلى القادمة بعين فضولية

- هل لديكِ موعد ؟

فركت سديم يدها بجنبها بينما مدت الأخرى تعدل من وضع حزام حقيبتها النسائية الصغيرة والتي

استعارتها من هدير -دون علمها طبعاً- بعد أن وضعت حقيبتها المدرسية ببيت أم خلدون

- نعم .. هو ينتظر قدومي

رفعت استبرق أحد حاجبيها وهي تستمع لكلمات سديم

- ينتظرك !! ومن تكوني لينتظركِ السيد منذر !! مسحت بنظرها الأشبه بأشعة إكس جسد سديم ملاحظة ملابسها القديمة الطراز لتقول بتشكك متعالي .. لا أظنك أحد أقربائه ؟!

عضت سديم شفتيها وقد أحرجتها نظرات المرأة المتفحصة

- كلا لست كذلك .. أنا من طرف السيد ناصر

استقام جسد استبرق وازداد لمعان عينيها عندما سمعت باسم ناصر

- تقصدين السيد ناصر .. ناصر عبد الرحمن صاحب الشركة !!
- نعم
- إنه في البصرة .. هل عاد ؟ من أين تعرفينه ؟!
- استبرق فضولك هذا سيتسبب في طردك من العمل يوماً ما

التفتت سديم لترى صاحب الصوت الذي تغيرت سحنة المرأة التي دعاها باسم استبرق ليتبخر التعجرف الذي رسم بتصنع على وجهها ويستبدل بارتباك يبدو ملائماً أكثر عليها .. تقدم نحوها شاب مبتسم الوجه يرتدي بذلة كاملة ذكرها بطريقة ناصر في ارتداء ملابسه، ولكن للأمانه ناصر كان يبدو .. كيف تصفه .. ذو طلعة بهيه أكثر .. ربما .. أكثر وسامة .. لا تعرف المهم

- الآنسة سديم
- نعم
- تفضلي أرجوكِ كنت بانتظارك ..

التفت ناحية استبرق التي كانت تراقب ما يحدث بانزعاج لم تفلح في إخفائه قبل أن يلاحظه منذر الذي نظر إليها محذراً

- أحضري لي القهوة وللآنسة عصير ..

فتح الباب لتدخل سديم إلى المكتب .. رفعت بصرها تتفحصه بارتباك، الإضاءة كانت جيدة بفعل النوافذ العريضة التي أزيحت الستائر عنها .. تنفست الصعداء، هذا جيد على الأقل النور يعم

المكان من الصعب الدخول إلى مكان غريب و مظلم بنفس الوقت !! جلست على الكرسي بجانب المكتب، حسناً هو لم يكن كرسياً بالضبط بل كان عبارة عن أريكة أكبر بقليل من حجم الكرسي

جلس منذر بمكانه خلف المكتب وهو ينظر إلى الفتاة -سبب المكالمة المتأخرة من صاحب العمل-

- منذر .. أوجد لها عملاً مريحاً جداً .. باختصار عاملها معاملة خاصة جداً
- هل استخدمتِ المصعد أم السلالم ؟

بابتسامة ناعمة جلبت ابتسامة لوجه منذر

- السلالم ..

بتفهم قال

- تخافين المصعد -توردت وجنتيها إجابة عن سؤاله- لا بد بأن أنفاسك انقطعت من صعودها .. كان الأمر ليكون أسهل قبل أشهر عندما كانت الشركة تحتل شقة في الطابق الثاني لكن التوسع هو من جعل السيد ناصر يقرر أن نأخذ كامل الطابق الرابع

كان يتكلم وهو يتمعن في النظر إليها ويفكر في الأسباب التي جعلت منها حاله خاصة عند السيد ناصر .. صحيح هي جميلة لكن هذا قد يكون سبباً لأي شخص آخر إلا ناصر .. هيأتها تقول بأنها من عائلة متواضعة، ربما يريد تقديم المساعدة لها فقط .. قطب حاجبيه، كلا كلامه كان واضحاً .. إنها شخص مقرب من صاحب العمل !

***

لقد أخفت الأمر عن ناصر .. ياللفتاة الغبية ..
هذا لا يجوز أبداً .. التكتم إذا زاد عن حده جلب
من المصائب كبيراتها .. وعمران ذلك الشاب
الفاسد الأخلاق أجاد التهرب من مواجهتها يوم أمس
واستغل عدم رغبتها بالكلام معه على مرآى ومسمع
من والديه، لم تستطع الكلام بحضرتهما ليس
وناصر طرفاً فيه !! رفعت الحقيبة المدرسية من
حيث وضعتها سديم على الأرض قرب الباب
الداخلي لغرفة الجلوس لتضعها على الكنبة ..
وهي تفكر بأن إصرار سديم على حمل الحقيبة
أينما تذهب يشير بقوة إلى أنها لم تكن صادقة
مع ناصر و أن أهلها لا يعلمون بأنها قد تركت
المدرسة .. رفعت بصرها إلى الساعة المربعة
الشكل .. سيتصل بها ناصر بعد ساعات قليلة
وستعرف منه ما الذي قالته سديم له ..

***

البصرة

الغضب إحساس هين لا يترجم نسبة خمسون بالمئة
من ذلك الشيء الذي يهدر بأعماقه حتى أوشك أن
يطيح بأي تعقل تباهى بامتلاكه طوال عمره ..
هل سببه بأنه علم من أم خلدون بحقيقة ماحدث ؟
أم سببه أنها كذبت عليه ؟ أم كون أخاه عمران ما
زال مستمراً بدرب مجونه ؟ أو ربما كل الأسباب
مجتمعة ؟! تحرك بصعوبة بالغة جداً وهو يستند
إلى عكازه المعدنية يحاول أن يكمل ارتداء
ملابسه .. انتهى الأمر سيعود، يجب أن يعود ..

- ناصر .. لا يمكنك ترك المستشفى الآن و
العودة إلى بغداد وبالليل !! ..

حاول قاسم أن يردع ناصر عن تهوره .. الحركة والسفر لمسافة طويلة سيسبب له انتكاسة بصحته ليست بالهينة .

- يجب أن أعود .. هناك أمور يتوجب علي الاهتمام بها

راقب قاسم التوتر الذي تجلى بوضوح على تقاسيم ناصر الذي عاوده عبوسه القديم .. الذي رافقه في الأيام الأولى التي مكث بها في المستشفى والذي زال طيلة أيام عرف من خلالها وعن طريق الصدفة بأن المكالمات التي يحرص على البقاء مستيقظاً حتى لا يفوتها هي السبب بظهور ناصر صاحب المزاج المعتدل والذي كان له أكثر من صديق ..

- هل يتعلق الأمر بها ؟

- من تعني ؟

- الفتاة التي تحبها ..

توقفت يد ناصر عن عملها عندما سمع إجابة قاسم فالتفت إليه مستغرباً والإنكار الذي أوشك أن ينسكب من بين شفيته توقف عندما أردف قاسم مكملاً

- ناصر تذكر بأنا نبحر على المركب ذاته .. بذات السهولة التي عرفت بها بأني مشغول بوئام عرفت بأنك مشغول أيضاً بفتاة - ضحك بخفة- لكنك تتفوق علي بأنك تعرف هوية حبيبتي

استدار ناصر بكامل جسده نحو قاسم وهو يستنكر جرأته

- حبيبتك!! .. قاسم وئام كأخت لي معرفتي بوالدها تـ

رفع قاسم يداه مهدئاً ناصر وهو يقول والفرح يتقافز بوجهه

- لقد ابتسـ .. أقصد وافقت .. سأتقدم لخطبتها خلال أيام

- صارحتها ؟!

أومأ قاسم برأسه وهو يقول بحبور

- نعم .. ليلة أمس .. حدثت مشادة بيننا انتهت بأن أخبرها بأني أريدها زوجة ..

جلس ناصر على حافة السرير بعد أن طالت وقفته وقاسم مستمر يشرح بإسهاب عما حدث معه وخططه ووئام لإقناع والدها بالقبول به وقد عرف لمَ لم تحضر وئام ليلة أمس عندما طلبها

- ولمَ لا يقبل بك قاسم ؟ أنت طبيب وجراح بارع

ابتسم قاسم بخفة وهو يقول

- طبيب بحال أقل من المتوسط ومن مستوى اجتماعي بفرق هائل عن مستوى عائلة وئام

هز ناصر رأسه رافضاً تلك المخاوف التي أبرزتها كلمات قاسم

- المال ليس كل شيء قاسم .. لن أنكر أهميته لكنه ليس كل شيء

مد ناصر يده إلى قاسم مبتسماً ومشجعاً

- مبارك قاسم

تلقف قاسم يد ناصر وأنهضه بواسطتها دون أن يبالي بالاستغراب الذي لاح على وجه ناصر والذي زال بمجرد أن احتضنه قاسم بعناق أخوي

سبب لناصر -الذي لم يعتد على قرب أحد منه- الحرج الشديد

- أنا ممتن لك فعلاً ناصر ..
- لم أفعل شيئاً لا يفعله الصديق لصديقه ..
- بل أخ لأخاه .. أليس كذلك ؟

انحنى رأس ناصر إلى الأرض قليلاً وقد فرض عليه عقله مقارنة بين أخاه الفعلي عمران الذي لم يتوانَ هو يوماً عن تقديم العون له .. العون !! الذي لم يقابله إلا بالجحود وبين قاسم الذي كان يرى بنظرات عينيه الامتنان وهو لم يفعل له أكثر من الإصغاء له عندما كان يريد أن يتكلم عما يعتمل بداخله .. مقارنة كانت تزيده مرارة و قد أدرك بأنها لم تكن سوى مقارنة مجحفة بين أرض صبخاء وأخرى خصبة، الأولى لا تنتج إلا

الشوك والثانية تمنح طيب الثمر بسخاء ..
ليرفعه بعد لحظات مومئاً لقاسم بالموافقة و الذي عاود الكلام بشأن سفر ناصر

- ناصر أجل سفرك ليومين فقط ..
- لا أستطيع علي العودة ..
- إذاً على الأقل أجل سفرك للصباح، سفرك بالليل لن يكون صائباً ..

عاود ناصر جلوسه على السرير وهو يتنهد بضيق ليتحرك قاسم ويجلس بجانبه بهدوء

- تعرف ناصر بأنك تستطيع أن تتكلم معي بما يشغل تفكيرك أم أنك قبلت محرجاً أخوتي لك
- لا .. بالطبع لا .. لكن -رفع يده بيأس- لا أعرف ماذا أقول .. حقاً لا أعرف

نظر إليه قاسم بتمعن إلى ملامح الوحدة التي تحيط بناصر، وحدة عرفها هو جيداً لكنه أجاد التصرف معها فلم يجعلها تسيطر عليه عكس ناصر الذي يبدو بأنها تملكته بالكامل

- تكلم عنها -رفع يده محذراً- وإياك أن تدعي الغباء وتقول من ؟؟ أنت تعرف من أعني !
- سديم
- اسمها سديم ؟
- نعم

اسمها جميل .. أكمل .. هيا

الفصل الخامس والعشرون

البصرة

- جرب أن تتكلم ناصر ربما يفيدك أن تسمع أذنيك ما يفكر به عقلك ..

أطرق ناصر مفكراً بكلمات قاسم .. كيف ينزع عنه رداء طباع متكتمة لبسه طوال عمره ؟ كيف يخرج من صمت هو جزء من شخصيته ؟ الكلمات التي بدأت خروجها من بين شفيته بحروف مبعثرة لم يمضِ وقت طويل حتى انسابت بتمكن تبوح بمخاوف صاحبها .. أو بعض مخاوفه التي يمكنه التصريح بها

- فارق العمر الذي بينكما ليس كبير .. ليس بالحد الذي تعتقده ..

نظر ناصر إلى قاسم بثبات

- معها أشعر بأنه كبير جداً .. تعرف فتيات بعمرها وأقل عندما تنظر إليهن ترى .. ترى ملامح امرأة بصدد التكوين .. أنثى تعرف بأن من يكلمها رجل .. سديم عندما أنظر إليها لا أرى إلا طفلة .. الصفاء بعينيها يشعرني بالذنب ..

بذهول لم يستمر سوى لحظات استمع قاسم إلى ما يقوله ناصر ليطلق بعدها ضحكات عالية جلبت التقطيب إلى وجه رفيقه فسارع بالاعتذار

- آسف -من بين ضحكاته تكلم- يا صديقي .. أنت .. أنت لا تعرف ما الذي تقوله

نهض ناصر من على السرير وهو ينظر إلى قاسم

- ما الذي قلته لتضحك هكذا !! ستجعلني أندم لأني تكلمت معك

أجبر قاسم نفسه على أن ينبذ الضحك ويحاول أن يناقش ناصر بروية ليست من طباعه

- هل تعرف ؟ تبدو وكأنك تعاقب الفتاة على براءتها ..
- ما الذي تقوله

نهض قاسم بدوره ليقف بمواجهة ناصر

- سديم تحبك .. مكالمتها المستمرة تقول بأنها كذلك .. محاولتها لإيجاد عمل يعين عائلتها يدل على نضج تفكيرها .. ما الذي تريده أكثر من هذا !!

زم ناصر قبضتيه

- لقد كذبت .. أخبرتني بأنها تعمل بعلم أهلها وبأنها مستمرة بدراستها .. مع تلك المكالمات بدأت أفكر بها بطريقة أخرى وبأنها من الممكن أن تكون زو ..

قطع كلماته وقد تصاعدت المرارة بداخله وهو يذكر محاولاته معها كي تخبره حقيقة ما حدث، تذكر غباءه وهو يسألها عن دراستها وعن معرفة أهلها برغبتها بإيجاد عمل .. كل كلامها كذب في كذب .. لقد استغفلته

- بتصرفها هذا عادت مجرد طفلة تتعذر بما تريد كي تحصل على ما تريد

هز قاسم رأسه رافضاً الطريقة التي يفكر بها ناصر

- يا صديقي اطلب منها الصدق عندما تكون أنت صادقاً مع نفسك

تجهم وجه ناصر ليضع قاسم يده على كتفه

- كل ما قلته مجرد حجج يا صديقي .. براءتها التي تظن بأنها سبب ابتعادك عنها إذا استعضنا عنها بنظرات فتاة تنصب فخاً لاصطيادك لجلبت النفور إلى نفسك ولما شغلت تفكيرك .. صدقني دوماً ستجد عذراً يبعدك عنها .. فمتى ستكف عن هذا ناصر وتقوم بخطوة تخرجك من دوامة تلك الأفكار الــ ..

رن جرس الهاتف ليعم الصمت لا يخترقه سوى صوته هو .. يرن .. يرن ..

- هل سترد ؟

استمر الرنين .. التفتت ناصر إلى الهاتف وخياله يصورها له، أوشك أن يحن لسماع صوتها .. لكن غضبه الذي ما زال متأججاً حمل له ذكرى تهديده لها بأن تنساه إن كذبت .. التهديد الذي لم تبالِ به .. بصوت بارد النبرات قال

- كلا ..

***

بغداد

وضعت سديم السماعة بعد أن يئست من الرد .. كم مرة أعادت الاتصال ؟ ثلاث .. ست .. لم تعد .. فركت يديها ببعضهما بتوتر .. والتساؤلات تزيد من حيرتها والقلق يضاعف من عدم استقرارها .. هل أصابه مكروه ؟ هل ساءت صحته ؟ عضت شفتيها

وقلبها يبتهل بصمت .. يا إلهي أرجوك لا تدع ضراً يمسه ..

***

البصرة

في صباح اليوم التالي وعند بوابة المستشفى وقف ناصر يودعه قاسم ووئام التي قالت

- تعرف ناصر بأن والدي سينزعج مني لعدم إخباره بأنك تنوي العودة إلى بغداد

لم يسمح قاسم الذي تغير وجهه لناصر بالتكلم

- طبعاً .. هذا سيفسد خططه

استدارت إليه وئام وهي تقول بحنق

- هل سنعود إلى هذا الحديث مرة أخرى ؟

بفتور لا يدل على الضيق الذي لاح بعينيه أجابها

- أنت من تعودين إليه دائماً

رفع ناصر نظره إلى السماء بيأس

- ماذا ؟ ألا تعرفان لحظة سلام !! -ليكمل محاولاً تغيير مجرى الكلام- قاسم متى ستتقدم للعم نعمان لخطبة وئام ؟

رمق قاسم وئام بطرف عينه وهي تبعد وجهها عنه

- بعد غد إن شاء الله .. عندما تأخذ وئام موعداً منه

ابتسم ناصر بحبور

- أظن بأني سأسمع قريباً أخباراً طيبة -مد يده مصافحاً قاسم- سنكون على اتصال

صافحه قاسم

- هذا مؤكد ..

ليقترب منه أكثر عند وصول سيارة الأجرة التي ستقله إلى بغداد .. قائلاً بصوت هادئ

- أنت تستحق السعادة يا صديقي فلا تُضْنِ بها على نفسك

***

بغداد

الزغاريد تصدح في البيت القديم لتعلوا وتعلوا بفضل تكاتف النسوة المهنئات وتباريهن الغير معلن من منهن تطلق الزغودة الأجمل ! التي يزداد وقعها الموسيقي عذوبة ترافقها مع أصوات الرجال الفخورين الجهورة بأهازيج تتغنى بمجد قديم .. لتعم مظاهر الفرح أرجاء الحي الشعبي الذي أنير كل بيت فيه وشارع بمصابيح ملونة وأوراق زينة لامعة .. وكيف لا وحوريته بيداء ستزف اليوم إلى

الثري الشاب الذي تاه منه لبه عندما نظر حسنها !!

وفي غفلة من الحضور وعند سماع صوت زمامير السيارات التي تعلم بقدوم العريس، تمد بيداء يدها تمسح دمعة خائنة تريد أن تفضح حقيقة زواجها التي نسجت عنه حكايات تشبه الأساطير كعادة أبناء بلدها المغرمين بطمس سواد الواقع بألوان خيال زائلة !!

***

الطريق من البصرة إلى بغداد

أسند رأسه إلى ظهر مقعد السيارة يراقب بعينين مثقلتي الجفنين المشاهد الراكضة من خلف زجاج النافذة بذهن شارد .. مر شهر ربما أقل بأيام أو

أكثر بأيام منذ سلك هذا الطريق باتجاه معاكس ..
خرج هارباً من بغداد في ظلام دامس وعيون السماء
المنهمرة ترافق مسيره والآن هو عائد إليها
واضطراب مشاعره ينذره بما ينتظره فيها ..

***

بغداد

انتهت الحفلة وذهب المهنئين كل واحد إلى وجهته
لتجلس العروس تائهة في الردهة الكبيرة وسط
نظرات حملت كل التعابير إلا تعبير الفرح بوجودها
بينهم .. رفعت بيداء رأسها نحو من أصبح منذ
ساعات قليلة زوجها رسمياً والذي ما إن لمح
نظراتها حتى أبعد رأسه عنها .. والديه جلسا على
الأريكة العريضة أمامها مباشرة وهو على أخرى
بعيدة عنها وهي جالسة لوحدها .. بثوب عرسها

المفروش على جانبيها و الخمار الذي رفعته هي
عن وجهها الذي سرق من القمر بهاءه يحيط بها
بنعومة كأنه يواسيها غربتها ..

- انظري يا فتاة -تكلم والده أخيراً- أنتِ
تعرفين بأنه ليس مرحب بكِ بيننا لكن
خطيئتك الذي شاركك بها ولدي أجبرتنا على
هذا الوضع ..

لمعت عيناها وكتمت شهقتها في صدرها دون أن
تحري جواباً

- الذي سنحرص على إنهائه قريباً ..

التفت عبد الرحمن لزوجته ناهدة التي أومأت إليه
بأن يكمل ما بدأ .. وهو غير قادر على معاودة
النظر إلى وجه العروس الذي تغير لونه

- شهرين هي المدة التي ستكونين فيها زو ..

نهضت من مكانها بعنف وهي تقول بصدمة

- ماذا تقول يا عمي

التفت عبد الرحمن إليها بعصبية وغضب وهو يرمقها بنظرات لا تحمل ملمحاً للرحمة

- لست عمك .. ولن أكون .. شهرين وينتهي الزواج .. احمدي الله بأننا قد سترنا فضيحتك

لا تريد أن تذرف دمعة لا تريد

- أحمد الله بالتأكيد لكني لن أحمد عملك .. أنت لم تستر فضيحتي إلا من أجل ولدك المدلل .. لا تحملني جميلاً لم ..
- يا لكِ من فتاة وقحة .. عينيك الآن نظراتها يجب أن تسلط على الأرض بدون أن ترتفع بوجه الحاج

كانت هذه ناهدة التي استفزتها كلمات بيداء

- كيف تريدين مني أن أصمت .. شهرين !! ماذا أقول لأمي وأخي والناس ؟

بدون أن تبالي ناهدة بارتجاف صوت بيداء

- كان عليكِ أن تفكري بهم قبل أن تمنحي نفسك لعمران بالحرام .. لم تخافي الله ..
- كفى ..

صرخت بصوت تهدج من فرط انفعالها ودموعها ما زالت تنحبس بعينيها تهدد كل لحظة بالانهمار ..

- كفوا عن ترديد اسمه .. الله الحلال والحرام .. كأن دافعكم لإتمام الزواج هو الخوف منه وليس من الفضحية ..
- ربما الاثنين !

التفت الجميع، ناهدة التي شهقت بقوة وعبد الرحمن الذي شحب لونه وعمران الذي قطب حاجبيه وهو ينهض من مكانه .. فقط بيداء لم تبدِ رد فعلٍ لرؤيته وقد واجهت عينيه قبل الجميع

- ناصر ولدي ..

سارعت ناهدة إلى ناصر الذي رمى حقيبته أرضاً ليتلقى عناق والدته وهو يثبت جسده على عكازه

- ما الذي حدث لمَ العكاز ؟

كان هذا والده الذي لحق بخطوات زوجته إلى عند ناصر

- مجرد حادث بسيط

نظر عبد الرحمن إلى ناصر بذهول مشوب بعدم التصديق وهو يستمع إلى إجابته .. فأخذ يتمتم دون أن يقاوم الانحناء إلى حيث ساق ناصر المصابة

- أبي .. أرجوك

كالمهووس أخذ يمسد ساق ناصر وقد لاح ضعف غير معهود على ملامح وجهه، ضعف حمل ناهدة على الركوع بجانبه وقد أربكها رد فعله

- يا حاج .. على مهلك بنفسك

لم يعرها عبد الرحمن انتباهه وقد سكنه خاطر روج له باحتمال خسارته لولده الغالي فألهاه حتى عن كبريائه

- لمَ .. لمَ لمْ تخبرني .. لمَ يا ولدي ؟

حاول ناصر أن ينحني لوالده كي يرفعه فلم يستطع شتم عجزه الذي خنقه بداخله

- أبي .. أرجوك أنهض .. أنا بخير .. كان حادث سيارة وقد نجوت والحمد لله ..

مد يده حتى وصلت إلى كتفه .

- انهض أبي .. انظر إليّ ..

رفع عبد الرحمن عينان غائمتان بالصدمة

- أنا بخير ..

بصعوبه استطاع إقناع والده على النهوض من حيث استقر عند ساقي ولده الذي تكلم بصوت مبحوح

- تعال عمران وساعد أخاك

بخطوات سريعة متهلفة وصل عمران لعند ناصر يمد يده التي قبض عليها ناصر بقوة حملت عمران على النظر إلى وجه أخيه الأكبر الذي قال بصوت خافت لم يهون وقع كلماته

- حساب عسير سيكون بانتظارك

اصفر وجه عمران متوجساً عند سماعه كلمات ناصر التي قالها بصوت يحمل من الوعيد ما يثير القلق ..

- ما .. ما الذي تقصده ؟

لم يجِبْه ناصر الذي التفت إلى العروس ونظراته تحمل تعابير مختلفة

- إذاً أنتِ بيداء ؟!

اشتدت قبضتا يديها وقد أحست بأنها محاصرة كغزالٍ جريح بين كومة صيادين عديمي الرحمة ولسانها كان سلاحها الوحيد أمامهم

- لم يكن ينقصني إلا أنت

عاودت ناهدة النظر إليها وهي تنهرها قائلة

- تأدبي

ابتسامة خفيفة لم تحمل من المرح شيئاً ارتسمت على شفتي ناصر الذي دار بصره بين بيداء وعمران ليقول لوالدته بهدوء

- اتركيها أمي ..

تحرك بصعوبة بمعونة عمران ليجلس على أحد الأرائك وقد أعادت له ذاكرته مشهداً دار قبل لحظات عندما ولج إلى البيت من الأبواب المشرعة وآثار الاحتفال واضحه في أرجائه ليدخل بصمت دون أن يلاحظه أحد ويرى اجتماعاً عائلياً تتوسطه عروس حسناء دامعة العينين تتلقى من الكلمات أبشعها .. عروس لم تكن بالانكسار الذي تنطق به هيأتها .. لم تكن نهائياً كما تصورها .. ابتسم ساخراً وهو يرمق عمران بغضب مكتوم

- هل تعقد محاكمة من نوع ما هنا ؟ أكاد أجزم بأن المتهم هنا هو بيداء فقط .. بينما أخي العزيز لا يلقى عليه اللوم ولو بقيد شعرة

ألقى كلماته الساخرة دون أن يدرك وقعها على بيداء التي تغييرت نظراتها .. هل سيكون هنا من ينصفها أخيراً !! وسرعان ما عاد تحفزها عندما سمعت ناهدة تؤنب ناصر الذي استفزها بكلماته فسارعت كعادتها تدافع عن مدللها

- ما الذي تقوله ناصر ؟! .. كيف تدافع عنها .. أعرف بأن عمران مخطئ لكن خطأها أكبر، هي فتاة كان يجب أن تصون نفسها وألا تسلمها لأول طارق

عوج ناصر شفتيه بمرارة وقد عاد ترتيبه الثاني عند أمه، إن كان له ترتيب أصلاً ..

- كفي عن تجريحي بهذا الشكل ..
- هذا يكفي

تكلم عبد الرحمن أخيراً وهو يرمق الجميع شزراً .. وهو يشعر بأن هناك شيء حمل ناصر على قول كلماته تلك

- عمران خذ زوجتك إلى غرفتكما فوراً - وبحدة أضاف- ناهدة اذهبي وأعدي الطعام لولدك المصاب العائد من السفر بدل تأنيبه

أخفضت ناهدة رأسها وقد أدركت سوء تصرفها فذهبت دون أن تبالي باعتراض ناصر الجاف كي تعد له الطعام بينما تحرك عمران ليمسك ذراع بيداء يسحبها كي تصعد معه إلى فوق، إلى حيث الغرفة التي ستجمعها كزوجين لفترة محددة ..

***

كم من الأسئلة طرحت عليه وهو يزدرد لقيمات الطعام بصعوبة .. لماذا لم تخبرنا عن الحادث .. لمَ أخفيت .. لمَ أطلت الغياب .. لمَ عدت !! حتى طرح السؤال الذي كان يدور خلد والديه معاً

- هل أعجبتك وئام ؟

ترك ما بيده ورفع بصره إليهما .. يبدو بأن قاسم كان محقاً بمخاوفه

- وئام فتاة ممتازة ..

ابتسم ساخراً من تعبير الارتياح الذي لاح على تقاسيم وجه والده والتحفز الذي ظهر بجلاء على والدته .. وكعادته اختار أن يأتي بنهاية الحكاية دون لف ودوران

- و الدكتور الذي اختارته شريكاً لحياتها محظوظٌ جداً بها كما هي محظوظة به .. أما بالنسبة لي فأنا قادر على اختيار شريكة حياتي دون مساعدة من أحد

ودون أن يبالي بالصمت المذهول الذي حل بالمكان نهض واقفاً وهو يأخذ عكازه المركونه بجانب كرسيه

- بالإذن .. سأذهب كي أرتاح

قطب عبد الرحمن حاجبية وهو يمعن النظر إلى ولده الذي أدار ظهره إليهما دون أن يحاول تقبيل رأس والدته أو تقبيل يديه كما اعتاد طوال عمره .. يبدو بأن التغيير في ناصر لم يكن في مظهره فقط وقد نحل جسده حتى بات يشبه شبحاً لرجل تسكنه المرارة .. بل وصل التغيير إلى مدى أعمق .. مدى لا يريد أن يفكر به أبداً

***

فتحت حقائبها تخرج منها شيئاً مناسباً لوضعها الجديد كي ترتديه وهي تزيح بقرف أكوام الحرائر وملابس النوم التي تلائم كل عروس إلا هي .. بينما هو ذهب ليأخذ حماماً .. نقبت في داخلها وقد شرد ذهنها .. شهرين .. شهرين !! يا إلهي أي زواج هذا !! ارتجفت شفتيها وهي تفكر بالخطط التي قضت الليالي الأخيرة ترسمها كي تكسب محبة والديه بأن تريهم بأنها قد تغيرت كثيراً وبأنها رغم فداحة خطئها لكنها ليست كما يظنون .. الغرور والطمع كانا أسوء صفاتها لكنها لم تكن يوماً عاهرة تبيح حرمة جسدها لكل طامع .. عمران في لحظة ما أحست نحوه بمشاعر حب جعلته يصل إلى ما لم يصل إليه أحد قبله .. وهي لم تعرف أحداً قبله .. لم تبحث عن أعذار لنفسها هي خاطئة .. وعاصية .. لكنها تائبة وهو قد تقبل توبتها؛ الهدوء الذي يسكن دواخلها يخبرها بأنه قد تقبلها .. وهي لن تفرط برضاه عنها بعد

الآن، أبداً لن تفرط به .. وكيف تفعل وهو ملاذها الوحيد الذي بادر هو بستر فضيحتها رغم أنها لم تكن تتجرأ أن تطلب منه ذلك .. لكنه برحمته ولطفه وحنانه قد شملها بكرم لا يُعرف عن سواه

فُتح باب الحمام بهدوء ليخرج عمران بخطوات صامتة وهو لا يضع على جسده سوى منشفة صغيره يلفها على خصره وينشف شعره بأخرى وكلمات ناصر المهددة تدق برأسه .. لتغيم نظراته وهو يشاهد بشرتها شبه العارية التي تنيرها إضاءة خافتة زادت من جمالها .. لتتلاشى كل الأفكار مع حلول الرغبات الجامحة التي سكنت الروح والعقل والجسد فلم تُبقي مكاناً لغيرها

اقترب منها دون أن تنتبه لوجوده وهي تحاول وضع روب يغطي جسدها الذي أصرت غلالة نومها الشفافة على إظهاره بكل جماله .. شهقت بقوة عندما أحاطت ذراعان خصرها من الخلف لتسحبها لتلتصق بجسد عمران الذي همس بأذنها

- اشتقت لك كثيراً فاتنتي

حاولت بيداء الفكاك من طوق ذراعيه دون جدوى همست بحنق

- اتركني

ليديرها عمران دون أن يبالي باعتراضاتها وهو يحاول أن يزيح الروب الذي غطى جزءاً لا يستهان به من جسدها وهو يضحك بصوت خافت على تمردها الذي سيضع منها بعد وقت قصير

- لن أفعل

لحظات .. للحظات فقط ظن عمران بأنه كما المرة السابقة استطاع أن يميت مقاومتها لتفاجئه بدفعة

قوية استطاعت بعدها أن تحرر نفسها منه وأن تعيد بيدين مرتعشتين الروب إلى مكانه .. التمع الغضب بعينه فأجاد إخفاءه بإطلاق ضحكة ساخرة وهو يتكئ بجسده على الحائط يراقب لململتها لنفسها

- لقد رأيت كل شيء سابقاً أم أنكِ نسيت !!

رفعت بصرها إليه وقد أشعل بكلماته فتيل ذكرى قبيحة

- لم أنسَ وكيف لي أن أنسى !! كان خطأ لا أود تكراره

تحرك نحوها ونيته بمعاودة محاولته واضحة جداً وهو يحاول أن يستميلها إليه

- لكنه الآن ليس خطأ أنتِ زوجتي الآن ..

أمسك بها مجدداً مانعاً إياها من الهرب بعيداً عنه

- دعني اتركني .. قلت لك لا .

بصوت تغيمه الرغبات تمتم لها وشفتيه قريبتان منها

- أنتِ زوجتي وهذا حقي
- كلا لست كذلك .. أي زواج هذا الذي يحدد بمدة .. لن يكون حلالاً أبداً .. سيكون حراماً .. كما في المرة الأولى

صرخ بها ينهرها أن تعاود هذيانها هذا وهو يثبت جسدها على السرير الذي ارتمى كليهما عليه في خضم صراع غير متكافىء .. نظر إلى عينيها اللتان ملأهما الألم .. أغمض عينيه بقوة ليعاود فتحهما وصراع من نوع غريب لم يألفه سابقاً بدأ يزحف بداخله .. لم يرد أن يرى الدموع بعينيها ولا الألم .. الانكسار الذي تلبس وجهها لم يكن يليق بها ..

أين بيداء التي كانت الضحكة المغناج ترتسم على وجهها ؟ أين الغرور الذي كانت تنطق به حركاتها ؟ أين هي ؟!! يريدها .. يريد استعادتها

أنتِ زوجتي وستكونين لي .. كما أنتِ بالأصل

الفصل السادس والعشرون

رمى سترته جانباً .. جلس على حافة سريره وهو يستعد لخلع حذائه .. افتقد أم خلدون، تصور بأنها ستكون أول شخص سيلتقي به بعد سفره كالعادة .. وحسناً أقر بداخله معترفاً .. هي لم تعرف بموعد رجوعه لكنه اشتاق اهتمامها به .. أمه كما هي منذ سنين لمَ اليوم بالذات أحس بأنها بعيدة جداً عنه !! غريبة .. بشكل لا يمكن أن تكونه أم .. ضحك ساخراً من نفسه، يبدو بأنه بتذمره هذا أشبه بطفل يطالب بحضن والدته .. لقد كبر .. كبر كثيراً واعتاد البرودة التي تحيط به .. البرودة التي كسرت جليدها طفلة بعنين باكيتين .. تنهد بضيق .. وكأن وجودها المربك في حياته لم يكفه ليأتي عمران ويزيد الطين بله .. تباً له .. التزامه جانب الهدوء ومنع نفسه من تهشيم وجه أخيه المدلل يستحق من أجلها جائزة نوبل للسلام على أقل تقدير .. صوت استرعى انتباهه .. ليقف بعد أن أمسك عكازه نابذاً أفكاره ويتحرك بأقصى ما يستطيع .. ولم يكد يسير بضع خطوات في الممر خارج غرفته ليشاهد ما أذهله .. بيداء تركض في الممرات بهيأة مخجلة يلحقها عمران والتي ما إن شاهدته حتى غيرت اتجاهاتها العشوائية نحوه لتصل إليه وترتمي عند قدميه وهي تنشج بقوة ..

- أرجوك ساعدني .. لا أريد .. لا أريد

رفع ناصر وجهاً متجهماً إلى عمران الذي وصل إليه بتردد

- ما الذي فعلته لها ؟ كيف تتركها تركض هكذا شبه عارية في المنزل لتلاحقها أنت وحالك ليس أفضل منها .. هل قلبت اليبت إلى بيت دعارة

تقدم عمران نحوها وهو يقول

- هيا تعالي معي

ليزداد تشبثها بساقي ناصر

- كلا .. كلا

أحست بيد تقبض على ذراعها تنهضها رفعت بصرها بخوف لترى بأنها يد ناصر الذي أظلمت ملامحه .. ارتجفت شفتيها بخوف وهي تمتم

- أرجوك .. لا

وكل ظنها بأنه سيسلمها إلى عمران الذي تسمر خلفها يتوقع الأسوء .. لتنهض رغماً عنها وقد أحست بالضياع يشتت كل حواسها .. سقطت دموعها عندما دفعها ناصر إلى ..

- اذهبي إلى غرفتي هناك وأغلقي الباب عليكِ

تقدم عمران بخطوة مترددة إلى الأمام يحاول منع بيداء من الدخول إلى غرفة ناصر ليقف الأخير بينه وبينها .. مشيراً لها بأن تتحرك

- ادخلي

حاول عمران أن يعترض على تدخل ناصر بما لا يعينه

- إنها زوجتي مكانها في غرفتي وليس غرفتك

لم يستطع ناصر أن يقاوم غضبه الذي استعر بنيران ستلتهم روحه إن لم ينفثها ويتخلص منها فدفع عمران الذي تراجع ليرتطم ظهره بالحائط

- زوجتك !! هل صدقت نفسك يا هذا بأنك تصلح زوجاً لأي فتاة حتى لو كانت بيداء .. هل نسيت سبب زواجك منها أم أنك بكل قبح تريد أن تتمادى بدورك المؤقت بحياتها ..
- إنها
- اصمت .. لا تنبس بحرف واحد .. متى ستكف عن إيذاء غيرك بكل برود .. متى ؟؟

ابتلع عمران ريقه بصعوبة وهو ينظر بذهول انفجار أخيه

- هل تعرف صبرت عليك كثيراً .. أكثر بكثير مما يجب .. حتى أوشكت أن تعيد الكرة بالتحرش بفتاة أخرى .. وهذه المرة ستعود علينا بمصيبة أكبر من سابقتها .. ستكون مغتصباً .. ماذا هل ستنكر ؟؟

- ما .. ما الذي تعينه ؟
- سديم -مجرد نطق اسمها يوجع قلبه- الفتاة التي تحرشت بها قبل يومين وسببت لها من الذعر ما لا يوصف .. أم أنك نسيتها !!

شحب وجه عمران عندما سمع اسمها، من أخبره ؟ لا بد أنها تلك الشمطاء أم خلدون .. حاول أن يموه حقيقة ما حدث فلجأ إلى كذبة تشارك الزمان قدمه

- هي .. هي من حاولت أن تجذبني بحركاتها ونظر ..

لكمة حطت على جانب وجه أخيه تمنتها قبضته منذ سنوات لتجد أخيراً فرصتها بإفراغ غضب صاحبها أوشكت أن تطيح بعمران أرضاً من شدتها

- إياك .. هل فهمت إياك والتجرؤ على تشويه صورتها ..

وبقبضته ذاتها التي كان هدفها هذه المرة معدته .. أكد على كلامه

- سمعتني
- ما الذي يحدث هنا ؟

جهر صوت عبد الرحمن بالمكان تبعه صوت ناهدة التي صرخت بفزع وهي تركض مهرولة تجاه ولديها تنقذ عمران من بين يديه أخيه الأكبر

- عمران ولدي ما بك ؟

التفتت إلى ناصر الذي تراجع جسده بانعدام توازن يهدد بسقوطه أرضاً لو لم يلاحق نفسه ويثبت جسده بمعونة يده بالحائط بعد أن سقطت عكازه خلال مواجهته لعمران

- هل جننت كيف تضرب أخاك الصغير

لم يعر ناصر اهتماماً لرد فعل والدته الذي اعتاده منذ سنين

- أبي .. كيف لهما أن يناما بالغرفة ذاتها وزواجهما لن يستمر إلا لأشهر معدودة ؟ أم لا بأس بتوفير المتعة لعمران !! لقد خرجت الفتاة مذعورة من الغرفة تركض شبه عارية في ممرات البيت
- ها ياللشرف !

كانت هذه ناهدة التي كرهت دفاع ناصر عن بيداء

- كفى ناهدة ..

نظر الحاج عبد الرحمن إلى عمران بقرف .. لم يكد يستقر في غرفته حتى سمع صوت ولده الأكبر يهدر بالبيت ليكلم ناصر ..

- أين هي الآن ؟

- أدخلتها غرفتي

عاودت ناهد اعتراضها

- كيف بغرفتك !! يا إلهي هذه الفتاة تنفث سحرها على ولدي الاثنين .. قبلها عمران والآن أنت .. تريد اصطيادك أيضاً
- أمي أرجوك ..

نظر إليها ناصر وهو لا يصدق تماديها بحماية عمران الذي أصبح يخنقه

- كانت تهرب منه .. لو كانت كما تقولين .. فتاة تمتهن التلاعب بالرجال لقامت بتلبية ميول ولدك القذرة الذي كان يلاحق فتاة بريئة قبل يومين من زواجه .. انظري من يتلاعب هنا وينفث شروره على بنات الناس
- ماذا تقول ناصر ؟! ما الذي فعله عمران ؟!
- لا تصدقة أبي ..

تكلم عمران يحاول أن يتخلص من مأزق رمى نفسه به

- كل ما فعلته أني لاطفتها بكلمات بقصد المزاح .. مجرد مزاح عندما رأيت نظراتها نحوي

هدر ناصر بغضب عندما سمع عمران يعاود بوقاحة اتهام سديم بمشاغلته

- أنت كاذب جبان .. أم خلدون أخبرتني بأنها أوشكت على الإغماء من شدة خوفها منك ..

قطب عبد الرحمن جبينه وهو يستمع لتقاذف الاتهامات بين ولديه .. أم خلدون !! هو يعرف مدى قربها من ناصر

- ومادخل أم خلدون هنا .. ناصر هل تعرف هذه الفتاة ؟!

تركز بصر ناصر على والده

- نعم .. أعرفها .. و أعرفها جيداً أيضاً

ازداد تقطيب والده ليقول بصوت يحمل تساؤلاً لا يرجو إجابةً لا تعجبه

- كيف جيداً ؟!

تساءل عمران بداخله وهو يرقب تغيير ملامح وجه أخيه التي علاها ارتباكاً ربما خفي عن نظر والده ووالدته بالتأكيد التي انشغلت به .. كان يبدو بشكله هذا أشبه بناصر السنوات الماضية حيث كانت علاقتهما أوطد من الآن بمراحل كبيرة .. صحيح بأنه لم يتركه لشأنه أبداً وكان يحل كل المشاكل التي يسببها لكنه في السنوات الأخيرة كان يقوم بكل شيء بآلية غريبة .. ببرود .. جعله بعيداً عنه .. هل يعقل بأن ناصر مهتم بتلك الفتاة ؟! هذا ما تدل عليه كلماته !! استرجع بذهنه خيال البنت التي شغلت تفكير أخاه وتفكيره هو أيضاً .. عندما تخطر بباله تنساق أمانيه إليها وعندما يرى بيداء يهتز داخله بقوة وتهفو نفسه للقرب منها .. لا يعرف بينهما قراراً تسكن إليه روحه .. كلتيهما تختلفان عن أي فتاة كانت تربطه بها علاقة من أي نوع

- جيداً لدرجة بأني أريدها زوجةً لي

ألقى ناصر قنبلته التي انفجرت بوجهه قبل والديه وأخيه .. وقد غمرته موجه من الارتياح وقد اعترف أخيراً بما كان يريد الهرب من الاعتراف به .. لتتبدد غيمة السكون التي حلت على روحه عند سماعه كلمات والده

- هل بسببها تخليت عن فكرة الارتباط بوئام .. من أجل فتاة كهذه يكفي أنها التقت بعمران كي نعرف بأنها لن تكون مناسبة لك
- أبي أنا من أقرر إن كانت مناسبة لي أو لا .. وهي مناسبة جداً .. كما أنها ليست من عالم عمران القذر هومن تبعها عند خروجها من المكتبة التي تعمل بها

بكل العنجهية التي توطنت بداخل عبد الرحمن قال والاحتقار يقطر من كلماته

- عاملة بمكتبة !!

زفر ناصر بضيق وهو يعد نفسه لاعتراض أعمى الحقائق عن وجود سديم بحياته سواء من والده أو من والدته التي على ما يبدو بأن الصدمة ألجمت نطقها

- نعم .. بمكتبه أنا صاحبها .. هي فتاة من عائلة فقيرة الإمكانيات لكنها على مستوى أخلاقي رفيع جداً .. أبي ما إن تراها حتى تعجب بها بريئة جداً .. هي أشبه بملاك و ..

اقترب الحاج عبد الرحمن من ناصر منحنياً إلى حيث سقطت عكازه ليقدمها إليه وسط ذهول ناصر وهو يقول بصوت زال عنه استهجانه وحمله ما تمكن من إقناع

- ولدي .. قد ظهرت الفتاة على حقيقتها مع أخيك ..

أطرق عمران برأسه وقد أدرك حجم الأذى الذي تسبب به لناصر .. الأذى الذي يمكن أن يطوى أثره بكلمات صادقة واعتراف صريح يصدر منه بحقيقة ما حدث .. لكنه لا يستطيع أن يعترف بما فعله معها

وكيف أجبرها على عناقه وبأنه هو من لاحقها ..
لا .. لا يستطيع .

- أنت رجل مستقيم جداً يا ولدي .. وقد خدعتك بـ

استمر عبد الرحمن بمحاولته إنارة عقل ناصر كما يظن .. وهو يضرب له أمثالاً عدة عن مكر بنات حواء ..

ضحكات أطلقها ناصر أصابت الجميع بالذهول ليقول أخيراً بعد أن هدأ قليلاً

- يا إلهي أبي .. لم أظن بأنك تراني أحمقاً يسهل خداعه .. هل هكذا تراني فعلاً أبي !!

ضحك مرة أخرى وصدمته بوالده -مثله الأعلى الذي ظل سنوات طويلة يتحرك بما يرضيه فقط دون أن يلتفت لما يرضي نفسه بل دون حتى أن يحاول أن

يخلق تعادلاً بين ميوله وميول والده بل نبذ كل ما طمح به في سبيل إرضائه وتعويضه عن طيش عمران- لا تعادلها صدمة

- أصبح عمران أفضل مني !! هل تعرفون أنا أرى ذلك أيضاً .. هو بالتأكيد ليس أحمقاً مثلي

- ناصر .. ولدي

بصوت خافت نادت ناهدة على ولدها وقد رأته على وشك الانهيار بينما طمست من عبد الرحمن زوجها ملامح الكبرياء وحل محلها ارتباك مثير للشفقة

تجاهل نداء والدته وسار بخطوات متألمة نحو غرفته فتحها ليجد بيداء واقفة فيها ودموعها تدل على أنها قد سمعت كل ما دار خلف الباب الموصد

.. تجاهل وجودها وقد أصبح بحال لا يتمكن بعده من أن يشفق على أحد أو أن يواسي أحد .. نفور .. فقط النفور هو الإحساس الذي تملك منه مبعداً أي إحساس آخر .. سحب حقيبته التي لم يتم إفراغها حتى الآن

- ناصر ماذا تفعل بني .. أرجوك ولدي

التفت إلى والدته ليقول بقسوة لم تعهدها فيه

- ولدك !! لا أظن .. بدأت أشك فعلاً بأنك والدتي ..

شهقت ناهدة واغرورقت عيناها بدموع أحاسيس شتى هي من سببتها

- ناصر !!

سار وهو يحمل حقيبته ليقول أخيراً

- يا فتاة لا تسوقك الأماني واهربي من هنا متى استطعتِ .. لن تجدي بين جدارن هذا البيت إلا الألم ..

أخفضت بيداء رأسها وهي تدرك بيأس بأن من تعشمت به نصرتها سيغادر ويتركها لوحدها حتى سمعته يقول وقد تمكنت منه عواطف الرحمه اختزنتها طبيبعته العطوفة رغماً عنه

- راعِ الله في هذه الفتاة أم عمران .. خافِ الله فيها

***

لا تعرف إن كان لها حق بلوم أم خلدون على إخباره بما حدث في ذلك النهار .. كلا .. ليس لديها الحق .. أم خلدون تفعل ما تراه في مصلحته عكسها هي

التي تفكر فقط بما يمكن أن يوثر على علاقتها به ..

أمسكت القلم بيدها تحاول أن تخط على الورقة أمامها مشاعرها علها تستطيع أن تقرأها فتفهم ما يجري .. تاهت أفكارها مع توهان أحلامها في واقعها المرتكز على أعمدة من نار تلسعها متى حاولت الاقتراب عتمة السنوات الماضية التي تحاول بكل جهدها التحرر من ظلمتها تترك بصمتها الكئيبة على حاضرها المقفر لتهدد ببرود مستقبلها وأي مستقبل يكون إذا خلا من وجوده فيه .. بالأحرى لا وجود للمستقبل أصلاً بدونه

***

طاف بعينيه على أركان البيت الذي استأجره مؤقتاً حتى يقرر ما الذي سيفعله بعد قضاءَه ليلته في

الفندق التي لم يحبذ تكرارها لكرهه أجواء الفنادق .. هنا ستضمن له عزلته الحرية التي باتت مطلباً يلح في الحصول عليه .. لا بد أن يهتدي لحل يجعله يصل إلى ما يريد .. كانت حياته من أول مراحلها عبارة عن غلطة كبيرة .. غلطة لم يحاول أن يصلحها أو يتخلص من وزرها بل زاد عليها بأن انصاع لها فركبته .. ركن جسده على إحدى الأرائك المنتشرة كما ركن سابقاً بقية أحلامه .. وطموحاته .. على رف سنين ماضيه ابتلعها الحاضر ويهدد بتلاشيها المستقبل إن لم ينقذها من براثن استسلامه .. تنهد بضيق وهو يفرك جبينه .. ظهورها في حياته كان السبب في جعله يلاحظ بأي حال كانت تمضي به الأيام .. إنسان برمج عقله على موجة واحدة يصاب بالعطب إن حاول أن يستبدلها بأخرى .. وهذا ما كان ..

تقاذفته الأفكار يميناً وشمالاً ترافقها الذكريات حتى تذوق طعم المرارة في فمه .. والدته لم يعترض يوماً على تفضيلها لعمران، وكيف له أن يعترض والعواطف لا يمكن التحكم بها وتحديد من تميل إليه اكثر .. لقد تقبل ذلك كما تقبل من قبل ميل والديه للتحكم به .. لكنه أبداً .. أبداً لم يتوقع أن تصل علاقته بهما إلى ما وصلت عليه !!

***

في صباح اليوم التالي

كم مرة أعادت مطابقة الأرقام من دون جدوى الفرق موجود .. فركت جبينها بقوة ..

- ماذا هدير هل ما زلتِ تراجعين الأرقام !!

رفعت رأسها عند سماعها صوت غزوان الذي يحمل تساؤلاً مقيتاً مثله

- تعرفين أن لا جدوى مما تقومين به .. النقص فعلي، الخزنة تقول هذا

ارتجفت شفتيها حنقاً من صاحبتها التي منعتها بزمها على التفوه بما تريد من كلمات تعبر عن سخطها وغضبها .. حاولت أن تكبت غضبها المستعر فنهضت من مكانها تعيد الملفات إلى رفوفها .. تكبح رغبتها بضرب رأس غزوان بها .. يا إلهي كم تشتهي رميه بشيء ما من الوزن الثقيل حتى يتحطم رأسه العفن

راقب تحركها بعيون فارغة ليقترب منها بخفة ماداً يده ليلامس خصلات شعرها القصيرة الناعمة لتلتفت إليه هدير بعنف وعيناها تقدحان شرراً

- ماذا تفعل ؟!

تراجع قليلاً وهو يقول بصوت مهدئ

- لا شيء .. لا شيء كنت فقط أريد أن أقول بأن لديكِ عشرة أيام .. عشرة حتى تعيدي المبالغ المفقودة .. هذا كل ما أستطيع فعله لكِ

تكلمت بسخرية

- عشرة !! .. ولو قلت سنة لا أستطيع تسديد نصف المبلغ .. غزوان المبالغ لم آخذها أنا .. أنا أفضل أن تعلم الإدارة حتى تجري التحقيق بشأن الموضوع، لن أتحمل ذنباً لم أقترفه

ضم حاجبيه مدعياً مشاركتها أزمتها

- الإدارة ستتهمك أنتِ لأنك المسؤولة عن تدقيق الوصولات وإيداع المبالغ في الخزنة ..

تراجعت إلى الخلف حتى استقرت على كرسي موضوع قرب الرفوف المعدنية واليأس انعكس على ملامحها الجملية

- يا إلهي .. أنا حقاً لا أعرف كيف أتصرف ..

برقت عينا غزوان وهو يراقب طبخته التي أوشكت على النضوج وقد حان وقت تذوقها

- هل تعرفين -اقترب منها أكثر- ربما لدي حل يخرجك من هذه الورطة

رفعت عينيها تنظر إليه بنظرات أمل يتخللها الشك ..

- حقاً !!

- نعم .. بالتأكيد ..

تراجعت هدير بدهشة في كرسيها منكمشة على نفسها عندما ركع على ركبيته قربها

- نعم .. أنا مستعد لتسديد كامل المبلغ .. فقط ..

مد يده يضعها على ركبتها يحركها بخفة في إيحاء واضح

- فقط .. إن سايرتني قليلاً

للحظة فقط جمد الذهول هدير مكانها لترفع بعدها قدمها ترفسه بقوة ليسقط أرضاً وتنهض من مكانها

- أيها السافل المنحط .. هل فقدت عقلك كي تطلب منــ ..

هزت رأسها بغيظ وهي تحاول أن تفكر بأي شيء يبرد نارها كيف يجرؤ هذا النتن على أن يعرض

عليها .. يا إلهي لا تستطيع حتى تسمية مطلبه لتمد يدها إلى كومة الملفات ترميها بقوة على وجهه

- كفي عن تمثيل دور الشريفة ..

نهض غزوان من حيث استقر أرضاً مبعداً عنه أكوام الملفات المبعثرة وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة قبيحة متوعدة

- أصبح مضحكاً بعد ما رأيته
- بل أنت المضحك أيـ

علت ضحكاته الهازئة

- كفي الآن أرجوكِ -برقت عيناه بذكرى مشهد ليس ببعيد- قولي لي ما الفرق بيني وبينه .. لدي من المال ما يغطي على حاجتك .. ها حبيبتي ما رأيك سأكون حريصاً أكثر منه على

سمعتك ولن أحاول التقرب منك في الشارع
في وضح النهار ..
شحب وجه هدير وهي تستمع لكلماته التي تقطر حروفها ازدراء

- مـ .. من تعني ؟

اقترب منها مجدداً وقد وجد في ذهولها بعد أن كاشفها بما يعرف عنها فرصة سانحة لتحقيق ما يشتهي تحقيقه

- قد لا أعرف له اسماً -اقترب أكثر واضعاً كف يده على خدها- لكني عرفت له فعلاً .. معكِ ..

فركت أصابعه بشرة خدها الناعمة وغامت عيناه بالرغبة ..

كابوس؛ كانت تعيش كابوساً مريعاً .. تريد أن تفيق منه بأي ثمن حتى لو كان الثمن هو غرقها في جحيم الوعي الذي حاصرها بنيران أفعالها

- حتى في أحلامك لن تنال مني ما تريده أيها القذر

دفعته جانباً ذاهبة إلى حيث مكتبها تحمل حقيبتها لتخرج من هذا المكان الذي يريد وصمها بعار جديد

***

رغم أنه لم ينظر إليها لكنه لم يعرف كيف استطاع أن يلمح هيأتها المرتبكة .. هي ذاتها بوقفتها المترددة .. ونظراتها التي أوشكت أن تطيح بكل عزمه .. لكن لا .. عليه أن يثبت على موقفه ..
ابتسم ساخراً ويستمع لمنذر يشيد بها و بعملها

وهو يعرف بأن الأيام القلائل التي أمضتها بالعمل هنا ليست كافية كي يحكم على أدائها لكن على ما يبدو بأن منذر أيضاً لم يستطع مقاومتها .. ومن يستطيع !! مع تلك الهالة الملائكية التي تحيط بها أن يقاوم الميل إليها .. لماذا سديم ؟! تنفس بضيق .. لماذا تفرضين علي الثقة بك دون أن تبادليني إياها ؟ ما الذي صوره لك عقلك الطفل ومنعك من قول حقيقة ما حدث ..

- هل تريد رؤيتها سيد ناصر

طرح منذر سؤاله وهو يترقب جواب صاحب العمل بفضول لم يتمكن من كبحه وتساؤل فرض نفسه ماذا تكون بالنسبة له ؟

رفع ناصر بصره إليه ليقول ببرود

- كلا .. أرسل لي استبرق ومعها ملف دراسة الجدوى لمعرض الأثاث

***

- كلا .. ليس أنت يريد استبرق

احمر وجه سديم إزاء النظرات المشفقة التي أطلت من عيني منذر تعاكسها أخرى شامتة من عيني استبرق الحقودة .. تراجعت إلى كرسيها وهي تخفض رأسها .. لم تصدق عينيها عندما رأته يدخل من باب الشركة .. مهيباً جداً على الرغم من العكاز التي ترافق خطواته .. حبست أنفاسها وهي تتأمله بانتظار أن تسقط نظراته عليها .. كم اشتاقت للنظر إلى عينيه .. لكنه لم يفعل، تجاهل وجودها وهو يحيي الجميع ليدلف إلى غرفة المكتب .. وبعد مرور ساعتين اجتمع بها مع منذر

الذي خرج من عنده إلى المكتب الذي تتشارك هي واستبرق به .. ظننت بأنه أخيراً سيطلب رؤيتها .. بل كانت شبه متأكدة بأنه سيفعل .. إن لم يكن شوقاً لها فلكي يعنفها على الأقل لكذبها عليه .. لكنه لم يفعل .. أمسكت بيدها بعض الملفات تعيد ترتيبها للمرة المئة .. لماذا أم خلدون .. لماذا أخبرته !! تمتم داخلها بلوعة

***

مرت الأيام وناصر مستمر بتجاهلها .. يدخل ويخرج يتحرك في المكان تلاحقه نظراتها دون خجل تناديه أن يلتفت إليها دون جدوى .. وقد صم مشاعره عن الإصغاء لها .. خلال تلك الأيام واظبت سديم على الذهاب إلى الكورنيش الذي أخذها إليه في ذلك الصباح البعيد .. أخبرها حينها بأنه مكانه

المفضل فلا بد أن يقرر في يومٍ ما المرور به أليس كذلك ؟ ومع توفر الوقت لديها مع اختصار ساعات عملها الذي أمر به ناصر أصبح جلوسها على المسطبة قرب الشجرة التي اتكأ عليها ناصر شبه يومي .. ابتسمت بمرارة وهي تذكر دخولها لمكتبه تحاول الاعتراض على تقليص ساعات عملها ببرود لم تره منه أبداً أجابها

- أليس هذا ما كنتِ تريدين .. ساعات عمل ضئيلة كي تعتني بوالدتك .. أستغرب اعتراضك

رفرفت بجفينها وقد أحست بصقيع كلماته يثلج روحها فيجمد الأمل بداخلها .. ارتجف جسدها وهي تحاول مجدداً أن تقنع نفسها بأنها ما زالت تعيش دفء نظراته التي غاب عنها شوقه إليها

- ناصر ..

قاطعها دون أن يفسح لها مجالاً أن تكمل ما تريد أن تقوله

- سيد ناصر .. نحن هنا في العمل وأنتِ موظفة عندي لا تنسي هذا

قال ما قاله وهو يهبط ببصره إلى الأوراق بيده .. لم يبالِ بها ولا بما تريد .. لقد جنت على نفسها وقضت على حلمها بيدها (انسي بأنكِ تعرفيني) رنت كلماته تدق باب وعيها .. هل هذا ما تريده ناصر تريدني أن أنساك فعلاً ؟!!

وقد حدث ما تمنت ووجدته ذات يوم يجلس في المكان ذاته وما إن التفت ناحيتها حتى هرولت ليس نحوه بالتأكيد بل للناحية الأخرى حيث

اختبأت وراء جذع شجرة الكاليبتوس تراقبه دون أن تتجرأ على أن تصدر صوتاً ..

***

- علاء أنا بحاجة لرؤيتك

أغمض عينيه وهو لا يصدق نفسه .. هدير تتصل به وتطلب رؤيته !!

- في الوقت الذي تريدين ..

رد عليها بلهفة أحستها وارتجف قلبها لها فأغلقت السماعة قبل أن تتفوه شفتيها بما يصر عقلها على كتمانه

***

في صباح اليوم التالي

فتخت الخزانة تبحث عن ما ترتديه بأصابع مرتبكة أخذت تقلب في محتوياتها للمرة العاشرة كأنها بمماطلتها هذه تمنع لقاءها المحتوم به .. رفعت يدها تبعد خصلات شعرها من على وجهها بحركة تعكس مدى توترها .. كم من الأسابيع مرت وهي تحارب شوقها إليه تمنع حتى خيالها من أن يسرح به حتى لا تضعف وتحن إلى لقائه !! ولكن ما منعته الصلابة هزت دعائم الحاجة .. أمسكت بيد مرتجفة فستانها الأحمر رفعته إلى وجهها لتدسه فيه تشم رائحته

- رأيته بواجهة المحل وتخيلتك فيه .. ارتديه لأجلي حبيبتي ..

بللت قماشه بدموع أهطلتها الذكرى التي استحضرت بكل تفاصيلها .. لن يكون الأمر كما كان من قبل .. لا ينفع بأن يكون .. رمت الفستان ليستقر على أرض الخزانة الخشبية وتحمل بدلاً منه ملابس اعتادت ارتداءها

ما إن خرجت هدير حتى قفزت سديم من فراشها بعد أن كانت تراقب تحركات شقيقتها من تحت الغطاء الذي انحسر عن عين واحدة شبه مغلقة استخدمتها للتأكد من خلوّ الغرفة .. اتجهت إلى الخزانة ذاتها وفي نيتها استعارة أحد أحذية هدير، عليها أن تبدو اليوم بأفضل ما تستطيع، نقبت تبحث عن بغيتها لتلتقط أصابعها الفستان الأحمر تمتمت مستغربة

- عجيب .. هدير لم تحب يوماً اللون الأحمر

قلبته بين أصابعها لتتركه وشأنه مستقراً حيث كان بعد أن لمحت على مقربة منه الحذاء المنشود

- سأبدو أطول به

هتفت بسرور غير مبالية بقياسه الذي يصغر قياس قدميها بدرجتين

***

دخلت بخطوات تحط بيأس على العشب الندي للمنتزه .. جالت ببصرها في المكان .. لتقرر خطواتها ملاحقة اللا مكان إلى أن حطت عليها النظرات لتذهب لتجلس في مكانه المعتاد وقد أفاقت من نومها على قرار لن تتراجع عنه، ستواجهه ولن تختبئ عنه ليس وهي ما زالت تمني نفسها بإنعاش سعادتها وإنقاذها من وضعها المحتضر .. جلست وعينيها ترقبان الممر الوحيد الذي يؤدي إلى حيث تجلس بانتظار أن تهل عليها قامته المديدة .. رفعت يدها لتنظر إلى الساعة التي قيدت معصمها بخفة .. تباً لم يتبقَ وقت طويل إذا لم يظهر ستضطر إلى الذهاب قبل أن تراه .. تململت قليلاً في مكانها لتحرك أحد قدميها المضغوطة بحذاء ضيق .. أخذت تخط بالتراب المكوم بالقرب من المسطبة التي تجلس عليها آثار انتظارها الذي يثير الشفقة .. شفقتها على نفسها .. لكن كلا لن تبحث بهذا الأمر مجدداً، يكفي كم السرور الذي سيصيبها عند رؤيته .. تحركت نسمات شتوية اقتبست من نسمات الصيف عذوبتها لتبلغها وقد حملت نفسها بعض نفحات من عطره لتشهد بصدقها وهي تهمس بشغف بأنه قد جاء لترفع سديم رأسها لترقب هطوله كحبات مطر تتلقفها الأرض اليابسة التي تمثلها هي بخشوع الحامدين ..

ما إن لمحها تجلس على المسطبة التي يحتلها هو بالعادة .. حتى تسمر في مكانه بعينين لا ترمشان، نظر إليها وهي تتقدم نحوه بخطوات ثابتة لا تشبه خطواتها لتضيف عينيه عندما يرى الشحوب اعتلى ملامح وجهها الجذابة

- مرحباً ناصر

هل فعلاً توقفت النسائم عن هبوبها الناعم وصمتت الأرجاء من تغريد عصفور شارد وحتى من نعيق غراب ناقم .. عند سماعه نبرات صوتها تحييه بتوجس

- ماذا تفعلين هنا ؟

ردت عليه تقاوم خيبة أمل تريد أن تهزم إصرارها على مواجهته

- أريد أن أتكلم معك

بابتسامة ساخرة رأت سديم بأنها أفضل من لا شيء أجابها

- ولمَ لمْ تتكلمي في الشركة ..
- أردت أن أجتمع بك بمكان لستُ فيه موظفة عندك .. ربما .. ربما يقنعك هذا بأن تتكلم معي .. و .. تنظر إلي !!

اعوج فمه وهي ترد عليه كلماته التي قالها لها سابقاً .. ليضرب قلبه بقوة وهي تناشده النظر إليها !! كأن صورتها لم تنحت بكل تفاصيلها في ذلك الذي يخفق برعونة عندما تردد ذاكرته اسمها !! يا رب السماوات لمَ وضعت هذه البلهاء في دربي .. هتف داخله بضيق

- ألم أخبركِ سابقاً بأن تنتبهي للكلمات قبل أن تتفوهي بها ..

رسمت ابتسامة ضعيفة على شفتيها كي تغطي بها ارتباكها الذي كعادته فرض سلطانه على روحها و أفكارها

- لا أفكر كثيراً باختيار الكلمات معك ناصر .. أقول ما يطرأ بذهني وما أشعره فقط

رفع حاجبه بتعجب ساخر

- أحقاً !! وسيل الكذبات الذي يهد حواجز صدقك .. هل يتدفق بتلك العفوية بحضوري أيضاً سديم ؟! ها .. أجيبني

أخفضت عينيها أرضاً وهي تتلقى تعنيفه الساخر .. ليتك تفهم يا ناصر كم من الصعب أن تتفوه بالصدق دون أن تنشل أطراف الروح رعباً من صداه في نفس من ينسكب في أذنيه

اقترب منها دون أن تشعر رغم ثقل خطواته وارتطام رأس عكازه المعدنية بساقه من شدة توتر أعصابه

- أجيبي .. هل تظنين بأني سأظل دائماً مخدوعاً بملامح براءتك المزيفة !!

شهقت بشدة ورفعت إليه عينين غشيتهما الدموع وتهدج صوتها متوسلاً

- كلا ناصر .. أرجوك ليس أنت !! لا تظن بي السوء .. أطلب مـ

هدر بوجهها مقاطعاً كلماتها دون أن يبالي بالخوف الذي ظهر جلياً على وجهها وكل ما يرتسم أمامه هو شبكة الكذب التي حاكتها حوله بغبائها

- أطلب .. أريد .. هذا كل ما أعرفه عنك .. الطلبات .. كم تكثرين منها !!

سقطت دموعها تشق أنهار حزن على خديها بينما علا صوتها باحتجاج اختزنته داخلها لسنوات طوال

- ماذا كنت تريد مني قوله .. كيف أخبرك بما فعله أخوك .. كنت ستقول عني كاذبة مخطئة وتصدق أخاك، دوماً تحدث الأمور بهذه الطريقة .. لا لن أستطيع المجازفة بقول الصدق .. لست قادرة على أن أمر بذات التجربة مرة أخرى .. شهقت ببكاء عنيف .. لست قادرة .. لمَ لا تفهمني !!

برقت عيناه بالخطر وهو يشاهد انفجارها بوجهه وكلمات ماضية تفوهت بها في هذا المكان

تناشده أن يربطها ببعضها .. مد يده يمسك ذراعها ويجذبها إليه بقوة والتعابير المندهشة التي علت وجهها والخوف الذي سكن أعماق عينيها لم يردعه

على استحصال ما يريد منها من معلومات تنير دربه المظلم معها

- أي تجربة تعنين ؟؟ هاا .. تكلمي ما الذي حدث في الماضي وجعلك هكذا ؟ -ضاقت عينيه وهو يشاهد الشحوب يغزو وجهها- هل تعرضتِ لحادث ما ؟؟ أخبريني هل هو سبب العزلة التي التزمتها في سن مبكرة ؟!

حاولت التلمص من يده التي تشبثت بأعلى ذراعها كأنها طوق من حديد يخنق حريتها .. ليمد يده الأخرى وتسقط عكازه أرضاً ويمسك بذراعها الآخر يميت أي محاولة لها بالخلاص من محاصرته

- اتركني .. ناصر .. قلت لك اتركني

قربها إليه حتى التصقت به وعيناه لم تغادر عينيها

- لن أفعل .. ليس قبل أن تتكلمي

الفصل السابع والعشرون

اليوم سيراها أخيراً .. كان اتصالها به في مساء يوم أمس مفاجأة غير متوقعة .. فتور كلماتها لم تتمكن من خبوّ البهجة التي عمت حواسه عند سماعه صوتها وهي تطلب رؤيته .. هدير .. هدير؛ تمتم اسمها بوله شديد .. مد يده إلى الجوارير الملحقة بسريره العريض ليخرج من أحدها ألبوم صور متوسط الحجم بغلاف أحمر .. ابتسم بسخرية وهو ينظر إلى أثاث غرفته بألوانها الكئيبة، فقط هذا الألبوم بلونه يعكس رغباته ويحتوي أنقى أحلامه .. ركز بصره عليه أخذ يقلب الصور الفوتوغرافية .. لتتغير ابتسامته إلى أخرى حنونة .. وقد أطلت هدير من بين صفحاته .. اليوم سيفعل المستحيل حتى تظل إلى جانبه لم يعد يقدر على بعدها

***

- تكلمي سديم ..

هزها بعنف غير مبالٍ بشيء والغضب المستعر بأعماق نفسه يكاد يلهب من حوله .. تساقطت دموعها والخوف بدأ بزحفه على أطرافها التي انحلت منها قوتها متسربة بعيداً عنها حتى بدت كأنها دمية قماش أوقعها سوء الحظ بين يدي صبي مشاغب .. شهقت ببعض اسمه والظلام يسدل ستاره على بصرها

- نـــ .. نا ..

ليأفل نور إدراكها و تسقط بين ذراعيه فاقدة الوعي دون أن تكمل ما تريد قوله ودون أن يعلم هو إجابة لسؤاله

***

- حسناً نعمان .. لا تقلق بشأن ناصر سأقنعه بطريقتي تكفل أنت بإقناع أبنتك .. كما اتفقنا أجل ؟ جيد .. الله معك

أغلق عبد الرحمن الهاتف بهدوء وتفكيره منصب بطريقة يعيد فيها ناصر إلى عقله ..

- يا حاج ؟

التفت عبد الرحمن ليجد ناهد تقف بتردد على عتبة باب مكتبه

- ما الأمر ناهدة ؟

تقدمت بخطوات متردد إلى الداخل مغلقة الباب من خلفها وبصوت متوسل

- يا حاج دع ناصر يتمتع بحريته قليلاً .. اترك له أمر اختيار الفتاة التي يريدها زوجة عله يعود إلينا مره ثانية

قطب الحاج عبد الرحمن حاجبيه بينما علت شفتيه ابتسامة ساخرة

- ماذا ناهدة لأول مره أراكِ مهتمة بما يحدث لناصر .. هل هي صحوة متأخرة ! أم كي تتساوى الرؤوس ويكون ناصر شبيه عمران بعصيانه !!

نظرت إليه ناهدة بعصبية وقد ضاقت ذرعاً بتفكيره الضيق الأفق

- كلا بالتأكيد لست أفكر بهذه الطريقة الغريبة عبد الرحمن .. لكن .. لكن أخاف أن يضيع ناصر منا .. ماذا لو تزوج تلك الفتاة ؟

نهض عبد الرحمن من مكانه بغضب

- هل جننتِ ناهدة ؟ كيف يتزوج من ناصر من مراهقة صغيرة تلاعبت بعقله .. هي لم تبلغ العشرين حتى
- وماذا في ذلك .. ناصر شارف على الثلاثين فقط وليس الخمسين ..

اقتربت منه أكثر تحاول تهدأته واستخدام تأثيرها عليه لأول مره بشأن يخص ناصر وليس عمران

- هذا ناصر عبد الرحمن مصدر فخرك .. ألم تتباهى دوماً بنضجه وحسن تصرفه .. لمَ تغيرت الآن وأصبحت تشكك بقراره ؟

لم تدرك ناهدة بأنها قد استنفذت حظها مع عبد الرحمن وأن توسلها لسنوات من أجل عمران قد قضى على تقديرها وعندما جاء أخيراً دور ناصر كانت قد فقدت حظوتها عند زوجها !!

- دعي عنكِ هذه المحاولات لم تعد تجدي نفعاً .. وئام فقط من تلائم ناصر ولأني أريد له الأفضل أنا مصر على أن أزوجها له
- لكن -تكلمت بانفعال- ألم يقل ناصر بأن وئام خُطبت من قبل زميل لها ؟

تحرك عبد الرحمن بخطوات ثقيلة الوقع راقبتها ناهدة بقلب وجل، عشرتها لسنوات معه جعلتها تدرك بأنه لن يفوت فرصة تساعده على تحقيق ما يريد .. وإن لم تكن هناك من من فرصة فإنه بعناده يخلقها ليحرك الأمور لصالحه ..

- لا يوجد شيء ليس له حل .

وجاءت كلماته الأخيرة لتؤكد ظنونها .. كم تمنت لو كان يوظف عزيمته هذه على تحقيق ما يصبو إليه نحو عائلته لكانت حياتهم مختلفة جداً .. ابتعدت عن المكان وسارت متجهه إلى الطابق العلوي وقد أجلت الكلام مع زوجها إلى حين آخر ربما يكون فيه مستعداً لسماعها دون ان يشكك بدوافعها. لا تنكر بأنها قد فضلت عمران على ناصر لكن هذا لا يعني بأنها لا تريد له السعادة، إنه ولدها أيضاً وبقراره الأخير وإصراره على الزواج من الفتاة التي يحب جعله أقرب إليها من أي وقت مضى وقد بدا يشبه عبد الرحمن يضمحل مع كل كلمة تفوه بها .. تناهى إلى سمعها صوت خافت بترنيمة خاشعة أخفضت رأسها لدى سماعه .. إنها بيداء .. عضت على شفتيها وهي تقترب من الغرفة التي استقرت بها الفتاة بعد تلك الليلة والقريبة من جناحها كي تضمن عزلتها عن عمران لتضع أذنها على الباب وتستمع لها وهي تتلو القرآن بصوت باكٍ .. يا رب العالمين؛ هتف داخلها أصبحت أدرك أي نوع من الفتيات هي لكن .. ليس باليد حيلة ..

***

- يا إلهي .. سديم صغيرتي أفيقي

أغمض عينيه وقد بلغ غضبه من نفسه حداً من الصعب الوصول إليه، سحب جسدها المرتخي حتى استقر بين ذراعيه حيث كان جالساً على أرض المنتزه العشبية .. مد كفه يبعد خصلات شعرها الأسود الناعمة من على وجهها الشاحب ليلاحظ وابتسامة مريرة ارتسمت على شفتيه بأنه على خلاف العادة مرسلاً على كتفيها .. لم تربطه اليوم

.. ارتجفت يده وهي تحط على صفحة وجهها تلمس بشرتها الناعمة وصوته يشاركها توترها

- سديم ..

زفر بضيق عندما لم يجد بادرة استجابة تصدر منها .. ضم جسدها المنزوع الإرادة إليه بينما تسللت يده من على وجهها إلى حيث استقر قلبها ليشعر نبضاته البطيئة التردد .. من الذي أثار رعبك أكثر حتى تفقدي وعيك حبيبتي .. أنا ؟؟ أم ما تخشين ذكره لي !! زحزح بصره الملتصق بملامحها مرغماً إياه على الشرود بعيداً عن فتنتها ليستقر حائراً على صفحة مياه دجلة التي تموجت بنعومة ما إن حطت نظراته عليها كأنها تواسيه همومه وتهمس له بأنها قد ملأها الشوق لسماع همسات العاشقين وبأنها منذ سنين لم تحتوي بين ضفتي راعيها سوى الأنين .. وكم تأمل هي بالتغيير !!

دفء تسلل داخلها مزيحاً بعزم الصقيع الذي سكن أطرافها مذيباً ثلوج خوفها التي تراكمت على وعيها .. فتحت عينيها بصمت مستكين ليحتل وجهه الحزين كامل حواسها فلم تعد تعي غيره وقد علمت بأن الدفء الذي هيمن على روحها كان لوجودها الآمن بين ذراعيه ..

حركة رقيقة للجسد الناعم أعادت بصر ناصر إليه هتف بلهفة

- سديم هل أنتِ بخير ؟

رطبت شفتيها ونظرها معلق بعينيه وقد ارتجف جسدها بتوتر

- أنـ .. أنا ..

لم تستطع أن تربط الكلمات ببعضها، حاولت التحرك مبتعدة عنه وعينيها لا تزالان تغرقان في عينيه ليوقف هو هروبها منه بأن شدها إليه أكثر وهو يقول بصوت خافت

- صغيرتي

تباً .. تمتم بضيق وهو يرى الدموع في عينيها ..

- لم أقصد أن أخيفك صدقيني .. سامحيني .. أنا ..

صمت فرض عليه عندما رفعت سديم كفها تمنعه أن يكمل .. راقبها تستوي في جلستها وهي تقول بصوت مرتجف

- أسامحك !! وأنت لا تفتأ تبعدني عنك

تهدج صوتها منذراً بعاصفة من البكاء تهد ما تبقى من عزمه إن عصفت وهي تسترسل بالكلام غير مبالية بما أفصحت عنه تلك الكلمات

- لست قادرة على تحمل تجاهلك لي .. معاقبتك الصامتة آلمتني جداً

ليصراخ داخلها بما لم تجرؤ شفتيها على البوح به .. لقد عشت أنواعاً مختلفة من الألم لكن ألم بعادك عني مختلف عن كل ألم .. بدونك لن يكون للغد من مجيء وسأعيش الأمس طوال عمري .. لا تبعدني

- طوال أسابيع وأنا أحلم بلحظة عودتك .. وعندما حدث ما حدث لم أجرؤ على قول الحقيقة لك .. ليس لأني لم أحمل تهديدك لي على محمل الجد لكن لأني وجدت في

إخبارك تهديد أكبر .. ناصر أنت لا تعرف كم أنت مهم جداً بالنسبة لي

سكتت بعجز وقد باحت له ببعض مخاوفها دون أن تتمكن من إضافة المزيد .. سكنت مياه دجلة عن جريانها لتترقب مع سديم رده على اعترافها المنقوص، وهل ستسمع منه أخيراً ما يبرد خاطرها ؟ طال صمته وطال معه تمعنه النظر بملامحها وقد سرح فكره بما حمله على المجيء من البصرة بأسرع ما يستطيع ليشتت تركيزه

- أخبرتني أم خلدون بأنكِ أوشكتِ على الإغماء بين ذراعيه من شدة رعبك ..

هتف داخلها بجزع وقد أدركت ما يرمي إليه، لمَ أم خلدون ؟ لمَ ذكرتِ التفاصيل

- لا تقارن نفسك به أو بأي أحد آخر ناصر أنت مختلف ..

أكدت بنعومة ..

- مختلف جداً عنهم

لمحت الحيرة تحفر عميقاً بملامح وجهه الرائع التقاسيم ليهفو قلبها إليه حتى نطقت عيناها بما يعتمل بداخل روحها من أحاسيس حملته أخيراً على النطق

- كيف تفعلين هذا !!

أحاطها بين ذراعيه ليحط رأسها مستكيناً على صدره لتسمع ضربات قلبه الهادرة تنغم كلماته

- كيف تشعلين النيران بداخلي لتطفئينها بهذه السهولة !!

***

- ماذا تقولين ؟!!

نظرت إليه بيأس وهي تقول

- ما سمعت .. إن لم أدبر هذا المبلغ خلال أيام قليلة سأدخل السجن لا محالة

نهض من مكانه يسير في أرجاء الغرفة وهو مدرك لمراقبتها له .. الفرصة التي انتظرها جاءت إليه من حيث لا يتوقع .. استدار مواجهاً إياها وهو بقول بصوت أراده مقنعاً

- لكن حبيبتي المبلغ كبير جداً

اشتعل الغضب بعينيها لتنهض بعصبية متجهة نحوه .. وقفت قريباً منه وهي تقول بعنف

- أنت ثري .. هذا المبلغ لا يكون شيئاً بالنسبة إليك

وضع كفيه على كتفيها محاولاً تهدأتها

- لا تتوفر لدي السيولة هدير .. صدقيني

دفعت يديه عنها

- أنا زوجتك .. من واجبك أن تخرجني من الورطة التي وقعت فيها ..

- حبـ

هدرت دون أن تبالي بما ينوي أن يقوله بما كظمته بقلبها أشهر طويلة

- كل ما حدث لي بسببك لو لم يتصور ذلك العفن بأنني أخوض معك علاقة شائنة لما تجرأ أن يعرض علي ذلك العرض المقرف .. وأنت بكل برود تقول لي بأنه لا سيولة لديك !!

رفع رأسه بقوة عند سماعه كلماتها ليمسك ذراعها بقوة ساحباً جسدها إليه

- أي عرض ؟ عن ماذا تتكلمين

حاولت التملص من قبضته دون جدوى

- لا شيء .. دبر لي المال فقط -حاولت الفكاك مجدداً لتقول بانزعاج- اتركني علاء

شدد من قبضته دون أن يراعي الأذى الذي من الممكن أن تتسبب به قبضته

- قولي هدير ..

شهقة ألم أوشكت على التسلل من بين شفتيها

- ماذا تريد مني أن أقول .. أليس الأمر واضحاً ؟ غزوان القذر كان يخطط لهذا منذ زمن وأنا لحماقتي لم أنتبه لما يدور من حولي

ترك ذراعها فجأة وقد اختزنت ذاكرته الاسم

- ستساعدني علاء، أليس كذلك ؟

استمر بالنظر إليها بصمت أثار جنونها فهجمت عليه تضربه بقبضتيها

- تباً لك .. أنا لا أستجدي منك، من واجبك مساعدتي .. سنة ونصف لم أقبل منك دينار واحد .. حتى لا تظن بأني قد قبلت الزواج منك بالسر من أجل نقودك .. حتى ..

لم يرف له جفن وهو يتلقى ضرباتها حتى أنه لم يحاول أن يمنعها من توجيهها نحوه

- اهدئي هدير ..

جائها صوته صارماً يحمل في طياته تأنيباً مستتراً

- كيف تظني بأني أشك ولو للحظة بسبب زواجك مني !! أنا أعرفك أكثر من نفسي حبيبتي

تراجعت متهالكة إلى الكنبة التي كانت قد احتلتها سابقاً وهي تتمتم بتعب

- إذاً لماذا ترفض مساعدتي ؟

نظر إليها بشوق جرف عنه أي تعقل ليسكنه هاجس وحيد يلح عليه بالتنفيذ ..

أحست به يقترب منها ليجلس جوارها وضع يده على كتفها مربتاً عليه بحنو ليقول أخيراً

- الهرب هو الحل الوحيد

لتتجمد مكانها بعد أن كادت تسقط نفسها بين أحضانه

***

- أوقف السيارة سأنزل هنا

رفع لها وجهاً باسماً لا يعبر عما يجول بداخل صاحبه

- ولماذا ؟

ابتسمت بحياء وهي تقول بصوت خافت

- كي لا يرانا أحد ونحن معاً

اتسعت ابتسامته لدى سماعه نبرة صوتها الخجولة ليقول لها دون أن يوقف السيارة كما أرادت

- عشت لأرى اللحظة التي تنتبه بها سديم لما يدور حولها

ضحك بصوت عالٍ وهو يرى الامتعاض مرسوماً على ملامح وجهها الجذابة عندما أدركت تأنيبه المستتر على تصرفاتها الطائشة كما يسميها

- حسناً لكل شيء بداية

زاد ضحكه وهو يركن السيارة أمام بوابة العمارة

- وقد اخترت أن تبدئي من النهاية صغيرتي ..

أطفأ المحرك ليلتفت إليها قائلاً وهو يزفر أنفاسه بتوتر وقد تغير مزاجه مما أثار القلق بداخلها

- سديم -صمت قليلاً- اسمعيني جيداً، لكي نتقدم خطوة إلى الأمام يجب .. يجب أن يكون الصدق هو الدعامة الحقيقية لأي خطوة نقرر اتخاذها .. هل فهمتِ ؟ أعرف بأني قد ضغطت عليكِ في المنتزه وأنا أعتذر منكِ لذلك .. لكن .. هذا لا يمنع بأن هناك أمور تحرصين على إخفائها .. لا .. لا تقاطعيني أنا لست ساذجاً صغيرتي ..

اقترب منها ماداً كفيه كي تعانق كفيها الصغيرين بلطف ودون أن يحول عينيه عن عينيها أكمل قائلاً

- أنتظر أن تكشفي لي عنها .. إن شئتِ أن يكون لنا مستقبل معاً .. عليكِ بالصدق هل فهمتني ؟ سأنتظرك -شدد على كلماته- لكن ليس لوقت طويل والأمر بيدك الآن

سحبت كفيها بهدوء دون أن تتفوه بكلمة .. أبعدت عينيها عن مناجم العسل بعينيه وقد شعرت بأنها قد حوصرت بزاوية ضيقة جداً .. بعاده أم ماضيها ؟! ابتسمت بمرارة لقد خيرها بين نارين أيهما أخف لهيباً كي تستقر فيها !!

راقبها بصمت مشفق وهي تترجل من السيارة .. آخر ما يوده هو أن يغرقها بالحيرة لكن لا بد لها من أن تتعلم أن تثق به، عليه أن يعرف إن كان يعني لها ما تعنيه هي له .. هي تحبه هو متيقن من هذا لكن عليها أن تترجم حبها له بفعل يقنعه.

عليها أن تتخلص من خوفها، أن تتغير من أجله، ألم يتغير من أجلها !! وجودها في حياته جعله يرى فيها من العيوب ما لم يرغب برؤيته وقد حان دورها

ترجل ببطء من السيارة، أمسك عكازه ليلحق بها وما إن تحرك بضع خطوات

- سيد ناصر

التفت إلى الوراء ليجد حارس البناية يحث الخطا نحوه

- سيد ناصر
- نعم
- سيدي الشقة رقم خمسة، الرجل والمرأة منذ الصباح وهم بداخلها

قطب ناصر حاجبيه واحتاج لثوانٍ حتى يعرف عن ماذا يتكلم الحارس .. لتومض الذكرى بمشهد جسد المرأة الوقحة وهي تنظر إليه بتحدٍ سافر .. تباً لقد نسي أمرها !!

- لا بأس .. بمجرد وصولي إلى الشركة سأرسل لك عدداً من العاملين فيها .. واطردهما من الشقة
- لكن سيدي
- لا تهتم بما يقولونه اطردهم بالقوة إن توجب الأمر
- بأمرك

تباً كأن يومه يتحمل المزيد .. مشى إليها بخطوات عكست عصبيته

- سديم اتركي السلالم اليوم .. و استقلي المصعد

رفعت حاجبيها مندهشة من معرفته بإحجامها عن استخدام المصعد .. أبتسم بخفة يجيبها عن سؤال عينيها

- حارس العمارة يطلعني على كل ما يدور فيها

بصوت خافت ردت

- إذاً أنت تعرف بأني أخاف المصاعد

لا يريد للصدفة أن تجمعها بمرتادي الشقة .. فتاة بمثل براءتها يتحمل هو مسؤولية إبعادها عن أمثال تلك المرأة الموبوءة بالعبث الماجن ورفيقها

- نعم .. لكني سأكون معك ..

طرح عليها سؤالاً بصوت يقارب خفوت صوتها وهو مدرك بأنه لن يحصل على إجابة صادقة منها

- هل تخافين وأنا معك ؟

أطرقت برأسها أرضاً .. ماذا تقول له ؟ أن قربه منها هو أكثر ما يخيفها بهذه اللحظات ؟ ماذا لو عاود الكلام بالموضوع ذاته ؟ ماذا لو عادت له عصبيته وطالبها بردٍ على سؤال المنتزه ؟ كم تتنمى لو لديها الجرأة كي تخبره برغبتها بالعودة إلى البيت ..

- ليس الأمر هكذا لكن ..

تحركت إلى الوراء قليلاً وهي تحاول أن تجد عذراً مقنعاً .. لتتسمر مكانها عندما غزت وجهه ابتسامة مشرقة

- ما هذا في قدميك ؟

رفرفرت بجفينها مرتكبة وهي تنظر إلى قدميها مستغربة سؤاله

بقلم ..حنان..S

- حذاء !!

تكلم بصوت مرح زاد من تشويشها من تغير مزاجه من لحظة لأخرى

- حذاء بكعب عالٍ !!

ضحك مستمتعاً .. حذاء بكعب وشعر مسدل .. كم من التغيرات أحدثتها بمظهرها الجذاب أصلاً !! أشرح صدره خاطر بأنها من أجله

بتردد نطقت بأغبى ما يمكن قوله الحقيقة

- أردت أن أبدو اطول

تعالت ضحكاته .. هذه الفتاة قربها يذيقه في الساعة الواحدة مئة نكهة ونكهة من المشاعر ..

- مـ .. ماذا !! لماذا تضحك ؟

نظر إليها بحنو وقد أيقن بأنه قد سبب الإحراج لها .. توردت وجنتيها بعد شحوب أراحه قليلاً

- طولك مناسب جداً سديمي

البريق الذي لاح بعينه وهو ينطق بتلك الكلمات الموجزة جعلتها تتمنى لو تنشق الأرض وتبتلعها من شدة حرجها ..

- سـ .. سأذهب الآن

- المصعد ؟

- كلا .. السلالم

صدرت منه تنهيدة مستسلمة، لا يود أن يجبرها على رفقته .. ليس غبياً ليدرك بأنها قلقة من تواجده لوقت أكبر معها

- لا بأس .. سيرافقك الحارس

قطبت حاجبيها مستغربة

- لكن لماذا ؟

يا إلهي ما الذي قلته الآن ليعاوده العبوس مرة أخرى ..

- هكذا .. سيرافقك وانتهى .. و شعرك -بهتت نظراتها وهو يكمل بنزق- اربطيه لا تدعيه حراً هكذا ..

تمتم بداخله .. هو أجمل من أن يطلق سراحه .. أشار بيده إلى الحارس كي يتبعها بينما ذهب هو نحو المصعد .. لو كانت ساقه سليمة لرافقها هو رغماً عنها

***

لم يكد يمر على استقراره في مكتبه دقائق قليلة حتى رن الهاتف الداخلي

- نعم ؟

جاءه صوت استبرق المائع النبرات

- سيدي الحارس يريد مقابلتك

زفر بملل؛ يبدو بأنه لم يفهم ..

- دعيه يدخل

ثوانٍ دلف بعدها الحارس إلى مكتب صاحب المكان وهو يلهث بعد أن ركض ما تبقى من درجات السلم إلى الأعلى حيث الشركة

- ماذا هناك ؟ لقد أخبرتك بأني سأرسل لك ..

قاطعه الحارس والكلمات تأبى أن تستقر بجوفه لمدة أطول

- الآنسة سديم .. الآنسة سديم .. تعرف -من بين لهاث أنفاسه أكمل- تعرف المرأة في الشقة رقم خمسة تركتها معهم في الشقة !!

الفصل الثامن والعشرين

وقفت سديم تنظر بذعر ممتزج بعدم التصديق إلى علاء يقف خلف هدير على عتبة باب الشقة التي حاول الحارس إبعادها عنها يحاول منعها من الخروج .. للوهلة الأولى ظنت بأن خطواتها تجمدت مكانها لكنها لم تكن وإلا كيف وصلت إلى داخل الشقة تقف وسطها والارتجاف يهز داخلها بقوة ..

هل هو صوت هدير من يحاول أن يشق جدار ذهولها .. هدير .. علاء .. علاء .. علاء ظل اسمه يطن بأذنيها، من صرخ باسمه؟

- علاء زوجي سديم لا تفهمي الأمور خطأ كعهدك دائماً

صراع دائر بين حواس سديم، هل تطلق دموع ذعر حبستها سنيناً طوال ؟ أم تطلق العنان لضحكات مريرة تشهد للزمان بأنه أجاد لعبته ؟ وكان الفوز للضحكات

- كفي عن الضحك

زمجر بضيق .. كيف وصلت إلى هنا .. كيف عرفت عنوان الشقة ؟؟ أسئلة كثيرة ولدتها تلك الدقائق القليلة التي اخترق وجودها المقلق محاولاته إقناع هدير بالهرب .. الهرب من هذه التي تقف أمامه وجسدها كله ينتفض ذعراً ترجمتها ضحكاتها الهستيرية .. تذكره ببشاعة ما ارتكبه من إثم ..

بعين لم تعكس ما يجول بخاطره من مخاوف كان يراقب هدير وهو تحاول أن تقنع شقيقتها

- انتظري .. سأجلب لك عقد الزواج موثقاً بالمحكمة كي تصدقيني ..

وكل ظنها بأن حال سديم المضطرب كان سببه عدم تصديقها .. سارعت بخطوات واسعة نحو الغرفة الحمراء التي شهدت بوادر دمارها القادم لتسمرها مكانها كلمات تفوهت بها سديم بخفوت

- لمَ تفعل هذا !! .. ها ..

حاول أن يزيح بصره عنها .. أراد بكل قوته أن يرسم تعبيراً ساخراً على وجهه يعينه لصد القادم من أقوالها .. لكنه لم يتمكن سوى النظر إليها بوجه مكفهر

ليعلو صوتها بإنكار طمست ملامحه لسنوات

- ألم يكفِك ما فعلته بي ؟! ألم يكفِك تحطيم حياتي وتشويه طفولتي ؟! تحولت الآن إلى شقيقتي .. ما نحن بنظرك ألعاب تلهو بها

تراجعت هدير خطوات إلى الوراء تنقل بصرها بين الاثنين

- سديم .. أنتِ

التفتت سديم إلى هدير بوجه يماثل السحاب بشحوب لونه و التي اقتربت منها وقد راعها شحوب وجهها ونظراتها التي سلطت على علاء بتعبير فارغ

- أنتِ أختي !! -كررت وهي تصدق- أختي .. كيف تتحملين مجرد النظر إليه ؟ كيف تتقبلينه !! بل و تتزوجين منه !! من هذا المسخ العديم الضمير

أمسكت هدير بمعصم سديم بقوة وهي تهدر بعنف

- كفي عن جنونك هذا وامسكي لسانك ..

سحبت سديم معصمها من قبضة شقيقتها

- أنا مجنونة !! -ضحكت ساخرة- بل أنتِ المجنونة التي أوقعت نفسها بيد سافل مثله .. ماذا .. ها .. تذكرت ..

أكملت بسخرية وقد استدارت بجسدها نحو شقيقتها لتواجهها بالكامل فاختفى علاء من مرمى بصرها ولكنه كان ما يزال تحت رحمة نظرات هدير التي كانت تتنقل بينه وبين سديم ..

- أنتِ لم تصدقي يوماً ما فعله بي .. تعرفين، دوماً كنت أسأل نفسي لمَ هدير هكذا ؟؟ لمَ تعاملني بهذا الجفاء ؟ لمَ لمْ تصدقيني يوماً رغم أن والدتي صدقتني، عمي الشيخ صدقني، فقط أنتِ لم تصدقي ؟ جعلتني أدور

حول نفسي لسنوات وأنا ابحث عن الأسباب .. تارة ألوم نفسي وتارة أخرى ألوم الفقر وهجر والدي الذي حملك مسؤوليته وولى هارباً .. لكنها أبداً لم تكن الأسباب، أليس كذلك؟ كان هو السبب !! رجحتِ كفته علي أنا شقيقتك ..

بيت صغير من الأماني -التي عشمت نفسها بأنها يوماً ستتحقق- بنته على رمال شاطئ من المستحيل، هدرت به موجة الماضي لتنسفه كأنه لم يكن يوماً .. كل كلمة تصدر من بين شفتي سديم تميت أي اعتراض تريد أن تتفوه به، ألقت ببصرها إلى بطل حلمها ومأساتها .. تبحث بيأس عن أي بادرة احتجاج مقنعة يصد بها اتهامات شقيقتها، الاتهامات هي ذاتها التي كان دوماً ما يفندها بعبارات يسكبها بأذنيها سنين طوال حتى تشربت روحها بها

وصدقتها .. لمَ الآن عندما حان الوقت للمواجهة يلتزم الصمت !! .. الصمت المريب.

- ماذا أخبرك ؟

اقتربت سديم أكثر وهي بغمرة هيجانها من هدير، لم تنتبه لوقفتها كلوح جامد خال من الحياة ..

- دعيها هدير مجنونة .. هي طفلة مجنونة أساءت الفهم .. هل هذا ما أخبرك به ؟ الشيء الوحيد الذي كان صادقاً به بأني كنت طفلة .. والآن أنا لست كذلك

ابتعدت عن هدير لتتجه إلى علاء الذي اسودت ملامحه وتغيرت سحنته بعزم شحذه رغبتها بالخلاص من الكبت الذي عانت منه لسنوات من الكوابيس التي رافقتها في النوم وفي اليقظة .. شحذته رغبتها بطي ما فات والنظر إلى الآتي .. الآتي الذي أوشك أن يفلت من يدها

اقتربت منه مرغمة نفسها على التقدم دون التقهقر إلى الوراء .. تحرك قدميها الثقيلتين خطوة .. تليها خطوة .. والزمن يتتبع خطواتها ليقلص السنوات الماضية كأنها لم تكن .. سنة مع كل خطوة ..

- هل تستطيع الآن النظر في وجهي وإنكار ما فعلته لي !! إنكار ملاحقتك إياي في سنين طفولتي تغريني بالهدايا والألعاب وأنت تنوي إفراغ رغباتك المشينة بي !! وبأن تجعلني هدفاً ضعيف المقاومة لميولك المنحرفة !!

الماضي بكل ما يحويه من الأسرار أشرع نوافذه للغافلين عن حقيقة ما حدث في تلك السنين في

فرصة لا تحين إلا كل حين وحين لاستراق النظر لتفاصيل قديمة قد أغفلتها البصيرة ..

- قل بأني كاذبة

صرخت بوجهه فانكمش على نفسه ..

- لمَ لا تتكلم ؟

صوتها الضعيف حمله على النظر إليها .. التقت نظراتهما ليشاهد ما حرص طوال عمره على أن لا يراه بعينيها وقد تلاشى منهما كل إحساس بالحب كان قد سكن روحها وعكسه زجاج عينيها النرجسي طوال سنوات معرفته بها ..

- هدير .. أنا

- أنتَ ماذا ؟ لمْ تفعل ما قالت ؟

ارتجف بيأس وهو يحاول إطلاق كذبات حافظت على وجودها قربه .. لكنه لم يستطع وقد شعر

بأنه متعب .. ومنهك جداً على أن يتفوه بكذبه أو أن يحاول مجدداً ستر ما مضى من أفعاله، بإنكار أبهتته كلمات سديم

- لم أكن أقصد أن أؤذيها

تمايل جسدها وقد تجلت لها الحقيقة .. حقيقة من أحبت وعشقت وهوت .. كما تجلت لها حقيقة خطأها هي بحق شقيقتها الصغيرة .. كما قالت سديم لقد رجحت بغباء كفته عليها .. تحركت بخطوات مثقلة بعار كانت أضعف من أن تواجهه إلى خارج الشقة

- هدير !!

صوت سديم المنادي لم يستطع خرق الغمامة السوداء التي حلت على فكرها ونظرتها الدونية إلى نفسها، جعلتها لا ترعي انتباهاً إلى ما يدور حولها لا لمحاولة سديم إيقافها و لا لتلك الدمعة

الشريدة التى استقرت بعجز على طرف عين علاء وهو يرقب بانكسار ابتعادها عنه للأبد .. ولاحتى للجسد الرجولي الذي استقر على عتبة الباب المفتوح للشقة والذي أوشكت على الاصطدام به لو لم يسارع هو لتلافي تماسهما بقرف .

نظر ناصر إلى المرأة الوقحة وقد انحنت قامتها العنيدة التي طالما انتصبت بتحدٍ وقح عند رؤيتها له وتهدل كتفيها لتستقر نظراتها أرضاً تلاحق خطواتها بصمت، رغم كل شيء بدا مهيباً .. ألقى نظرة على وجه سديم الشاحب رغم التماع نظراتها ليدرك بذهول الشبه الذي كان دوماً مصدر حيرته، كانت تشبه سديم !! لتتجه بعدها نظراته إلى الرجل المنهزم الهيئة والذي في يومٍ ما --بدا له

بعيداً جداً- قد أنقذها من تحرشه بها، إنه ابن خالها !!

ما إن شاهدته واقفاً عند الباب حتى رف قلبها وقد أحست بأنها تحتاجه أكثر من أي وقت مضى وبأنها أكثر من مستعدة للبوح بكل ما أرق صفو حياتها لسنين طوال، همست وهي تتحرك باتجاهه

- ناصر

توقفت في مكانها عند رؤيتها للتغيير في وجهه وقد لاحت نظرات مستنكرة في عينيه

- ماذا تقرب لك تلك المرأة ؟

بهتت سديم ليس لسؤاله نفسه بل لنبرات صوته التي تقطر احتقاراً وهو يلقي عليها سؤاله، بضياع أجابت

- شقيقتي

وكأنها نطقت بتعويذة حملته على التراجع مبتعداً عنها .. ذهول فرض سلطانه على حواسها من رد فعله أخرها عن اللحاق به، لدقيقة أو أكثر أوصلته فيها خطواته إلى المصعد لتسارع سديم بالتحرك نحوه ناسية تواجد علاء في الشقة والذي كان هو أيضاً غارق بدوامة ماضيه فلم يشعر بشيء سوى بالوحدة وهي تغزو كيانه ليسقط متهالكاً على الأريكة الحمراء التي جمعته وهدير في يومٍ ما

- ناصر .. ناصر انتظر

دخل إلى المصعد بخطوات ثاثبة، مد يده إلى زر الإغلاق ليضغطه، توقف ثوان وهو ينظر إلى وجهها الذي حمل تعبيراً متسائلاً ليقول أخيراً ببرود

- لا أريد رؤيتك مرة أخرى -ضغط الزر- نهائياً

أغلق باب المصعد .

***

كم مرت من الساعات وهي تسير بدون هدى في شوارع بغداد الرئيسية منها و الفرعية وقد طرقت قدميها دون وعي منها دورب لم تخطُها يوماً ..

- الله أكبر .. الله أكبر

صوت الأذان حملها على رفع بصرها إلى السماء بشرود لتدرك بضبابية أن وقت الغروب قد حان .. ملت قدميها التجوال في الشوارع كما مل عقلها من محاولته لاستيعاب الأفكار الفوضوية التي عبثت به حتى أهلكت منطقه .. تفحصت المكان الذي صودف أن توقفت حركتها فيه، جدران قديمة، حاويات تبصق

نفايتها، استقر قرب أحدها كلب شارد يحرك قوائمه بتبخر كاذب .. لتسأل نفسها بسخرية أي زقاق منزوٍ ؟ عن أي مدينة قد أوصلها ضياعها !! تحركت لتجلس بهدوء في إحدى زوايا الجدارن المظلمة تنشد غفلة الزمان عن وجودها في دائرة ضحاياه علها تستعيد بعض قوتها ..

يا إلهي لحظة واحدة أحتاج للحظة واحدة فقط يجتاح فيها الهدوء نفسي التي انتشل منها الدهر سكينتها لأستعيد فيها قوتي و لأشعر بأني قد عدت .. قد عدت أنا ..

لكن ليست كل الدعوات مستجابة .. ليس وهناك خطة قدرية ينبغي تنفيذها

***

ذرع غرفته جيئة وذهاباً للمرة الألف، كلت قدماه ولم تكل نفسه المتألمة من سوء صنيعها من الحركة والدوران بدون هدف من دون جدوى !! سنين طوال منذ ذلك اليوم المشؤوم الذي استسلم به لفضول التجربة المحظورة وهو يعاني من ألم مبرح، ألم أجبر على إخفائه عن الجميع حتى لا يرى في عينيهم ما رآه في عينيها هي حبيبته .

مسخ .. مسخ .. هكذا نعتته سديم كيف عرفت بأنه هو أيضاً يظن بنفسه مسخ !! بل حتى أسوء من المسوخ وقد تلاعب به الشيطان

تباً، صرخ بضيق وقد رمى بقبضته المتوترة على الحائط وأخذ يهذي كالمحموم .. كيف لأحد أن يفهم ما أمر به .. كيف لهم أن يفهموا ..

سقط جسده أرضاً وقد أنهكه الدوران لساعات في مساحة الغرفة التي على الرغم من اتساعها كانت ضيقة، ضيقة جداً كالكون الذي يحويه بما رحب .. كان بمفرده وحيداً ذليلاً وفريسة سهلة لأسوء الهواجس .. صعب جداً على المرء أن يجد نفسه وقد مضت خطواته موغله في طريق من الصعب العودة عنه .. ليجلس في وسطه و عينه ترقب ما مضى متحسراً وقلبه وجل من القادم .. والأيام التي تمضي تؤكد انفلات الأمور من السيطرة .. الندم لن يكون كافياً وحتى التوبة أيضاً لن تكون كافية وشائبة من الرغبات، ما زالت تشوه النفس الضعيفة كمرض خبيث يأكل الجسد ويمتص الروح دون أن نشعر به ..

كان يعرف بالضبط متى تحولت ملامسته لسديم الصغيرة من مداعبة بريئة إلى شيء آخر، ما إن

يشعر به حتى يبعد نفسه عنه بالقوة .. ليعود من جديد .. ويتراجع أيضاً من جديد كان يسمح لها دائماً بالهرب، كان يثير فيها الرعب متعمداً حتى تهرب .. تهرب بعيداً عنه وعن شيطانه المستمر بالوسوسة في إسماع نفسه المتراخية العزيمة .. يهون عليه خطأه ويبرره له .. لا بأس افعل ما تريد وبعدها استغفر .. إن الله سيغفر لك دائماً .. لا بأس .. لا بأس

تنفس بصعوبة وقد فتحت الذكريات أبوابها الموصدة لتغزو الحاضر خارقة قوانين الزمن ليعود علاء مجرد فتى مراهق يتحين الفرص للتفلت من حلقة الجامع الدينية لبيت صديقه الذي ماثله عمراً حيث يقوم الأخير بسرقة بعض الأشرطة الفيديو والمجلات الحمراء من والده .. والده الذي

يعمل في جهاز المخابرات، فرع مراقبة الإعلام والثقافة والذي من ضمن واجباته مشاهدة كل ما يرد إلى البلاد عبر الحدود من أشرطة أفلام، برامج ومجلات، وتحديد من منها المسموح بالتداول ومن لم يكن، أو ما يتم القبض عليه من المهرب منها إلى الداخل عن طريق مطار صدام أو نقطة طريبل الحدودية أما لمَ هذه الأشرطة والمجلات بالبيت !! فهذا الذي لم يعرفه ولده أو علاء ولم يحاولا التفكير بالسبب، فقط وكل همهم منحصراً بما سيشاهدون .. سن خطر وحرية خنقت عند علاء حتى راقب احتضارها بأم عينيه وانفلات بلا حدود عاشه صديقه ..

لكن هذه المرة كان المضمون شيئاً مختلفاً، مختلفاً جداً عن ما مضى وأبشع من أن يمكن تصديقه، لم

تكن هناك نساء شقراوات وسمراوات فاتنات بملامح أوربية يرافقهن رجال، كانوا أطفالاً، مجرد أطفال وكبار !!

أغمض عينيه يريد الهرب من استعادة أحاسيسه في تلك اللحظات، الغثيان المدمر وشعور بالتقزز جعله ينطوي على نفسه لأيام في غرفته، وحدهة فرضها على نفسه حتى تزال تلك المشاهد من ذهنه لتخترقها سديم ببراءة في أشد الاوقات إحراجاً، في ذلك اليوم بدأ صراعه مع نفسه .. صراع خاضه وحيداً دون أن يتجرأ على التصريح به لأي أحد حتى والدته التي اختارت أن تغض النظر لينغمس أخيراً بتذوق غير حاسم لنوع من الانحراف، لم يتمكن معه الذين دوماً ما كانوا يقرون كل ما هو منحرف باسم الحرية المشوهة الأهداف على التجرؤ

والإقرار به .. وكيف لهم ذلك وطوق البراءة يحكم سيطرته على شذوذهم ويلزمهم بحدودهم مرغمين.

الماضي كشريط سينما استمر بعرض ما فات بإصرار رغم رفض ضحيته التمعن به لكن الأمر ليس بيده والعرض سيبقى مستمراً حتى ينتهي بقرار يفرضه القدر .

***

- هل أنتِ متأكدة من كلامك ؟ إذا دونتِ اعترافك فلا مجال للتراجع

رفعت هدير بصرها إلى الضابط وقد حملت نظراتها إصراراً عجيباً يكاد يشككه بقواها العقلية

- أنا متأكدة .. لقد قمت باختلاس الأموال من مكان عملي وأود تسليم نفسي

أسند الضابط مرفقيه على سطح مكتبه وهو يمعن النظر إلى المرأة الشابة التي تقف أمامه بهدوء غريب تدلي باعتراف أغرب لا يمكنه تجاهله

- بالعادة تقوم الدائرة المعنية بإبلاغ وزارة الداخلية عن طريق مخاطبة رسمية تعلم بوجود حالة اختلاس مع تقديم الموظفين المشتبه بهم .. لكن أن يقوم المختلس بذاته تسليم نفسه ولمركز الشرطة أمر يحمل على التساؤل !!

صمت حل بالمكان بعد أن رفضت هدير أن تجيب على تساؤلات الضابط الذي ظل ينظر إليها بتفكر ليقول في محاولة أخيرة لحملها على التراجع

- هل تدركين ما تقولينه ؟! باعترافك هذا حتى إذا تم تسديد مبلغ الاختلاس لن تُعفي من العقوبة ..
- أدرك ذلك .

ردت عليه بإيجاز أجبره على الإرسال بطلب الشرطي كي يدخلها الزنزانة بإيقاف مؤقت حتى يتم تسفيرها إلى سجن الكاظمية القديم والذي يتم فيه توقيف النساء حتى إتمام التحقيقات والبت في قضاياهن حين يتم رفعها إلى المحكمة .

***

رسمت سديم ملامح ابتسامة شاحبة على شفتيها وهي تحاول أن تطمئن والدتها متعللة بأسباب شتى تبرر تأخر شقيقتها ولكنها للأسف لم تكن مقنعة واستبد القلق بوالدتها ولاح عليها الضعف أكثر وقد سكن

القلق روحها فمنع جسدها العليل من الاستكانة بهدوء كالعادة لطلب الراحة .. رفعت بصرها إلى الساعة المعلقة على الحائط، إنها العاشرة ليلاً .. أين أنتِ هدير !!

- لم تتأخر أختك يوماً إلى هذا الوقت، مؤكد أن مكروهاً أصابها

نظرت سديم إلى والدتها التي برز إرهاقها جلياً على تقاسيم وجهها الحنون بعجز وقد قالت كل ما يمكن قوله لتهدئة مخاوفها دون جدوى .. عادت بذاكرتها إلى الساعات القليلة الماضية بتردد وهي حتى الآن لم تستطع استيعاب ما رأت وما سمعت .. هدير وعلاء متزوجان .. يا إلهي كم كانت قاسية وهي تهجم على شقيقتها، كان عليها أن تفهمها وتعذرها، إنها مخدوعة .. خدعها علاء كما خدعها

هي من قبل بعطفه الأخوي الذي كان يخفي به حقيقة نواياه تجاهها .. تلوى قلبها بالعاطفة وهي تذكر ذهول هدير وانكسارها الدخيل على شخصيتها حتى أنها لم تنبته لوقوف ناصر الذي استغربته في وقتها عند الباب .. ناصر .. تنهيدة متحسرة صدرت من بين شفيتها رغماً عنها .. لا أريد رؤيتك مرة أخرى .. لك ما تريد ناصر .. لك ما تريد

الفصل التاسع والعشرين

تسلل كما اعتاد طوال عمره بخطوات تحاكي خطوات الشياطين بخفتها وهي تسلل إلى نفوس الضعفاء الرازحين تحت ضغوط الملذات المحرمة متجهاً نحو غرفتها .. جلس بصمت على الأرض متكئاً برأسه على باب غرفتها الموصد يستمع لصوت تحركاتها، لتمتمات دعواتها التي لم يتمكن من هتك سريتها بتصلص أذنيه .. كان يبحث عن حل مع نفسه التي لا تنتهج مساراً واحداً يريحه ليعرف ماذا تريد منه وينتهي .. نفسه التي ضاق ذرعاً بتذبذبها التائه .. الضال بأحيان كثيرة بعيداً عن كل صواب .. رفع يده ليطرق بابها لتستقر يده في الهواء ثوان لتعاود يده السقوط إلى جنبه متخاذلة .. وقد صاحبه إحساس مشوش بالضياع .. دقائق مرت ليعم غرفتها السكون .. إلا .. من وقع خطواتها المترددة التي قادتها نحو باب غرفتها ..

- من ؟

زين خوف -زاد من ازدراءه لنفسه- نبرات صوتها الناعمة وقد غادرها غنجها القديم ليتجمل بهدوء رقيق زاد سحره بمراحل

- قالت لي أمي بأنكِ ستغادرين غداً أو بعد غد على الأكثر

كأنه أحس بها وهي تطرق برأسها إلى الأرض بإيماءة موافقة عززها تأكيد خافت

- نعم .. سأعود إلى بيتي

تحنحن يجلي صوته ليطلقه بتساؤل

- كيف ؟ أقصد ماذا ستقولين لهم ؟!

وصله صوتها وقد غذي بنوع من الاستخفاف لم يميز إن كان هو هدفها أم هي أو ربما كليهما

- سأتدبر أمري

حيرة أتاهت عنه الدورب حتى ضجر من دورانه فيها

- الشهرين لم ينتهوا بعد .. ابقي

أجابته بسخرية مريرة

- عرض مزري .. يحمل في طياته إهانة و

قاطعها بسرعة

- لم أقصد أن أهينك .. أنا .. ماذا لو عرضت عليك أمراً آخر
- عرض ؟!

بتردد من لا يعرف كيف يوضح ما يجول بفكره من أمور

- نعـ .. نعم نبقى معاً ..

تهيأ له بأنها قد هزت رأسها بالرفض وقد لاح بذهنها ذكريات ماضية حاضرة جمعتهما بقوة بمصير لا يرحم

- أريد أن تطوى هذه الصفحة من حياتي عمران
- نطويها معاً

بيأس مزق داخله وشتت فكره، سمعها ترد عليه

- إذا بقينا معاً .. ستبقى الصفحة ذاتها مفتوحة أمامنا وسنجبر على قراءة أفعالنا الماضية بها .. وربما سنزيد من سطورها لكننا أبداً لن نستطيع طيها

بعزم من زال يحبوا بداخله كوليد في نشأته الأولى

- لن تكون سطور بأفعال سوداء .. سأتغير ..
كما أنتِ تغيرتِ سأتغير أنا أيضاً
- لمَ ؟

بشرود أجابها وإحساسه بالانهاك قد أثقل أطرافه فلم تعد نفسه تطيق تيهها وقد تاقت لضوء يرشدها السبيل

- إحساسي بحريتي وأنا أطرق كل الدروب المحظورة بثقة طائشة كان يمدني براحة لم أعد أشعرها .. لقد مللت تذوق النكهات المحرمة .. ربما .. ربما حان الوقت لأتذوق نكهة مختلفة قد أستسيغها
- وربما لا

ابتسامة بطيئة بدأت تتسلل إلى روحه لتغزو كل جوارحه

- وربما نعم

***

- أمي ماذا .. ماذا ستفعلين !!

أمسكت رقية السماعة دون أن تعير أهمية لدهشة سديم وهي تقول بخفوت كأنها تحاول إقناع نفسها بصحة ما تفعله

- لابد أن يقوم أحدٌ ما بالبحث هنا ..
- أنا .. أنا سأبحث عنها أمي أرجوكِ توقفي

نظرت سديم إلى أصابع والدتها بجزع وهي تطلب رقم بيت خالها

- ألا يكفيني القلق على أختك كي أزيده بالقلق عليكِ وأنت تجوبين شوارع بغداد في الليل .. لا يوجد لدي سوى خالك

***

تحرك ببطء خارجاً من حمام غرفته بعد أن غسل وجهه بالمياه الباردة وكأنه بذلك يغسل ما تركته ذكريات السنوات السابقة من أثر على ملامح وجهه لتقوده خطواته إلى باب الغرفة هارباً من انفراده بنفسه وقد صحى فيه شعور أتعبه تتبعه .. وما إن وصلت قدماه إلى أولى درجات السلم ناوياً الهبوط إلى الطابق الأرضي حتى اخترق اسمها سكون عزلته ليثير زوابع الفوضى من جديد

- ما بها هدير ؟!

***

رمى المخدة جانباً بعد أن تقلب على فراشه للمرة العاشرة على الأقل ليترك أخيراً محاولته لاستجداء النوم كي يحل ضيفاً حتى لو لساعة واحدة يتخلص بها من واقعه على ضفاف جفنيه و ينهض مستوياً بجلسته وهو يفرك جبينه بضيق .. صورتها لا تفارق خياله نظرتها الأخيرة إليه وهو يغلق باب المصعد بعد أن ألقى بوجهها تلك الكلمات التي لا يعرف كيف طاوعه قلبه على نطقها تلح بقوة عليه لا تتركه وشأنه .. كانت .. تباً .. كانت عيناها تخبره بأنه قد خيب ظنها به !!

***

بعدها بساعات ..

- سديم هل تخفين شيئاً عني يا ابنتي ؟

جائها صوت والدتها يحمل توسلاً قبض على قلبها بشدة .. التفتت إلى والدتها التي استلقت بهدوء زائف على سريرها والعرق المتصبب من جبهتها ينبئ عن مدى تدهور صحتها

- لمَ تقولين هذا أمي ؟

بصعوبة رفعت رقية جفنيها المنسدلين لتنعكس على قزحية عينيها النرجسيتين صورة سديم .. وقد تملكها شعور مبهم الأسباب بأن هناك شيئٌ قد حدث لهدير وبأن لسديم علمٌ بالأمر .. بضعف قالت

- لا أعرف .. أشعر بأنكِ تخفين عني أمراً ما .. أصدقيني القول يا ابنتي، هل حل سوء بشقيقتك ؟

اقتربت من والدتها لتنحني على رأسها وتقبل جبينها البارد جداً و المتعرق بآن واحد لتقول بهدوء وقد أدركت بأن للصدق وجوه كثيرة لا بأس إن استعارت أقلها قرباً من الحقيقة وتقنعت به

- لا أعرف أمي .. صدقيني لا أعرف أين هي

تنهيدة حزينة مرقت من بين شفتي والدتها حملت سديم على الجلوس على طرف سريرها لتمسك يدها تحاول أن تهدئها وهي تقاوم رغبتها بالاختفاء من أمام بصر والدتها خوفاً من أن ينزلق لسانها باعتراف يُذهب ما تبقى من قوة والدتها

- لا تقلقي أمي سيأتي خالي قريباً بخبر يقين عنها .. ألم تقولي بأنه سيشرع بالبحث عنها ؟

ابتسامة تحمل ملمحاً من يأس تغلغل عميقاً بداخل رقية ارتسمت على شفتيها

- الوقت بنيتي لا يسير بصالحي

قطبت سديم حاجبيها وهي تقول لوالدتها

- ماذا تقصدين أمي ؟!

الخدر تسلل محتلاً جميع أطرافها .. أنفاسها التي بدأت تثقل أعلمتها بأن العد العكسي قد بدأ ..

تحاملت على نفسها لترفع يدها الأخرى لتحط على كف سديم المحتضن كفها

- سامحيني بنيتي ..

- أسامحك !! ماذا تقولين أمي على ماذا ؟

انطوت نظرات رقية تحت تأثير إحساسها بالتقصير في حق أولادها

- لم أكن أماً جيدة لك أو لأخوتك ..

هزت سديم رأسها باعتراض شديد

- بل كنتِ أروع أم .. بل أروع ما حدث لي بكل حياتي

رفعت رقية عينيها إلى ابنتها بوهن وقد تجلى فيهما صفاء غريب واستسلام للقادم يمزق نياط القلب

- أنتِ طيبة يا ابنتي، طيبة جداً حتى تتسامحي بحقك عندي ..

بضغطة ضعيفة على أصابع سديم المحتضنه كفها أوقفت رقية اعتراض سديم

- أعرف أخطائي وأدرك على من وقع تهاوني .. لقد كنت زوجة متفانية وأم مقصرة .. مقصرة جداً .. لقد تركت أولادي يتخبطون في الحياة دون معين دون ناصح .. هدير قد تحملت الكثير مني ومن والدك .. هدير .. يوهمك حضورها بقوة غير موجودة فيها .. بينما هي ضعيفة ضعيفة جداً على عكسك أنتِ يا ابنتي رغم كل ما حدث لك لكن داخلك لم يتشوه وحافظتِ على صفاء سريرتك .. أعرف بأني لا يحق لي أن أفخر بك لأني لم يكن

لي سوى دور هامشي بحياتك عكس الشيخ ذو الفقار رحمه الله هو من انتشلك من بئر ضياعنا المدلهم السواد .. و ..

- أمي أرجوك توقفي .. أنتِ لم تتركيني لوحدي أبداً ولم تقصري معي أبداً أبداً .. من صدقني عندما حاول الكل أن يكذبني ؟ من ترك رغيد العيش في بيت خالي وتحمل شظفه كي لا أجبر على مشاهدة ابنه أمامي؟ من أدخل عمي الشيخ حياتي وسمح له بأن يكون له دور فيها ؟ من غيرك أمي !! قاطعت الجميع من أجلي وحاربتهم من أجلي حتى هدير لم تسمحي لها أبداً أن تشكك بكلامي، دوماً كنتِ بـ .. بجانبي ..

شهقت سديم كلماتها الأخيرة وقد انحنى جسدها قرب جسد والدتها المسجى باستسلام .. تترجى

عاطفة سامية من قلب والدة مهما شح منحها إياها فإنها تبقى أكرم عاطفة يمكن لبشر أن يمنحها لها ..

- كنتِ دوماً ملاكي الصغير الطيب

سالت دموع سديم على خدها وهي تستعيد ذكرى حديث أجري منذ سنين طوال مضت

- والطيبون دائماً ما ينالون السعادة ..

ثقل جفني رقية كما ثقلت كل أطرافها، فقط روحها كانت تتململ بضجر داخل سجن جسدها وقد بان بوضوح لها بأن صبرها قد نفذ

- نعم يا ابنتي لا بد لهم من أن ينعموا بها حتى لو بعد حين .. اعتني بأخوتك .. سأنام الآن ..
- وتتركيني أمي .. لوحدي ..

بعينان غشيتهما الدموع وابتسامة تعلن عن قرب قدوم ساعة الوداع همست برقة

- أترككِ في رعاية الله يا ابنتي

صوت ضجيج خرق سكون الغرفة الصامتة إلا من همهمات والدة وابنتها

- أين هي أمك ..

تعإلى بكاء ترف ليصل إلى أسماع سديم لتنهض على عجل خوفاً من أن يوقظ والدتها أحد الأصوات من سبات ظنته قابلاً للاختراق

- أين رقية ؟

نظرت سديم إلى خالها الذي لم تره منذ سنوات وقد اسودت ملامحه من شدة الغضب

- أمي نائمة

تحرك غير مبالٍ باعتراضات سديم متوجهاً إلى الغرفة التي خرحت منها لتوها وهو يهدر

- يجب أن تعرف أي نوع من البنات أنجبت .. لقد جعلتما أنتِ وأختك ولدي فريسة لأطماعكما ..

تحركت خطواتها محاولة اللحاق بخطوات خالها

- خالي ..

التفت نحوها مزمجراً

- لا تناديني خالي .. أنا أقرف من قرابتكما إلي أنت وأختك التي ضحكت على ولدي وتزوجت منه

ابتلعت سديم إهانته لها كما ابتلعت كلمات هجوم توضح فيها من يقرف مِن مَن ؟! وكثفت جهودها كي توقف دخوله إلى غرفة والدتها .. وقفت أمامه

تسد عليه الطريق وكلماتها تخرج متسارعة وسط أنفاسها اللاهثة لتسابق أحداث يوم وليلة يعادلان عمر بأكمله

- أرجوك خالي .. أمي مريضة جداً .. ولا تعلم بما فعلته هدير .. أرجوك قلبها ضعيف لن تحتمل

لكن اعتراضها الهزيل لم يلقَ انتباهاً من خالها زهير الذي أزاحها بقوة من أمامه لتسقط أرضاً ويدخل الغرفة وقد زاد بكاء ترف ليرافقه بكاء حاتم الذي استقر مختبئاً تحت الكنبة بخوف من هجوم هذا الغريب

- رقية انهضي من نومتك .. و انظري إلى بناتك وأفعالهن ..

نهضت سديم من مكان سقوطها لتلحق خالها وتحاول أن تمنعه من أن يقول المزيد .. دخلت إلى الغرفة بسرعة لتجده واقفاً متسمراً مكانه وقد اعتلى ملامحه تعبير غريب .. لتقف هي مكانها ..

ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيها، عينيها المنسدلتي الأجفان تتشربان من نور ملأ الغرفة بأركانها .. وهناك يهمس في أذنيها بكلمات أشاعت البهجة بداخلها .. كلمات تحث روحها على التحرر من قيودها لتتخلص من ركام هموم رزحت تحت أثقالها سنوات عمرها .. ليتم القضاء و تنطلق أخيراً إلى رحاب كون تفتح أبوابه فقط لأمثالها

بخطوات صامتة لا تتجرأ على كسر هيبة الراقدة .. اقتربت سديم من والدتها وارتجاف ملك روحها خوفاً من تأكد ظن تملكها

- أ .. أمــ .. أمي .. أعادت بجمود ذاهل
هتافها الخافت .. أمي هل تسمعيني ؟

لتطلب المعونة من كفها ليتزحزح من جانبها ويهبط على كتف والدتها يهزها برقة دون جدوى .. لتهطل الدموع وتتأكد الظنون ..

رفع زهير كفه على فمه يضغطه بقوة يمنع شهقة بكاء لا يليق بالرجال إطلاقها وقد تأكد له موت رقية وقد تجلى له سوء صنيعه معها ..

كما للمحتَضَر شريط يعرض له في لحظة كل عمل قام به بحياته كي يجزى أو يعاقب بعد أن تفارق الروح الجسد .. هناك شريط من نوع آخر يعرض أمام الأحياء عندما يفقدون أحد أحبائهم يعرض لهم فقط كل ذنب ارتكبوه بحق من فقدوه .. ليرزحوا تحت ثقل تأنيب الضمير لفترة من الزمن ليعاودوا

تكرار نفس الخطأ .. فلم توجد حتى الآن العبرة التي تستقر طويلاً بنفوس بني آدم ..

ولن يكون هذا لقصور العبر إنما هو مجرد قصور في الألباب التي نادراً ما يتم استخدامها بما ينفع

الأم تلك الإنسانة التي تجلت بها رحمة الخالق بأروع ما يكون وقد غرز بداخلها عاطفة لا يطيق سواها حملها تجاه أولادها الذين كحال سديم ربما يدركون بأن في رحيلها عنهم راحة تستحقها فيتقبلوه بنوع من الإيثار نادراً ما يسكن نفوسهم

- ارتاحي أمي وتمتعي بما ادخر لك .. فقد آن الأوان .

قبلتها دموعها قبل شفتيها هامسة بضعف وهي تسدل الجفون على أحن العيون بأصابع تحاكي بشحوبها الزمان القاسي

- في أمان الله

وكان وداعاً يحمل في طياته وعداً بلقاء آخر ربما سيكون هو الأخير .

***

وقف أمام باب دائرتها بتردد، حل الصباح دون أن يعرف لها أثراً، تجول في كل شوارع بغداد ومستشفياتها دون جدوى .. ساعات مضت أخذت معها ستار الليل ببحث دون طائل .. اتصل خلالها بوالدته من أحد كابينات الهواتف العمومية كي يعرف إن عادت هدير إلى بيتها ليسمع ما لم يتوقعه .. ماتت رقية تلك المرأة التي حاربت بيدها وأسنانها وجوده المريض في حياة بناتها .. زفر بضيق؛ كل مأساة تحدث لها كان له يد فيها .. لا يعرف كيف سيصلح الأمور بينهما إن كانت قابلة

أصلاً للتصليح .. تباً .. فليجدها أولاً وبعدها يفكر كيف ستكون الأمور بينهما .. سار بخطوات عكست للناظر صدى ثقة هو فقط يعرف زيفها متجهاً إلى قسم المحاسبة .. التقطت أذناه تهامس الموظفين لتتحجر عيناه على مشهد رجال الشرطة داخل الغرفة التي تعمل بها هدير .. ضرب قلبه بقوة وهو يتوقع الأسوء.

***

انخفض رأسها أرضاً وقد عدمت الطاقة لرفعه .. صوت عبد الباسط المعطر بآيات القرآن يطبطب على قلبها الموجوع لفراق والدتها، أخوتها ترف وحاتم التصقا على جانبيها كما كانا يفعلان مع والدتها وهما يراقبان الحضور المتشح بالسواد بنظرات مرتابة .. الحضور الذي كان يغمرهم

بنظرات مشفقة كرهتها .. ونفرت منها كما نفرت من صيوان العزاء، ذلك الملمح القديم لإعلان فقدان أحد الأحبة والذي لم تتقبله يوماً وقد أرغمت على القبول به، أما خالها وزوجته فقد بدءا بتمثيل دور تدرك سديم بأنهما سرعان ما سيملان منه .. لكنها لن تمهلهما الوقت ولن تنتظر منهما عاطفة شحوا في منحها لأمها في حياتها ليتصدقوا بها على أولادها بعد مماتها .. لن تسمح لهما بأن يفرضا سيطرتهما على حياة أخويها ويعرضا ترف لما سبق وأن تعرضت هي له .. ذلك التصريح الجاف الذي صدر من بين شفتي خالها بعد دفن والدتها بأنهم سيذهبون للعيش في بيته كان بمثابة رخصة منحت لها حق الفرار من مصير لا يمل ملاحقتها .

***

أنهى المكالمة بهدوء مزيف وهو يهمهم بوداع خافت .. الوحدة التي أحس بها تحوطه من كل جانب تكاد تزهق أنفاسه .. رجع إلى الوراء يسند جسده إلى ظهر الكرسي .. ناصر ترك فراغاً كبيراً لا يريد حتى أن يفكر بحجمه لعلمه بأنه فراغ لا يمكن حصره بسعة معلومة .. ناصر الذي رباه منذ الصغر على أن يكون رجلاً يعتمد عليه صلب المشاعر والأحاسيس فاجأه بفورة من الأحاسيس قضى حياته يحاول أن يحرره من قيودها .. لقد سقط ناصر بغباء في شرك الحب كما سقط هو سابقاً بحمق بحب والدته .. ناهدة .. التي كره ضعفه أمامها وكره لولده أن يشعر بهذا الضعف وبأنه مملوك لمزاج امرأة يفرح بفرحها ويشقى بحزنها .. كم هو قاسٍ سقوط الأشداء .. طرقة باب أعادت لعبد الرحمن قناع الصلابة الذي دأب لسنوات على التقنع به

- ادخل ..

دهشة خفيفة حملت تساؤلاً عميقاً أطلت بعينيه رغماً عنه ليزيلها منهما كأنها لم تكن عندما رأى بأن الطارق لم يكن سوى عمران !

***

مزاجه المتعكر حمل جميع موظفيه على الهرب من مواجهته .. نهض واقفاً بانزعاج واضح من مكان جلوسه خلف مكتبه متجهاً إلى النافذة ليقف عندها متصلباً راكناً جسده إلى حافة النافذة، مد يده إلى جيبه مخرجاً علبة السجائر بنزق غير معهود بطباعه ..

نفث الدخان بغضب كأنه ينفث معه همومه وأفكاره وقد غفل لأول مرة عن تتبع تفاصيل الحياة التي كان شغوفاً بمتابعتها .. لم يعد يريد أن يرى

الآخرين كيف يعيشون .. لم يعد هذا يكفيه .. يريد أن يعيش بدوره، من حقه أن يعيش .. سديم .. أول نفحة حياة مرت على مقبرة أحلامه .. حياة بتسرعه قبض على أنفاس فرصته بالتنعم بها ليخنقها بحمق وضعف .. ضعف !! لم يكن يعرف بأنه ضعيف إلى هذا الحد .. الحد الذي جعله غير قادر عن الخروج عن المتوقع .. أي أحد في مكانه كان سيتصرف بنفس الشكل .. السؤال هنا لمَ عليه أن يكون كأي أحد ؟ لمَ لا يخرج عن برواز ردود الأفعال التقليدية !! لمَ عليه أن يكون نسخة مصغرة عن مجتمع يتوارث الأفعال كما يتوارث العقائد .. إن كانت السعادة تشترط عليه أن يتغير كي يحظى بها لمَ لا يحدث تغييراً منطقياً بطريقة تفكيره .. تغيير لا يمس قناعاته، فقط يُقوِّم ما اعوجّ منها .. لن يكون غبياً في اتباع خطوات من

سبقوه بعينين مغمضتين ولن يكون أحمقاً بحيث يتغاضى عن البحث عن الحقائق التي قد تبعده عن سديم .. لكنه سيمنح عقله فرصة لأن يصغي وبعدها يقرر.

***

رنين الهاتف حاول بيأس اختراق الأصوات العالية للحاضرين فلم يصل إلا إلى أسماع ترف الصغيرة التي تحركت من مكانها حيث استقرت بجانب سديم بلهفة وقد وجدت في الرد على الهاتف فرصة لها للتخلص من نظرات النسوة التي انصبت عليها حتى جمدت حركتها وجعلت عينيها تستقران أرضاً .. لم تفهم سبب تجمع النسوة في بيتهم الصغير الذي لم يسع هروبها من تمسيد شعرها وهم يتفوهون بكلام لم تفهم معناه .. عن حسنات يأخذونها إن مسحوا

على رأسها .. فهي يتيمة الآن .. ماذا تعني كلمة يتيمة التي يصرون على مناداتها بها ؟؟ فكرت الصغيرة ربما هي كلمة ليست جيدة لأن سديم غضبت بشدة عندما أخبرتها بما فعلوا .. نساء سيئات .. أنهت حوارها مع نفسها وقد توصلت إلى نعت يصفهن لتنشغل بالرد على الهاتف مولية للجمع الأسود ظهرها

- ألو ..

***

أغلق ناصر السماعة ورأسه يضرب بشدة وداخله يطن بالخطر .. صوت قرآن تناهى إلى مسامعه عبر الأثير وضجة حضور دخيلة على سكون بيت سديم الذي عرفه من عدة مكالمات سبق وأجراها معها .. والصغيرة التي ردت لا بد أنها ترف التي

ظلت تمتم دون أن يفهم شيئاً مما تقول .. كل هذا أثار قلقه .. لا بد أن يعرف ما الذي حل بعائلتها أو بها !! يا إلهي كلا ليس هي .. نهض بتوتر من كرسيه وخاطر مجنون يلح عليه بالذهاب فوراً إلى بيتها لكن شعرة منطق أبقته على اتصال بتعقله حملته على التمهل لثوان يفكر بها ليلجأ بعدها إلى الإنسانة الوحيدة التي لم تتزعزع ثقته بها يوماً، أم خلدون هي من ستساعده

***

خرج من الدائرة التي تعمل بها هدير متوجهاً إلى قسم الشرطة بعد عودته من مصرف الرافدين وهو يهدر بغضب .. الغبية كيف تسلم نفسها وتعترف بجرم لم ترتكبه .. هدير يا إلهي كيف سأخلصك من هذا الجحيم الذي رميتك به بيدي هاتين ..

لم تأخذ المسافة من الدائرة إلى مركز الشرطة وقتاً يذكر لكن رغم ذلك قد ساعد علاء على التفكير في مواجهة هدير التي لا بد منها ولكن قبل ذلك سيجري حواراً مع ضابط التحقيق المسؤول عن قضيتها، لقد علم من نائبه الذي أرسله برفقة شرطيين للتأكد من وجود حالة اختلاس بأن مدير الدائرة تفاجأ بالأمر وأرسل إلى مسؤول القسم غزوان .. غزوان حسابك سيكون عسيراً .. توعده علاء بصمت، لقد أجبر نفسه على التزام الهدوء وهو يدفع له المبلغ المفقود ليستلم منه إيصالاً يوثق ذلك يسلمه إلى الضابط كي يؤكد انتهاء قضية الاختلاس على الأقل من ناحية الدائرة ..

راقب علاء الضابط وهو يخلع سترته ليضعها بتأني على ظهر كرسيه لينزع بعدها مسدسه من غمده

المستكين في حزام بنطلونه ويضعه بحرص على مكتبه ليلتفت إليه أخيراً وهو يقول بهدوء

- تفضل قل ما عندك

***

لم تصدق سديم عينيها وهي ترى أم خلدون مقبلة عليها ..

- البقاء لله يا ابنتي

سيل من الدموع انهمر بعد أن تلاشى سد مزعوم من التماسك الواهي الذي اختبأت خلفه سديم دون أن تبدي رد فعل يذكر وهي ترى الغرباء يحيطون بها وأقرباء لم ترهم يوماً يحاولون رسم مخطط حياتها وأخوتها وهي ترمي بنفسها بأحضان أم خلدون، الوجه الذي تعرف والقلب الحنون الذي تدرك صفاءه

ضمتها أم خلدون بقوة إلى صدرها وربتت برفق على شعرها وهي تقول بصوت مواسي

- كوني قوية يا ابنتي من أجل أخوتك الصغار ..

ارتجف جسدها دون أن تستطيع التماسك أكثر وقد أنهكتها أحداث اليومين الماضيين

- لا أعرف ما الذي علي فعله .. أين سنذهب أنا والصغار وهدير .. هدير التي لا أعرف أين هي .. كل شيء يمضي إلى الأسوء

أبعدتها أم خلدون قليلاً وهي تحاول أن تزيح بعض القلق المسيطر عليها

- لكنكِ لست وحدك يا ابنتي .. أليست زوجة خالك من أدخلتني ؟ ستذهبون للعيش مع خالك أليس كذلك ؟

ابتعدت سديم كلياً عن حضن أم خلدون وهي تتمتم باستياء

- مستحيل .. مستحيل أن نعود إلى هناك مرة أخرى

تغضن جبين أم خلدون السمح بتساؤل وهي تسمع احتجاج سديم العنيف ..

- هل يوجد مكان نتكلم به براحتنا يا ابنتي ؟

***

بخطوات متعثرة سارت هدير يرافقها الشرطي إلى غرفة الضابط الذي طلب رؤيتها .. دخلت إليها وملامح وجهها يعتليها الوجوم، لم ترفع نظرها من حيث استقر على الأرض إلى ما حولها فلم تلمح الرجل المتوجس الهيئة الذي وقف جانباً ينظر إليها بإشفاق عميق .. وقد وعى لفداحة ذنبه الذي ارتكب وبأن عليه الآن مواجهته .. فلا فرار يدوم طويلاً من الأقدار التي تلاحقنا خطواتها التي دوماً ما تسبقنا بخطوات .. خطوات نقف عاجزين عن التحلحل من أثرها في حاضرنا ومستقبلنا .. لا نملك معها سوى أن نحاول أن نتكيف على قدر ما نستطيع مع ما تخطه لنا من دروب كأننا نحن أول من خطا عليها فكتبت علينا .

- اجلسي

تحركت بآلية لتجلس على الكرسي بجانب مكتب الضابط الذي نظر إليها بتمعن متفكر

- كيف أمضيتِ الليلة ؟

صمت استمر لم تقطعه هدير بإجابة على السؤال المطروح .. ابتسامة خفيفة ظهرت على شفتي الضابط ليقول بعدها

- أرى بأنكِ مرتاحة عندنا .. للأسف راحتك هذه لن تدوم طويلاً .. بعد قليل سيتم ترحيلك إلى سجن النساء ..

كتم علاء أنفاسه وهو يرقب صمت هدير المستفز .. شحوب وجهها ركود تعابيرها قبض على قلبه الذي دوماً ينبض بحبها بشدة

- لقد سدد زوجك مبلغ الاختلاس .. لكن ..

رفعت هدير رأسها لتنظر إلى الضابط بعنف .. لتتسع ابتسامته

- أرى بأني أخيراً قد استطعت استقطاب انتباهك .. بينما زوجك الواقف هناك ما زال خارج مجال رؤيتك

هبط قلبها عندما ذكر الضابط علاء ونعته بزوجها، التفتت ببطء إلى حيث أشار وهي تتمنى لو يعفيها الزمان من مشاهدته مره أخرى .. لكنه كان واقفاً بهيئة واجمة وتعبير مترقب يغزو ملامحه .. لم ينتبه كلاهما للضابط الذي أخلى المكان لهما كي يتحررا من وجوده المقيد لهم

- هدير ..

أدارت وجهها بعيداً عنه لتستقر نظراتها عند مكان الضابط الخالي .. سكون حركتها شجعه على التقرب منها

- هدير حبيبتي .. لمَ فعلت هذا بنفسك ؟

تكلم .. طويلاً .. وهي صامتة لا تحري جواباً .. فخُدع بصمتها .. واستمر يسكب في أذنيها كلماته .. كلمات لم يدرك بأنها صدى مشوه لكلمات أخرى سمعتها منه لسنوات طويلة وقد اختار أن يغفل ذكرى آخر لقاء جمعهما معاً .. كان منشغلاً بإقناعها

بالتراجع عن اعترافها دون أن يلحظ نظراتها المعلقة بذلك الشيء الأسود الملقى بحرص ! على مكتب الضابط ..

- لقد أخذت إيصالاً يفيد بأن المبلغ قد تم تسديده .. الدائرة لن ترفع شكوى ضدك .. لكن إن استمررتِ بـ ..

بصوت خافت ساهي النبرات قاطعته

- أنا عطشى أريد ماء

نهض مسرعاً من مكانه متجهاً إلى باب الغرفة يريد أن يطلب لها الماء وقد عم السرور قلبه لأنها أخيراً قد قررت الخروج عن صمتها و بأنها ربما تسمعه و تغفر له ..

خيط أوهى من خيوط العنكبوت ذلك الأمل الذي تشبثت به لينتشله من بئر اليأس الذي استقر به ..

لكنها الروح التي تهفو لبداية جديدة تكفر بها عن ما مضى تزيف الرؤيا وتحث الخطى نحو الوقوع في شرك الأماني الزائفة ..

لحظات غفلة هي ما احتاجتها هدير لتقفز مسرعة من مكانها دون أن تبالي بالكرسي الذي سقط جانباً لعنف نهوضها حانية جسدها إلى المكتب حيث استقر مسدس الضابط الذي تناوشته يدها لتوجهه نحو علاء الذي التفت إليها عندما سمع صوت ارتطام ليشحب وجهه عند رؤيته الفوهة السوداء تتجه نحو جسده متخذة من صدره هدفاً سهل التصويب إليه ..

التمعت عيناها ببريق متوعد ونبرات صوتها قد احتقنت بازدراء لم يكن موجهاً له وحده

- يالقبحك .. كيف واتتك الجرأة كي تراني وتتكلم معي بعد ما عرفت حقيقتك البشعة

ابتلع ريقه بصعوبة وعيناها تركزت نظراتهما على المسدس المحمول بيد مرتجفة

- حبيبتي

هدرت بقوة

- لا تنطقها .. أو انطقها لا أبالي فلم تعد ذات قيمة عندي .. أيها الكاذب المدعي

هز رأسه رافضاً إنكارها الحقيقة الوحيدة التي عرفها طوال حياته

- أحببتك بصدق هدير .. لم ولن أحب غيرك

تموج وجهها بمشاعر شتى

- حب حقير من شخص أحقر بعثر كرامتي وسلبني راحة بالي ..

شهقت أنفاسها بألم لتضيف بعدها بعزم

- حب خسرت في سبيله عائلتي وقد حان وقت .. التكفير

***

تباً .. تأخرت أم خلدون كثيراً .. تمتم ناصر بضيق .. تململ في كرسي سيارته المركونة على جانب الرصيف في شارع بيت سديم حيث كان قابعاً بانتظار أم خلدون كي تأتيه بالخبر اليقين .. رؤية صيوان العزاء المثبت أمام بيتها قبض على قلبه .. فتح نافذة السيارة وقد فاض صبره فلم يعد قادراً على التحمل أكثر

- أنت .. أيها الولد

توقف ولد في السابعة من عمره عن عدوه خلف جرو صغير عندما سمع نداء الرجل الغريب

- نعم يا عم

أوشك ناصر على سؤاله عن هوية المتوفي إلا أنه عدل عن ذلك عند رؤيته لأم خلدون تتجة نحوه بخطىً حثيثة

- لا عليك .. شكراً لك

نظر إليه الولد بامتعاض ليعاود الركض بحثاً عن طريدة أخرى يسلي نفسه بالعبث بأعصابها ..

- تأخرتِ

قالها ناصر وهو يخرج من السيارة .. وصلت لعنده وهي تلهث لتقول

- مصيبة يا ولدي مصيبة .

***

صوت طلقة رصاص اخترقت ضجيج مركز الشرطة لتستقطب انتباه كامل أفراده وعلى رأس قائمتهم الضابط علي الذي كان يقف قريباً من غرفته حيث مصدر العيار الناري والذي سارع بالدخول إليها ليجد أمامه هدير وهي تقف متأهبة لإطلاق رصاصة أخرى وزوجها الذي غادر وجهه كل لون يحاول الفرار من أمام مرماها وقد أخطأت التصويب إليه فاخترقت الرصاصة جدار الغرفة .. مشهدٌ وصله كاملاً فلم يحتج لتوضيح

- ارمِ المسدس من يدك

لاحظ ارتجاف شفتيها والإصرار الذي بدا بعينيها على تحقيق هدفها على الرغم من اهتزاز يدها

- سأفعل لكن بعد القضاء على هذا المسخ

نظر الضابط علي إلى علاء الذي فهم بدوره ما المطلوب منه

- هدير .. حبيبتي لا تقضي على فرصتك بالنجاة بتصرف متهور منك .. لا تضيعي

صرخت به بقوة

- أنا ضائعة بالفعل ..

حركت يدها تسحب أقسام المسدس لتضع أصبعها على زناده، فلم يجد علاء بدّاً غير أن يخبرها وداخله يهفو إلى إنقاذها من مصير يراه يطوق خناقه عليها .. آخر ما كان يهمه هو إنقاذ حياته .. بل حياتها هي كل ما يهم

- والدتك توفيت هدير .. الخالة رقية ماتت

هل سمعت يوماً بتلك المقولة السخيفة بأن استمرار الصدمات في حياتك يقوي قلبك .. ويزيدك صلابة !! من قالها يضحك على نفسه محاولاً أن يوقف جسده من الارتجاف وقد امتصت منه قدرته على الوقوف بوجه عبث الحياة و خوفاً من لطمة أخرى تسقط على صدغه بكف الزمان القاسي .. نحن لسنا سوى بشر تدفعنا كثرة المصائب إلى الاندفاع أرضاً طلباً للحظة سلام، لسنا أشجار نخيل تقف بوجه الريح العاتية تهتز على أثرها السعفات متمايلة برقص ساخر والجذع يحير الدنيا بمتانة جذوره. نحن ضعفاء .. ضعفاء جداً وقليلي الحيلة إلى حد مزري ..

هذا ما فكرت به هدير في ثوان غيرت بها هدفها لتحول وجهة الفوهة السوداء إلى صدغها .. ليصرخ علاء بها ويتحرك الضابط بسرعة .

الفصل الثلاثون والأخير

.. أرفق معه عظيم شكري وامتناني لكل من رافقني في رحلة الميول .. ممنونة جداً

البصرة

- عليكِ أن تفهمي أنتِ ابنتي الوحيدة ..

ببرود غير مبالٍ استمر السيد نعمان بترتيب أوراق عمله المنتشرة على سطح مكتبه والتي تخص آخر صفقة عقدها ..

- كان يتوجب علي أن أتاكد بأنه يحبك لشخصك وليس لأموالك التي سأورثك إياها ..

هزت وئام رأسها وهي لا تصدق ما تسمعه

- كان عليك أن تثق بي أنا .. برجاحة عقلي التي كنتَ دوماً تزهو بها .. لمجرد كون قاسم فقير لـ

قاطعها بهدوء وهو مقتنع بأنه لم يخطئ بحق قاسم

- لا يهمني فقر المال لديه لقد أنعم الله علينا بالكثير فلا أهتم بإضافة مصدر ثراء آخر .. فقر أخلاقه هو ما كان يقلقني .. أنت تحبينه والحب يعمي البصيرة
- إنه هو .. عمي عبد الرحمن .. هذا كلامه ..
- عمك عبد الرحمن بمثابة أخ لي لكنكِ ابنتي .. إن كنت قد أخذت ببعض كلامه لأني رأيت فيه مصلحتك أنت .. لا أكثر .. لن أميل لترجيح كفة أي شخص عليكِ يا ابنتي لو كانت نفسي

أوشكت على البكاء وهي تحط بجسدها على الكرسي بجوار مكتب والدها وقد فقدت ساقيها القدرة على حمل ثقلها قائلة بيأس

- لكنه سيتركني أبي .. قاسم سيتركني

ابتسم بثقة وهو ينظر إلى ابنته وقد اطمأن أخيراً على مستقبلها

- لا تجزعي، لن يتمكن من الابتعاد عنك هو يحبك أكثر مما تحبينه .. وهذا أمر جيد

***

في اليوم التالي ببغداد

- هيا يا ابنتي الوقت ملائم الآن

مسحت سديم بنظراتها أرجاء البيت القديم الذي أحتواها مع عائلتها، البيت الذي أحتفظت أركانه بكل

صوت ولمحة والتفاتة لوالدتها .. وعمها الشيخ وطيفه المواسي في ذلك الركن تحت السلم حيث استقر تاركاً الغرفة الكبيرة لوالدتها ووالدها الغائب الذي تجهل حتى اللحظة مصيره .. كان ينام هناك ويصلي ويقرأ القرآن بخشوع عبد صادق طالما بعث صوته الهدوء في لياليهم وحمل السكينة إلى أنفسهم .. رغم اختزان الذاكرة للكثير لكن تظل للأماكن التي احتوت تفاصيل حياتنا مع أحبائنا خَوَاء لا يلغيه اكتظاظ ذاكرة

اقتربت أم خلدون منها وهي تشعر بما تعانيه سديم لتضع يدها على كتفها .. لوهلة أغمضت فيها سديم عينيها وقد أحست كأن والدتها من تربت على كتفها .. عضت شفيتها تكتم تنهيدة متحسرة

- هيا سديم .. الوقت يسرقنا

التفتت إلى أم خلدون ولمحة من ابتسامة حزينة برقت على شفتيها .. لقد سرق الوقت الكثير ولن يكتفي فهو دائماً يجد ما يسرقه حتى عندما نظن بأننا لا نملك ما يستحق السرقة

- حاضر .. هيا ترف حاتم ..

كم من الخطوات أجبرنا على أن نخطوها بدون طريق محدد المعالم يحتويها .. خطوات معلقة بالهواء كمصائرنا لا نعرف إلى أين تريد المضي بنا

***

التفتت سديم إلى أم خلدون عندما أوقفت سيارة الأجرة أمام بيت لا تعرف هوية ساكنيه

- خالتي هذا ..

تجاهلت أم خلدون حيرة سديم وتشاغلت عنها بإخراج مبلغ الأجرة حق سائق السيارة ومعها زيادة كي يساعدهما في تنزيل الحقائب ووضعها في الممر الداخلي للبيت

- هيا يا ابنتي

انصاعت لها سديم وهي تعض على شفتيها

- ترف حاتم .. من هذا الباب .

قادت الصغيرين كل واحد بيد وحقيبتها المتوسطة الحجم معلقة على كتفيها تحتوي رسوماتها التي تشكل جزءاً مهماً من ماضيها الذي أقرت أخيراً بوجوب اعترافها به .. كان عليها أن تلاحظ ملامح الارتباك الذي لاحت على وجه أم خلدون التي كانت ستوضح لها الكثير ولكنها أغفلت عنها وكل تفكيرها كان منصب في الهرب من البيت قبل أن يأتي خالها

من عمله وتعود زوجته من تفقد بيتها الذي تركته طوال عشرة أيام حتى انتهى العزاء نهائياً بغياب المعزين

ركض الصغار إلى حديقة البيت الواسعة الخضراء المزدانة بشجيرات الورود المختلفة الأنواع والتي بالطبع لم تجذب اهتمامها بقدر الأرجوحة الكبيرة البيضاء الأعمدة التي استقرت وسطها بينما تبعت هي أم خلدون إلى داخل البيت بصمت ظاهري بينما داخلها يموج بالأسئلة

- خالتي .. لمَ .. لمَ نحن هنا ؟ لمَ لسنا في بيتك كما اتفقنا ؟

ابتسامة سرور ارتسمت فجأة على شفتي أم خلدون حملتها على عقد حاجبيها باستغراب سرعان ما زال عندما سمعت صوته ليعوض بإحساس آخر

- لأني فضلت أن تكوني هنا .. في بيتكِ أنتِ

لم تتجرأ سديم على الالتفات إلى الوراء والنظر إليه، بل ولم تتجرأ حتى على منع أم خلدون من إخلاء المكان وهي تقول بمرح

- لقد عدت إذاً .. خذا راحتكما .. سأبقى مع الأطفال في الحديقة

بقيت سديم على جمودها وهي تصغي برهبة لوقع خطواته الهادئة وهو يتجه نحوها .. أحست به قريباً .. قريباً جداً منها

- ألا تريدين رؤيتي صغيرتي ؟ ألم تشتاقي إلي ؟

ياللزمان الذي لايمل لعبته أبداً وهو يلهو بسحب ساعات ماضيات يدرك بأنها ساعات تعادل عمر قادم وعمر قد غفا وهو ينكه الحاضر بعبق

الذكريات ليزيد الاشتياق وينهل هو بشموخ مقتدر من نبع الحنين .. الحنين إلى ما مضى ..

تحرك ناصر ليستقر بمواجهتها .. وهو يهمس مقراً بحاله وهو غير مصدق بأنه أخيراً قد رآها

- أنا اشتقت لك

لكن سديم تدرك بأن الماضي دوماً سيكون إلى الوراء وإن تقدم مزهواً مخترقاً هيمنة الحاضر فإنه سيكون اختراقاً آنياً لن يلبث أن يضيع وسط دوامة لم يحفظها في طياته .. فلكل ساعة دوامتها اختبرتها هي وتاه هو فيها

- وأنا مللت ..

بهت ناصر لدى سماعه كلمتها القاسية التي عززتها نظراتها المدلية بصراحة عن عدم ترحيبها برؤيته

- مللت الركض إليك متى ما أشرت .. مللت رؤية ظهرك الذي توليه لي كل مرة بسبب غير مقنع لسواك .. هذا إن اهتممت أصلاً بذكر سبب

فتح عينيه على اتساعهما، هو يستمع لهجومها الذي لم يشهده منها قبلاً .. رغم إدراكه كم جرحها بتلك الكلمات التي رماها بوجهها ذلك النهار إلا أنه لم يتصور قط بأن سديمه المتلكئة دوماً والتي تتقدم خطوة وتؤخر عشراً ستواجهه بمثل هذه القوة .. القوة التي على قدر ما أفرحه تحليها بها على قدر ما كره أن توجهها ضده .. اللمعان الناعم الذي اعتاده بنظراتها انقلب إلى بريق عاصف مسّ داخله المشتاق إليها بقوة .. الطريقة التي زمت بها شفتيها تذكره بلقاءات عدة جمعتهما ولم تجمعهما .. فتحركت مشاعره بلهفة إليها .. لهفة ملّ كبتها كما

ملت هي ملاحقته .. ألم تعرف بأنها ليست مضطرة بعد الآن لملاحقته وبأنها على الأرجح إن جرت الأمور كما يريد ستحاول أن تجد ثانية يخلو بها فكرها ومكانها وزمانها منه .. ستحاول ولكنها أبداً لن تفلح بالخلاص منه .. سيحرص على إبقائها قربه .. قربه كما تمنى منذ أول يوم رآها فيه

- حسناً، مللت ليس الرد الذي كنت أنتظره .. لكن لا بأس أنا أستحق أكثر من هذا

هزت سديم رأسها بضيق وقد شعرت فجأة بعدم قدرتها على التنفس .. أشياء كثيرة تغيرت .. لم تكن مجرد أيام عشرة لم تره فيها .. عشرة أيام قضتها سديم تتلظى بنار الجحيم .. عشرة أيام تساوي دهراً كاملاً .. تلاعب بها ومحق قدرتها حتى على الحلم .. تحركت تريد الخروج من المكان

تبحث عن نسمة هواء تنقي ذهنها من هواجس بدأت تعزف بداخلها لحناً متفرد الإيقاع ينذر بالخطر الشديد

- مهلاً -سارع ناصر بالإمساك بيدها- إلى أين؟
حاولت سحب يدها من قبضته دون أن تنبس بحرف واحد

- لا تحاولي -بعزم أضاف- لن تخرجي من هنا .. حديث طويل يجب أن نجريه معاً

رفعت بصرها تنظر إليه ببرود

- اترك يدي .

سيكون الأمر صعباً؛ فكر ناصر وقد كره برود نظراتها التي لم يعتد عليها منها

- سأفعل بعد أن تجلسي

لم يكن أمام سديم سوى أن تتبع خطواته البطيئة نوعاً ما .. استقرت على الأريكة العريضة التي قادها سوء حظها لاختيارها ليستقر هو بجانبها بسرور

- لقد تركت العكاز .. هل شفيت ساقك

رغماً عنها صدر عنها سؤال يدل على بقية اهتمام بصحته لم تتمكن من التخلص منه .. سؤالها أعاد جريان الدماء بعروق ناصر ..

- ليس كلياً .. لكن حسب نصيحة الدكتور قاسم -أضاف بعد أن لمح سؤالاً بعينيها- الدكتور الذي أجرى لي العملية في البصرة .. سمح لي أن أجرب السير بدونها ولكن بحذر

هذراً ما تفوه به من كلمات، كان مجرد هذر بدون معنى .. لا يعرف من أين يبدأ معها الكلام

- البقية في حياتك صغيرتي

تنفست بعمق وهي تحاول الرد عليه بهدوء

- البقاء لله .. من .. من أين عرفت ؟ هـ .. هل أخبرتك أم خلدون ؟

كانت تحاول نقل الحديث إلى ضفة أخرى .. ضفة تبعده عن ذكر والدتها .. الشهقة التي تحاول كبتها بداخله تهدد بالانطلاق عند ذكر أي شيء يخصها .. وهذا ما لم ترده .. لم ترد أن يرى ناصر ضعفها بعد الآن ..

قطبت حاجبيها عندما هز رأسه نافياً

- بل أنا من أخبرتها ..
- أنت !! ومن أين عرفت ؟

ابتسامة خفيفة زينت ملامح وجهه الوسيمة ..
ابتسامة نادرة الرسمة دائماً تبهجها رؤيتها تحتل
تقاسيم وجهه الرائعة

- كان عليك أن تسألي أم خلدون هذا السؤال ..
لكنكِ كنت مشغولة بأمور أخرى .. منها
محاولتك إقناعها بمساعدتك على الهرب ..

صمت قليلاً ينظر إليها ليرى تأثير كلماته عليها
ليردف وعيناه ما زالتا تمعنان النظر فيها دون أن
ترمشا حتى

- حتى لو كلفك هذا إطلاعها على أسرار
حياتك التي كانت دوماً تشكل حاجزاً بين أي
خطوة ممكن أن تقربنا إلى بعض

شحوب وجهها آلمه وشهقة ارتباك انسلت من بين
شفتيها أعلمته بأنه قد وضع يده على موطن الألم

- لم يكن لديها حق .. بأ ..

قاطعها بوجوم

- بأن ماذا .. أن تخبرني ؟ .. وكيف لها أن لا
تفعل !! وهي تستمع لتفاصيل حياتك
ورغبتك بالهرب بعيداً عن بيت خالك .. هل
ظننتِ حقاً بأن أم خلدون ستساعدك هكذا !
تساعد فتاة قاصر وطفلين على الهرب من
وصاية خالهم وتتحمل المسؤولية الأخلاقية
والقانونية دون أن تعرف على الأقل كيف
ستكون حياتهم ؟ إن كانت ستنقذهم فعلاً أم
سترميهم في هوة من الضياع ؟ كان لا بد لها
من إعلامي بكل شيء وهذا كان الهدف من
زيارتها لك

ابتلعت ريقها بصعوبة وهي ترمش وقد تسمرت نظراتها على وجهه الذي عكس تعبيراً غاضباً

- أ .. أنـ ..

حاولت أن تقول شيئاً، أي شيء تستطيع به صد هجومه المفاجئ وإن أدركت بأنه على حق .. كم كرهت بأنه محق فيما قاله .. تسلل شيء من السكون إلى نفسها المضطربة عندما سمعته يقول

- أنا لا ألومك .. وكيف لي أن أفعل -تموج صوته بمشاعر عدة- مع تلك الحياة الصعبة التي عشتِها

تحول الغضب الذي غادره إليها فقالت بعنف وهي تكاد تقفز من مكانها

- لا أريد شفقتك

تنهد بضيق

- لا محل للشفقة هنا ..

رطبت شفتيها وقد أحست بانفلات الأمور من بين يديها وقد سكنت بعجز عن إبداء أي رد فعل .. لو كان الأمر متلعقاً بها هي وحدها لكان أهون بكثير .. كان من الممكن حتى أن تجازف بالسكن في بيت خالها فهي أكثر من قادرة على حماية نفسها .. لن يكون الأمر سهلاً عليها بالطبع لكن كانت ستحاول .. لكنها ليست بمفردها ترف وحاتم يحددون لها خياراتها .. بل على الأحرى يعدمون كل خيار لها .. لن تجازف بهما أبداً

- قـ .. قلت -صمتت تستجمع أفكارها بينما كان هو ينظر إليها يترقب كلماتها- لقد وافقت على تركنا البيت .. بما أن أم خلدون لم

تتصرف .. إ .. إلا بعد الـ .. الرجوع إليك .. هل .. هل لديك حل ؟

تنحنح قليلاً وهو يفكر هل يقول كل ما لديه أم ينتظر

- ستبقين هنا مع إخوتك .. أم خلدون ستبقى أيضاً، بعدها بفترة سأذهب لخالك بعد أن يكون قد يئس من البحث عنكِ كي أواجهه بحقيقة ولده وبأني سأفضحه إن ..

قطع كلامه صمت مبهم بالنسبة لها وهو يمشط شعره بأصابعه بتوتر ملحوظ

- إن لم يتنازل لي عن وصاية أخويك بالإضا ..

قاطعته سديم وقد برز عدم التصديق على ملامح وجهها

- يتنازل !! لك !! كيف يكون هذا وبأي صفة حسناً لا بد له من نطق الكلمة وإلا سيجن

- بصفتي زوج أختهما الكبرى

قفزت سديم من مكانها عندما سمعت وصف الكبرى وهي تنطق بذهول

- تتزوج من هدير !!

هدير !! ما الذي تقـ .. فهم أخيراً كيف وصل إليها ذلك الخاطر الغريب

- بالطبع لا .. أقصدكِ أنتِ ..

الارتباك الذي احتل ملامح وجهها الذي زال عنه شحوبه وقد تورد خديها، حمله على إطلاق تنهيدة متحسرة وهو يرقب هذا الجمال الذي أهلكه مقاومته

- أ .. أنا !!

حارت أين تولي وجهها .. فقط لو يكف عن النظر إليها بهذه الطريقة التي تسارع نبضات قلبها الخائن الذي بطئت دقاته عندما ظنت بغباء بأنه يقصد هدير وتسارعت عندما علم بأن صاحبته هي المعنية .. شيء يشبه الفرح بدأ يستلل إلى أحاسيسها ليطن داخلها إحساسها بالذنب وقد لاحت لها صورة والدتها

- بالطبع أنتِ -بوله أكمل- وهل يمكن لغيرك أن تصبح زوجتي !!

راقبها وهي تخفض رأسها وقد عاد الوجوم إلى ملامحها .. عادت تجلس حيث كانت

- منذ أيام كنت قد قلت بأنك لا تريد رؤيتي مره أخرى .. لا تدع وفاة والدتي يحملك على تغيير رأيك، آخر ما أحتاجه هو شفقتك

- تباً .. قلت لكِ بأني لا أشفق عليكِ افهمي هذا .. أعترف بأني آلمتك جداً في ذلك اليوم لكن ألمي كان يماثل ألمك بل وأكثر .. ماذا تريدين مني وقد علمت بأن المرأة التي كنت أتهيأ لطردها من البناية تكون شقيقتك !! لا أقول صدمت بل تحطمت وقد ظننت بأن سلوك أختك هو ما يجعلك دائمة التردد بإجابتي على أي سؤال أطرحه عليك ..

تكلمت بعصبية ترد اتهامه عن شقيقتها الغائبة

- أي سلوك تقصد .. هي زوجة علاء وليـ .. وليسـ .. أقصد لا تربطها به علاقة شائنة

زفر بضيق ليتكلم بعدها بصوت حمله على قدر ما يستطع من هدوء

- لقد علمت هذا مـ ..

- آآه علمت !! .. إذاً بعد أن استوثقت حضرتك بأنه لا يوجد ما يعيب قررت أن تتنازل وتتراجع عن قرارك بإبعادي .. اذهبي سديم .. تعالي سديم !! هكذا ببساطة

كان عليه أن يضبط أعصابه التي تهدد كل لحظة بالانفلات وهو يراها تحاول أن تضع من العثرات ما تشتهي لتلهيه في محاولة تجنبها وتدخله في نقاش عقيم يبعدها عن إعطائه جواباً لطلبه الملتوي بالزواج منها

- سديم هل تريدين سماعي حقاً .. أم تريدين إفراغ حزنك بتوجيه اتهاماتك لي ؟!

عضت على شفتيها بتوتر .. وقد تاه عنها تركيزها بتسارع الأحداث من حولها ..

نظر إليها بهدوء وقد لاحظ الإرهاق يبدو جلياً على ملامحها ليقرر تأجيل الكلام إلى وقت آخر خلاله سيحرص على تنفيذ ما خطط له

نهض من مكانه قائلاً دون أن يمنحها فرصة الاختيار

- سأخرج الآن .. سأنادي أم خلدون كي تدلك أين ستنامين والأطفال ..

ألقت بظهرها إلى الوراء مسندة جسدها المرهق إلى الأريكة ذات اللون الأزرق السماوي .. متعبة جداً ومنهكة الأيام التي مضت استنزفت كل قوتها حتى عدمت القابلية على تشكيل أحرف للاعتراض على قرارات ناصر والتي تتضمن الزواج منها .. و لن يكون زواجاً تؤطر أسبابه الشفقة، هي تعرف بقرارة نفسها بأنه يكن لها المشاعر هي مدركة لذلك لكن هذا لن يمنعها بمحاصرته بتلك الفكرة

.. بسخرية فكرت بأن حبيبها ذو الطبع المتردد فقط بما يخصها انتظر بأن تنقلب الدنيا بها كي يصرح أخيراً بما أرداه منها .. أغمضت عينيها بحزن وقد غشيتهما الدموع وقد أحست بالحاجة الشديدة لوالدتها ترى ماذا سيكون رأيها ؟ كم تفتقد كل شيء فيها حتى سكونها بل وحتى استسلامها .

***

دخل ناصر إلى مركز الشرطة حيث أعلمته الدائرة بأن هدير قد احتجزت فيه .. تعقيد يضاف إلى مستقبله معها .. كيف يمكن له فك كل تلك الخيوط المتشابكة .. وما زال موضوع الخال معلقاً لأيام لا يعلم إن كان عليه أن يختصرها أو يمدها

- السلام عليكم

ألقى التحية على الشرطي الذي يقف أمام باب الضابط علي المتولي التحقيق في قضية الاختلاس التي تورطت بها شقيقة سديم

- وعليكم السلام ورحمة الله
- أريد مقابلة الضابط علي لو سمحت

تغيرت الملامح الرسمية للشرطي المتوسط السن وقد علت عينيه نظرة غريبة ليتحرك من مكانه نصف خطوة اضطر عليها وقد جاءه أخيراً من يجهل ما حدث ..

- ألم تعلم ؟ -لم ينتظر إجابة من ناصر بل أضاف مسرعاً- لقد أطلقت المجنونة النار عليه

***

حقيبتها أعدتها بنفسها رافضة مساعدة أحد ..
ستعود اليوم إلى بيتها لا تعرف كيف ستواجه والدتها ومازن .. لكن عليها ذلك إن كانت لديها القدرة أم لا، عليها أن تخطو هذه الخطوة ..
خطوات مترددة أخرجت بيداء من أفكارها التفتت إلى الوراء لتجد ناهدة تقف عند الباب، ابتسمت بتهكم

- لا داعي لاستعجالي .. أنا راحلة

فركت ناهدة كفيها ببعضهما وتقدمت خطوات بسيطة إلى داخل الغرفة لتجد بيداء قد جهزت حقائبها

- لست هنا لاستعجالك الرحيل ..

قطبت بيداء حاجبيها بتساؤل ردت عليه ناهدة بأن اكملت جملتها المبتورة

- بل لأسألك البقاء

- أبقى !!

واجهت ناهدة بيداء وقد اقتربت منها بما يكفي كي ترى أثر كلماتها عليها

- نعم .. بنيتي خلال الفترة الماضية عرفنا أي نوع من البنات أنتِ .. وبأن ما حدث رغم جسامته كان خطأً عظيماً لن يتكرر .. معصية تبتِ عنها وتوبتك أثرت على ولدي .. عمران الذي مرق عن كل ما هو سليم، وطاش عن كل صواب، جاء إلى والده ليلة أمس يريد أن يفتح صفحة جديدة .. صفحة وجودك فيها يحفزه على الاستمرار قدماً إلى الأمام .. نحو الأفضل

تراجعت بيداء لتجلس على طرف السرير حيث استقرت حقيبتها

- كنت قد قررت أنا أيضاً فتح صفحة جديدة معكم هنا .. لم أوهم نفسي بأن حياتي معكم ستكون سهلة أنا أكثر من مدركة لهول غلطتي وبأنه من الصعب أن يمنح بشر مغفرته لها .. لكن ما لم أكن أتوقعه هو قراركم بتحديد مهلة لزواجي .. هذا الأمر نسف كل مخططاتي ببدء حياة جديدة نظيفة أحاول أن أسترضيكم بها .. حتى عمران تعرفين لم أستغرب تصرفه معي في ليلة زفافي أنا أعرفه أكثر مما تتصورين كما يعرفني هو، لقد تشاركنا الكثير معاً .. تعرفنا ببطء على عيوب أنفسنا قبل أن نلمح أي فضيلة فيها .. لكن هذا لم يعد يفيد الآن

تكلمت دون أن تبالي بوقع كلماتها على أذن السيدة ناهدة التي أشبعتها إهانات منذ أن حطت قدميها عتبة البيت .. لم يكن الانتقام ليخطر ببالها لكنها فقط أرادت أن تبوح ببعض ما يعتمل بداخلها.

***

البصرة

- ماذا تريدين ؟

توجه نحوها بغضب هادر

- ألا يكفيكِ ما حصل !!

شحب وجهها وقد اهتز داخلها قلقاً من رد فعل قاسم لكن عليها أن تتماسك إذا كانت تريد الاحتفاظ به بقربها .. خبر تقديمه طلب نقل من مستشفى البصرة إلى مستشفى مدينة الطب ببغداد الذي سمعته هدد راحة بالها وهدم أركان فرحتها بقربه .. أغلقت الباب من خلفها كي تحافظ على خصوصية

الحديث الذي تنوي إجراءه مع خطيبها الغاضب من تصنت الممرضات الفضوليات اللاتي كن يرقبن الجو المشحون بالتوتر بينهما بتسلية مستفزة

- قاسم أنـ

وصل لعندها وعيناه تقدحان بشرر متطاير

- اسمعي إن ظننتِ بأن حبي لك سيجعلني لعبة بين يدي والدك فانسي .. كرامتي فوق كل اعتبار ..

طوال الأسابيع الماضية كان يعيش صراعاً مع نفسه، حبه لوئام أو احترامه لنفسه .. ليدرك أخيراً للأسف بأن عليه أن يختار .. وعندما أعلن عن رغبته بالابتعاد انقلبت الأمور فقد أفصح أخيراً السيد نعمان بأنه كان يخضع قاسم لسلسة من الاختبارات كي يتأكد له حسن نواياه وبأنه يحب

ابنته لشخصها وليس لأموالها .. وهذا الإفصاح - الذي جعله يشعر كأنه فأر تجارب- كان الشعرة التي قسمت ظهر البعير ..

- حتى النعمة قلبت نقمة من جراء تفكيركم الملتوي .. أي أحد يقترب من أسوار عنجهيتكم يكون طامعاً في أموالكم .. داخلكم الأسود أرفض .. أرفض بشدة أن تغرقوني فيه ..

كان قريباً جداً منها نصف خطوة تفصله عنها .. مدت يدها بتردد سرعان ما زال، هي تفكر باحتمال خسارته، لتضعها على صدره وتشعر بجسده يتشنجع من تأثير لمستها .. عليها أن تمتص غضبه كي يستمع إليها .. شفعت لمستها حركة خفيفة من

جسدها ليقترب منه دون أن تلامسه .. لتصرح بأكثر ما يهمه ويهمها بأنها تحبه

- داخلي ينبض بحبك فقط قاسم ..

همستها واقترابها منه بهذا الشكل أضاع لبه وشتت تفكيره .. لتحتل هي كامل وجوده .. عليه أن يبعدها إذا أراد أن يصر على موقفه .. لكنه يحبها .. تباً لها كم يحبها !! استمر صوتها الناعم بالتسلل إلى كيانه الغارق بعشقها .. يرنم عهود حبها

- سأعيش معك بالبيت الذي اخترته أنت بالأثاث ذاته .. سأعيش معك كما أنت ..

كان يشد على يديه بقوة كي لا تحتويها إليه وعيناه تتشربان من ملامحها التي فتنته دوماً ليتابع

من حيث توقفت ليتأكد بأن ما نغص عليهم حياتهم طويت صفحته

- لا مزيد من الاقتراحات المستفزة .. ولا (قاسم بيتك صغير والحي الذي تسكنه شعبي جداً تعال وعش معنا في بيتنا)

كانت تهز رأسها توافق على كل ما يقوله وقد بدأت تشعر بأنها قد استعادته من جديد .. وابتسمت بخجل وهو يرفع أصبعه في وجهها محذراً ويكرر آخر اقتراحاتها التي اضطرت أن تجاري بها والدها كي تقنعه بأن قاسم ليس من النوع الانتهازي

- ولا .. (يقول والدي اترك العمل في المستشفى الحكومي .. سيفتح لنا عيادة خاصة ويجد لك عملاً في مستشفى أهلي) ..

مدت يدها تمسك يده التي يشوح أصبعها في وجهها وهي تبتسم برقة لتعود بالحديث إلى جذوره

- أحبك قاسم .. هل تحبني أنت ؟

اعوج فمه وهو يستمع لسؤالها الغبي .. فقط يحبها ؟!! لقد راقب قلبه وهو يقع في شباك هواها منذ أول مرة لمحها فيها .. سنين مضت كان يجب أن يتعلم بها التحكم بمشاعره تجاهها لكنه أبداً لم يستطع .. اقترب منها أكثر وقد بانت نيته بوضوح وهو يهمس بصوت خافت

- لا أحبك بالتأكيد

أوشك على الضحك وهو يرى التعبير المصدوم الذي ارتسم على ملامح وجهها .. ليقول بصوت مبحوح وقد ألغيت المسافات

- أنا مجنون بك .. فقط مجنون

بعد قليل همس بأذنها

- هل تجيدين الطبخ ؟

***

بغداد

هزت ناهدة رأسها بيأس إلى عبد الرحمن الذي زم قبضته بقوة .. لقد تنازل عن الكثير بقبوله أن تبقى بينهم على أثر الحديث الذي أجراه مع عمران .. وها هي الآن ترفض !! رمق عبد الرحمن ولده عمران الذي استوى جالساً باستقامة عندما رأى والدته تهبط درجات السلم قادمة من عندها بحنق

- ضلع أعوج ..

غير عمران وجهة نظراته لتستقر على والده وهو يقول

- أرجوك أبي ..

ألح هاجس على عبد الرحمن بأن يتراجع بأن يجلس بمكانه دون أي تدخل منه ليرى كيف ستسير الأمور .. فهل يتعلم الطاعة ؟

- أمي ماذا قالت لك ؟

كان يستمع دون أن يصغي لناهدة وهي تنقل لعمران تفاصيل حديثها مع بيداء .. بيداء التي أصبح وجودها ضروري فجأة وقد بان عمق تأثيرها الإيجابي على عمران .. استدار بنظراته إلى ولده يراقبه بطرف خفي .. اللهفة التي ارتسمت على ملامح وجهه وهو يتلقى كلمات تفوهت بها على لسان والدته ذكرته بناصر، ذات اللهفة ظهرت على وجهه دون أن يعيره اهتماماً يذكر .. الندم الذي تعمق بداخله وهو يدرك بأن تعصبه لرأيه قد جعله

يخسر ناصر زاد أكثر بعد تلك المكالمة التي أجراها مع صديق عمره نعمان الذي أبلغة بوضوح أن البسمة التي يراها على شفتي ابنته عند رؤيتها للرجل الذي اختارته هي تجعله يعيد النظر بالاتفاق الذي عقد بينهما ويوافق على أن يكون الدكتور زوجاً لها بعد أن درس أخلاقه وعرف بأن لا عيب فيه يشكل مانعاً لذلك .. نعمان كان قادراً على أن يغير من خططه لأجل ابنته بينما هو ظل عاجزاً يراوح مكانه بينما يحاول بحمق أن يمنع مشاعر من الصعب السيطرة عليها من اختراق قلبه

***

لملمت شعرها وهي تنظر إلى المرآة، بيداء جديدة كانت تطل عليها من خلالها .. تحمل ذات الملامح الجميلة الفاتنة .. رغماً عنها أعادت لها ذاكرتها

لقاءها الأول بعمران الشاب الوسيم الذي لفتت سيارته اهتماهها قبل أن يلفته هو .. يا إلهي كأنها سنوات مرت على ذلك اللقاء الذي لم يبعد عن الحاضر سوى بضعة أشهر .. عقدت شعرها لتتحرك متجهة نحو حقائبها .. فرصة أخرى .. فرصة أخرى كان عمران قد طلبها منها وأكدت والدته ذلك الطلب .. حيرة سكنت نفسها لتأخذها معها مبحرة في لجة من التساؤلات، لا تعرف حقاً إن قدر لها أن تتمخض عن إجابة ما .

***

راقبها وهي تتجهه نحو الباب الخارجي ليتحرك من مكانه مسرعاً بنية اللحاق بها، هتف

- بيداء

توقفت خطواتها .. للحظة ظن بأنها ستتابع سيرها لكنها استدارت إليه .. وسع خطواته ليصل عندها بسرعة

- بيداء لا تذهبي ..

عدا تلك الأحاديث السرية من خلف الباب الموصدة .. كانت هذه أول مرة بعد تلك الليلة تراه ويراها .. تلك الكلمات التي كانت تتسلل إليها تحت ستار الليل والتي كانت تختلف كلياً عن تلك التي كان يحدثها بها في غفلة من أهلها وأهله عبر الأثير لتصلها محملة بمعاني حمراء محرمة ..

- عمران تريد بداية جديدة ؟

قطب حاجبيه مستغرباً سؤالها

- بيـ

قاطعته وهي تضع عنها ثقل حقيبتها

- أجبني

أومأ براسه

- نعم.

لاح إصرار غريب على وجهها، لم يعرف إن كان يجدر به أن يرتاح إليه أو يقلق

- إذاً علينا كلينا أن نعود إلى حيث بدأ كل شيء ..

ضاقت عيناه لدى سماعه كلماتها التي لم يدرك منها ما تقصده فلم تبخل هي عليه بالتوضيح

- سأعود إلى بيت أهلي .. سأفسح لك المجال لتصلح من نفسك

هز رأسه رافضاً كلامها

- لكن أنا بحاجة لك بقربي .. أنت لا تعرف

لكنها لم تبالِ باعتراضه وأسهبت بشرح وجهة نظرها

- صدقني أعرف .. لكني أفضل أن تتعامل مع نفسك بمفردك فعندها ستحصل على دعم إلهي يعوضك عن الجميع .. هكذا فعلت أنا ونجحت .. الفرق بيننا بأني كنت مجبرة على خوض الأمر وحدي لأني لم أستطع الاعتراف بذنبي .. معك سيكون الأمر باختيارك ..

حاول أن يعاود الاعتراض

- عمران مجرد رغبتك بأن تُقوّمِ من أخلاقك تعد منحة لي قبل أن تكون لك .. نعم منحة إلهية لي .. كأن الله يريد أن يزيد من انبهاري برحمته .. هل تظن بأني أود العودة إلى أهلي بلقب مطلقة بعد شهر ونصف من

زواجي أو حتى بعد سنين منه ؟! هل تظن بأني قد نسيت ولو للحظة بأن ما جرى لي كان من صنع يدي !! توبتي لا تجعلني أهون من هول معصيتي بل تجعلها دائماً نصب عيني .. ما أستطيع أن أفعله لك هو الانتظار فقط .. أنتظرك منذ الآن أن تتغير، أنتظر بفارغ الصبر ..

ابتسمت برجاء وعيناها الخضروان اللتان حملتا صفاء حمل السكون إلى نفسه

- فلا تجعل انتظاري يطول كثيراً .. أرجوك

أخفض رأسه أرضاً يتمعن كلماتها .. صراع مع نفسه التي اعتادت تلبيته رغباتها عليه أن يخوض نزاله معها بمفرده دون معين مرئي يشجعه لإكمال جولات

حربه مع ميوله .. لحظات مرت بدت كأنها دهر، انحنى بعدها عمران ليحمل حقيبتها قائلاً

- سأوصلك ..

كي تتأكد سألت

- كي نبدأ من جديد ؟

لتشرق شفيتها عن ابتسامة عند سماعها إجابته التي سبقتها تنهيدة حائرة تعلمها بأنه يدرك الأيام الشاقة التي تنتظره

- نعم .. لن أدعكِ تنتظريني طويلاً

***

في الليل .. تحركت بهدوء عندما أيقنت بأن الصغار قد ناموا .. رغم إصرار أم خلدون عليها كي تترك لها العناية بهم على الأقل في أول ليلة لها في

البيت الجديد حتى ترتاح هي قليلاً من ضغط الأيام السابقات، لكنها لم تستطع أن تبعد عنهم الوجه الوحيد الذي يعرفونه وكل ما حولهما غريب عنهما .. ترى هل سيمحي الزمان صورة والدتها من صفحات ذاكرتهم الصغيرة ؟! سيحاول بالتأكيد لكن هي لن تسمح له .. ستحافظ على خيال والدتهم الحنون يطرف بين الجفون .. لن تدعه يتلاشى أبداً .. أبداً

واربت الباب قليلاً لتذهب إلى غرفتها التي تقع بجوار غرفتهما لتتجمد مكانها وهي ترى ناصر يعتلي درجات السلم ليصل بخطوات متأنية إلى الممر الذي تقف هي فيه والذي ما إن لمحها حتى توقف بغتة وهو يتفحص هيأتها بمنامتها ذات اللون الأزرق الغامق والتي طبعت حوافها بزهور وردية اللون وشعرها الأسود الطويل حررمن رباطه ليحتل ظهرها وإحدى كتفيها ..

- سديم

همس باسمها بنعومة وهو يتوجه ناحيتها .. اشتبكت نظراتهما دون أن يحاول أي منهما إزاحتها عن الآخر ..

- مـ .. ماذا تفعل هنا ؟

وجدت صوتها بعد عناء لتنطق سؤالاً راودها عند رؤيته وقد انشغلت عن توجيهه بالنظر إلى بطل أحلامها

مال برأسه دون أن تفلت عيناه عينيها

- أنا أعيش هنا ..

لاحظ الذهول الذي سكن نظراتها

- لم تحزري أليس كذلك ؟ .. لقد تركت بيت أهلي منذ فترة -أسئلة لاحت بالأجواء أجابها ناصر بسهولة- لا بأس أم خلدون تقيم معنا .. وبعد أيام قليلات تصبحين بعدها زوجتي ..

صمت وهو يرى التورد قد عاد ليغزو وجنتيها والارتباك يذهب الذهول ليستقر هو بسواد عينيها التي أبداً لم ينضب ينبوع حكاياها .. مد يده بإصرار أخفى ارتجافهما ليحتوي أحد كفيها

- تعالي معي ..

حاولت الفكاك من سحر قربه فلم تفلح سوى بنطق استفهام باهت الاعتراض

- إلى أين ؟

مد يده الأخرى لتعانق وجنتها وقد تجلت مشاعر بعينيه طالما حلمت سديم بأن يشعرها هو باتجاهها وهو يقول بصوت مبحوح

- هل ما زلتِ غاضبة مني ؟ هل قلبك الصغير قادر على أن ينأى بعيداً عني !!

مسحت يده وجنتها الساخنة لتمسك بخصلات شعرها الناعمة

- شعرك هذا أهلكني ذكرى نعومته .. أحبك سديم -ليردف بشوق- يا إلهي كم أحبك

كلماته ولمساته الرقيقة على شعرها ووجنتيها حملت جسدها على الارتجاف .. تحركت إلى الوراء معترضة بوهن

- ناصر !!

رقت نظراته وهو يلاحظ التوتر الذي تلاعب بمشاعرها

- لا عليكِ .. تعالي معي إلى الأسفل أريد أن أتحدث معك -حثها بنعومة- هيا .

وضعت رأسها بين كفيها وهي تشعر بالتعب .. التعب الشديد الذي منعها حتى من الغضب .. الحزن .. الألم .. إنهاك ملك روحها التي ملت التعاسة التي تلاحق خطواتها .. مطبقة على أنفاسها .. متى ستتحرر من همومها .. متى ستقرر الدنيا عتق رقبتها والبحث عن لعبة أخرى تلهو بها .. متى يارب متى ؟؟

- حبيبتي ..

تحرك ليجلس إلى جانبها ليجذبها إليه برقة واضعاً رأسها على صدره وقد لمح بقلب ملتوٍ الانكسار الذي تجلى بعينيها عندما أخبرها عن هدير وما حدث لها

- سأفعل كل ما بوسعي لإخراجها من هناك -ربت على ظهرها بحنو- صدقيني لن يكون الأمر صعباً، قد يأخذ وقتاً فقط لكنه لن يكون صعباً .. الضابط الذي أصابته الرصاصة التي أطلقتها يميل أيضاً لمساعدتها

دفنت رأسها في صدره تخفي دموعاً قررت الانهمال على خديها وهي تقول بضعف يوجع القلب

- أشعر بأني ضائعة ناصر

أبعدها قليلاً عنه ليتسنى له رؤية وجهها الحبيب

- لا تقولي هذا .. كيف تضيعين وأنا معك .. لن أتركك أبداً حتى تقرر أنفاسي هجر صدري .

***

بعد أيام

- افتحوا الباب .. تباً لكم جميعاً افتحوه !!!

قطب الضابط علي حاجبيه حين سمع صراخها، التفت إلى الممرضة التي تشابه الرجال في قوة بنيتها

- منذ متى وهي على هذا الحال ؟

هزت الممرضة رأسها بضيق

- منذ صباح اليوم التالي الذي جلبتها به إلى هنا سيدي الضابط .

نفض بيده ذات الكتف السليم غباراً ليس له وجود عن بدلته الزيتونية الكاملة القيافة وهو يقول

- لا بأس افتحي الباب

حاولت الاعتراض

- لكن

شزر الممرضة بنظرات صارمة وهو يؤكد أمره

- افتحي الباب .. وابتعدي بعد أن تقفليه بعد دخولي مباشرة

تراجعت هدير خطوات إلى الوراء عند رؤيتها الباب الحديدي يفتح بهدوء بعد أن فتح قفله لتحضر نفسها لهجوم مباغت على الممرضة البغيضة التي لم تتوانَ عن تكبيل يديها إلى السرير في آخر مره دخلت بها إلى غرفتها .. لحظات فقط

وتطل بهيأتها العديمة الأنوثة .. تحفز كل عصب بهدير وهي تستعد للقفز على الكريهة

- يااا لهذا الاستقبال ..

لكن الخاطي إلى الداخل لم يكن سوى الضابط علي الذي احتواها بترحاب مستفز بين ذراعيه ..

- دعني

هدرت من بين شفتيها وهي تحاول تحرير نفسها من احتضانه ..

- هيا .. أنتِ من قفز إلى حضني ..

حاول أن يكتم ضحكته وهو ينظر إلى تعابير وجهها العاصفة بغضب يسليه

- حسناً .. لا بأس .. سبق وجربت غضبك المجنون لن أجازف بتكرار ما مررت به

قال هذا وهو يمد يده إلى كتفه الأيسر يدلكه بخفه .. حيث استقرت الرصاصة التي طاش صوابها لتستدل على كتفه ..

لم تحس هدير بالأسف على حاله، لم يكن عليه التدخل .. لم تعرف كيف وصل إليها بتلك السرعة .. هي لحظة أو أقل .. بل رمشة عين .. التي ترددت فيها حائرة أين تنزوي بعيداً عن صراخ علاء وركضه باتجاهها محاولاً منعها وتحرك الضابط الذي سهت عن وجوده بتشتت أفكارها فاستغل ضياعها ليحاصرها من الخلف واستطاع أن يفك أصابعها الملتصقة بالزناد ويحرر سلاحه منها ليصاب هو بكتفه بعد أن استدارت نحوه بقوة متمردة على محاصرته إياها .. لينتهي الأمر بعد خمس أيام في سجن منفرد بها إلى مستشفى للمجانين

- أنا لست مجنونة
- أعرف ..

تصريحه الهادئ حملها على التراجع إلى الخلف و بكتفين متهدلين سارت إلى حيث السرير المعدني الكئيب لتجلس عليه بصمت يرتجف توتراً .. تحرك نحوها ببطء ليجلس إلى جوارها، شاركها صمتها لحظات ليقرر أخيراً أن يوضح لها سبب احتجازها في مستشفى الرشاد للأمراض النفسية والعقلية

- وجودك هنا هو المانع الوحيد لدخولك السجن بحكم قد يطول لسنوات وسنوات لا تستطيعن حتى حصرها ..

رفعت له رأسها وقد حملت نظراتها تساؤلاً لم يحتج للكلمات كي يوضح

- جاء زوجك إلى المستشفى حيث كنت أتلقى العلاج -ابتسم عندما لاحظ تغير نظراتها التي لمعت ببريق لم يستطع تفسيره- كانت جلسة طويلة أعفيك من تفاصيلها لكني سأخرج لك بخلاصتها .. لقد عرفت كل شيء ..

تمتمت بذهول

- عرفت !!

ضحك متهكماً ..

- نعم عرفت .. وفهمت كذلك لمَ ناديته بالمسخ -وبضيق أكمل- لكنه لم يكن أي مسخ

عضت على شفتيها وقد كرهت أن يهتك هذا الغريب كل أسرار حياتها المخزية لكنها لم تستطع مقاومة سؤاله عما يعني

- ماذا تقصد ؟

زم شفتيه وهو يذكر لقاءه بعلاء

- لقد أدلى باعترافاته وهو يعلم بعدم قدرتي على اتخاذ أي إجراء قانوني بحقه .. فلا كاتب يدون أقواله ولا شاهد يؤكد سماع اعترافه ..

لمعت عيناه ببريق متوعد

- لكنه سيكون أحمقاً لو ظن بأني سأفلته يعبث بحياة الأبرياء كما يشاء بأعصاب باردة، سأطاردة وأضيق عليه الخناق حتى أكرهه في حياته

ابتلعت هدير ريقها بصعوبة وهي تنظر إلى تعابير وجهه التي تحولت عن ابتسامها الساخر إلى تعابير تحمل من المعاني عديدها

- وأنا ؟ ماذا سأكون .. مجرد طعم لاصطياده ؟

أرخى بصره أرضاً للحظات مفسحاً المجال لعينيه بإسدال ستائر سميكة تخفي مجرى أفكاره عن المرأة التي تحدق به بعينيها النرجسيتين بارتياب .. أفكار لا يجوز له التصريح بها .. على الأقل ليس في الوقت الحاضر

- لقد ترك لكِ رسالة ..

قفزت من مكانها وقد ارتجف جسدها

- لا أريدها .. لا أريد أي شيء يخصه

راقب الضابط حركتها المتوترة .. كان يتمنى لو يستطع تصديقها لكن حباً نما في قلبها منذ أيام الصبا واحتضنته روحها لأعوام لن يزول بمثل هذه السرعة .. استئصال عضو من الجسد ممكن لكن

استئصال مشاعر حب سكنت القلب وتغلغت بالروح هذا هو المستحيل بعينه.

اضطر أن يجاري كذبها على نفسها ليختار أن يغير الموضوع

- أتعرفين لم يكن هو الوحيد الذي زارني .. خطيب أختك أيضاً جاء لمقابلتي

التفتت هدير إليه بقوة وقد فاجأها كلامه

- خطيب من ؟!! ما .. ما الذي تقوله ؟

هل كان عليه أن يكتم الأمر عنها ويدع شقيقتها من تخبرها ؟ لا يعرف لقد تكلم وانتهى

- أختك سديم أظن اسمها .. والرجل يُدعى ناصر قد لا تعرفينه لكنه يعرف كل شيء عنك وعن شقيقتك .. يبدو بأنه أهل للثقة

الغربة إحساس مبهم الحدود غامض التفاصيل يهجم على المرء ليحتل نفسه على حين غرة فلا تعد تعرف محط رأسك من قدميك .. ضياع لا يقيد بحد .. وجع يمتد إلى العمق .. الوحدة فقط من ترافق خطواتك حتى لو كانت الأرض مزدحمة بخطوات بشر آخرين

- لا عليكِ سأحاول أن أستحصل موافقة كي تزوك شقيقتك وتشرح هي لك حقيقة الأمر .. لكن ربما يطول الأمر قليلاً

عادت لتجلس على السرير المعدني بسكون عرفه جسدها ولم تتعرف عليه روحها .. هل تملك حق الرفض وقد قطعت بيدها خيوط تربطها بعائلتها بل وحتى تربط إرادتها بنفسها .. لتشعر بعد سنوات تحملت فيها المسؤولية بأنها لا تملك حق التفوه

بحرف إيجاب كان أم رفض .. لقد سقط حقها واضمحلت تفاصيل غارقة في وحل صنيعها

لم يعرف سبباً لتعلق نظراته بها منذ ذلك اليوم الذي جاءت فيه لتسلم نفسها وقد أثارت في داخله فضول عميق .. هو الشعور الأقوى لديه .. ازاداد بعد أن تأكد له براءتها من تهمة الاختلاس التي نسبتها لنفسها .. مجرد تحقيق بسيط قام به نائبه بمساعدة خبير الخطوط حتى علم من كتب آذونات الصرف .. غزوان الذي يقبع الآن في إحدى المستشفيات وقد تكسرت أطرافه ويرجح إصابته بعجز دائم بعد أن تعرض لاعتداء عنيف بالضرب والذي يعرف على وجه التأكيد القائم بهذا الاعتداء .. الزوج المنحرف علاء .. لعنة حلت على عائلتها لتوصمها بأثر قد يتعب الزمان بمحاولته محوه ..

نهض منزعجاً من سير أفكاره

- سأذهب الآن

لم ترفع بصرها إليه وظلت تحافظ على إطراقتها .. قلبه الذي اعتاد على عملية عقله تمرد الآن ليحرك يده لتحط على كتفها .. رفعت إليه عينين نرجسيتين تشهدانه على ضياعها

- لا تقلقي لن تكوني وحيدة

لم تحري جواباً فلم يكن هناك من داعٍ لبقائه أكثر تحركت خطواته ترافقها يده التي أخذت طريقها إلى جيب سترته حيث ترقد رسالة علاء المنبوذة وقد خطت عليها كلمة واحدة فقط

(سأعود)

لم تدرك هدير بأن هناك رجلان يحومان حولها لا يستطيعان الابتعاد .. زوجها الذي يعلم بالضبط ماهية مشاعرها نحوه وما تعنيه له وآخر يقوده فضوله إلى البقاء قربها دون أن يستطيع الفكاك من طوق جاذبيتها الغامضة

***

خطوة لا بد من اتخاذها بواسطتها سيتم فعلاً وضع تعليم الحروف ليتضح فعلاً ما خُطّ بلوح القدر .. للآن لا يشعر بأنه قد تقدم خطوة إلى الأمام، وجود سديم وأخويها جعله نوعاً ما يشعر بالاطمئنان أكثر لكن هذا لا يكفي ..

القلق والتوتر كان واضحاً على ملامح السيد زهير الذي تعرف على ناصر بسمعته ووالده بالعمل .. لابد من أن غياب أولاد شقيقته قد أهلكه لكن كالعادة هكذا اختفاء يتم التعتيم عليه عندما يكون هناك إناث ضمن المختفين

- تفضل .. سيد ناصر

ابتسامة مجاملة خفيفة الظهور ارتسمت على وجه السيد زهير .. الذي سأله ما إن استقر بالكرسي المجاور لمكتبه في البيت المظلم الأرجاء .. بيت يذكره نوعاً ما ببيته، كلاهما يحتويان من الأسرار ما يُخجل

- قهوة ؟
- كلا شكراً .

أخذ السيد زهير مكانه خلف مكتبه

- هل أستطيع أن أخدمك بشيء ؟

سؤال مباشر يهدف إلى تسريع نهاية اللقاء ..
هناك الكثير مما يشغل السيد زهير وناصر يعلم ذلك بالتأكيد

- نعم .. بالبداية يتوجب عليّ تعزيتك بوفاة شقيقتك السيدة رقية

قطب زهير حاجبيه .. أن يعلم ناصر بأن لديه شقيقة توفيت حديثاً أمر لا يمكن استغرابه لكن أن يعلم باسمها !!

- البقاء لله .. شكراً

حانت اللحظة الحاسمة .. لن يخرج من هنا قبل أن يأخذ وعداً منه بتحقيق مطالبه وعلى رأس قائمتها زواجه من سديم

- لقد علمت بأن أولاد شقيقتك -تمعن النظر إليه- مختفين ..

الإنكار الذي أوشك السيد زهير إطلاقه أوقفه ناصر

- لا تحاول .. إنهم عندي .. سديم وترف وحاتم .. بينما الشقيقة الكبرى قد أدخلت مستشفى المجانين .. والكل هنا ضحايا ولدك العزيز الذي صودف اختفاءه أيضاً

***

حثت قدماه المسير التائه الطرق .. لا يعرف إلى أين يتجه وقد حوصر بأفعاله الماضية وقد فضح سره المخزي .. اتصال ليلي أجراه يوم أمس مع والده الذي أبلغه بجمود بأن لا يتصل مرة أخرى .. ابتسامة غيظ ارتسمت على وجهه، لقد تم التبرؤ منه .. لم يكن يتوقع أقل من هذا

- أنت أيها الشاب

توقف فجأة عند سماعه نداء شخص مجهول، التفت إلى الوراء

- أجل أنت تقدم إلي ..

عاد علاء خطوات إلى الوراء وبرود اكتسح ملامحه

- ساعدني بوضع الكيس على ظهري

تماهل علاء في تنفيذ طلب الرجل الذي شارفت سنواته على الستين الواقف قرب سيارة حمل

- لا تستطيع أن تحمله أنت، سأجعل بعض العمال يحملونه بدلاً منك

لاح الغضب جلياً على وجه الرجل العجوز ليتحامل على نفسه واضعاً الكيس على ظهره وهو يتمتم بمثل عراقي دائم التداول

- أتعب أقدامك ولا تتعب لسانك ..

راقب علاء جسد الرجل المتمايل تحت ثقل وزن الكيس، أراد التحرك ليحمل عنه وهو يراه يوشك على السقوط في أي لحظة ..

- لا تتعب نفسك ..

رجل شاب يعمل حمالاً كما بدا لعلاء أوقفه عن تقديم المساعدة للعجوز

- لقد حاولنا قبلك دون جدوى -حرك أحد الأكياس المصفوفة في السيارة ليقربها إليه- منذ أن علم بأن ولده المفقود بالحرب قد اشتهد وهو يهلك نفسه بالعمل ..

قطب علاء حاجبيه وهو يقول بضيق

- وما دخل هذا بهذا

استقر الكيس أخيراً على ظهر الشاب

- يقول إن تعب جسده يلهيه عن التفكير بحزنه .. فما يضع رأسه على الوسادة حتى يغرق بالنوم .. فلم يعد جسده يطلب سوى الراحة ونفسه دخلت في حالة من السكون الملهي .

رجع ببصره نحو الرجل المسن المتمايل الخطوات وقد انحنى ظهره تحت وطأة حمله الثقيل .. تعب جسده يلهي نفسه عن مطالبها الأخرى !!

- افسح لي الطريق

ابتعد علاء منفذاً طلب الشاب المثقل بحمولته .. هل يعقل بأن هناك حلاً له مع نفسه ؟! استمرت الكلمات تنغمها خطواته التي ذهب منها ضياعها وقد هدف إلى العودة إلى حيث ركن سيارته يتردد صداها بعقله

***

بعد شهر وعشرين يوماً

الأيام بدأت مؤخراً بتشكيل لوحة حياتها بألوان مختلفة بعد مرور شهرين على وفاة والدتها .. رمقت ناصر المنشغل بقيادة السيارة بطرف عينيها .. كان يبدو مرتاحاً بشكل غريب كأنما ذاهبان إلى مطعم ما أو حتى الكورنيش كما اعتادا أن يفعلا بالأيام الماضية وليس إلى مستشفى الأمراض العقلية التي سكنت هدير بين جدرانها ..

جلبت تنهيدة ناعمة صدرت من شفتيها اهتمامه إليها .. التفت بخفة ناظراً إليها .. كان لا يصدق حتى الآن بأنها أخيراً ستكون له بعد يومين، سيتزوجان دينياً وبعد شهر تكون قد بلغت الثامنة عشر سيتوثق زواجهما ليصبح قانونياً كذلك وستنقل

وصاية الأطفال بعدها إليها .. هكذا اتفق مع خالها الذي اضطر إلى موافقته خوفاً من الفضيحة .

اليوم لديهما مشوارين يتنافسان في أهميتهما .. الأول سيكون زيارة لشقيقتها الذي تم أخيراً إعطاءهم الموافقة على زيارتها ..

استمرت السيارة تبتلع الطرق أمامها متجهه إلى أعماق جانب الرصافة .. مجتازين مناطق عدة في طريقهم إلى منطقة الرشاد النائية عن التحضر .. بغداد الجديدة .. الباب الشرقي .. في دروب عتيقة تسرد للسائرين في لحظات صفاء نادرة تفاصيل ذكرى أيام بعيدة .. تفاصيل قد تسهب في ذكرها عندما يتملكها حنين ممزوج بشجن إلى ماضي عريق وقد تتمادى بسردها حين يتكئ بعض المارة بأجسادهم على حصى أرضها فتترك الماضي وشأنه

لتهتم بحاضر كئيب خنق الأمل بصدور شبابها ومستقبل مريب يخبرك بأنه لن يمر يوم عيد على أرض كانت يوماً ما منبعاً للبهجة لتختار الدورب أخيراً أن تغرق بالصمت مجدداً وقد عادت إلى سالف الأيام من جديد.

تفحصت سديم المكان بقلب وجل ..

- يكاد يكون سجن .. بل هو سجن

همستها الحزينة حملته على الخروج عن تأمله الصامت للمكان بجدرانه الشاهقة الارتفاع والتحرك ..

- لكنه ليس كذلك .. هيا بنا صغيرتي

***

رمشت عينا هدير وهي تنظر إلى قرص الشمس المستعر وقد تسللت خيوط أشعة الذهبية لتلامس صفحة وجهها الغامض الأحاسيس تحاول بعث الحياة فيه .. ليهبط بصرها نحو أرض الحديقة التى أصاب المرض عشبها فتحول اخضراره إلى اصفرار باهت يشابه وجوه قاطني المكان المعتلين العقل والنفس ..

خطوات رنمت تحت وقعها صوت لما بقي من الزمن القادم من خلف أسوار العدم .. أصدرت صاحبتها صوتاً أرغم الرافضة لمعالم الحياة المحتضرة التي تلف المكان على الإحساس بما يدور حولها

- هدير ..

ازدردت ريقها بصعوبة وهي تسمع صوتها الناعم - سديم .. إنها سديم- دون أن تتجرأ على الالتفات للوراء كي تراها أخيراً .. اقتربت الخطوات الرقيقة الوقع أكثر لتستقر نظراتها على الأرض أكثر فأكثر ..

لن تتيه سديم عن هيئة شقيقتها الكبرى أبداً .. هذا شعرها اللامع من تقبله أشعة الشمس بوله عاشق وذلك جسدها الرقيق الذي مهما بدا عليه التخاذل فإنه يزهو بكبرياء يليق بروح صاحبته .. هبطت سديم لتركع بالقرب من ساقي هدير التي رفضت أن ترفع رأسها مختارة أن تتغاضى عن وجودها الذي تدرك بأنها قد أدركته بقوة .. لتترك الكلام جانباً وتحط برأسها على ساقي أختها الكبرى لتستنشق أخيراً عبير والدتها ..

إيماءة ربما أو قد تكون التفاتة .. لمسة ناعمة أو نظرة ساهمة .. تعدم للحروف فائدتها وقد

فاضت الأحاسيس واهتزت المشاعر وبرقت الروح لتطل من العيون لتبوح بما لا يمكن أن تترجمه كلمة

***

اتكأ ناصر على سيارته وهو يدخن بنفاذ صبر منتظراً خروج سديم التي فضلت أن تلتقي بشقيقتها بمفردها، لقد انصاع لطلبها على مضض وهو كاره دخولها ذلك المكان .. لكنه لا يملك منعها من لقاء أختها .. كيف له أن يمنعها أصلاً وهو يعرف بأنه لن يرتاح بالها قبل أن تطمئن عليها .. فرك جبينه بأصابعه التي تحمل سيجارته المشتعلة .. وقد خطر بباله بأنه ليس بحال أفضل منها وقد قرر الذهاب إلى بيت عائلته كي يلتقي بوالديه ويعرفهما بسديم .. لم يكن يقصد بذلك الحصول

على موافقة منهما لكن فقط كي يمنحهما فرصة للعودة إلى حياته، لم يكن قراره هذا قادماً من العدم لقد أخبرته أم خلدون بأن والدته قد سألت عنه تحاول أن تستدل على مكانه أما والده الذي عُرف بتكبره وكبريائه كانت رسالته واضحة، فقد تكلم بالطريقة التي يعرفها فبعد أن ضيق عليه بالعمل كي يحمله على العودة إلى كنفه تراجع عن قراره ومده بتوكيل إضافي لبقية الأعمال .. توكيل لم يحتجه ناصر الذي خبر الأعمال التجارية منذ الصغر ويعرف بالضبط أي مجال يستثمر أمواله الخاصة .. رمى سيجارته بسرعة عندما لمح قدومها نحوه معتدلاً بوقفته ..

- هل أنتِ بخير ؟

سألها بقلق وهو يلمح شحوب ملامحها

- نعم أنا بخير -ابتسامة خافتة الإضاءة لاحت على ثغرها وهي تضيف- أحسن من أي وقتٍ مضى

وضع يده على كتفها يقودها نحو السيارة

- أفهم من هذا بأن لقاءك مع هدير كان مرضياً

التفتت إليه وهي تومئ برأسها وقد لاح تعبير هادئ بعينيها

- أفضل بكثير مما كنت أتوقع .. هدير رغم كل شيء ما زالت نفسها وهذا أبهجني جداً

فتح لها باب السيارة وانتظر أن تجلس على مقعدها ليغلق الباب بعدها وهو يتمتم

- هذا جيد

بينما يدرك هو بأنه من المستحيل بعد كل ما جرى أن تكون هدير قادرة على الحفاظ على قوتها دون أن يكسر شيئاً بداخلها .. لكن على ما يبدو أنها قد أجادت خداع شقيقتها الصغرى كي تريح بالها قليلاً ..

- الآن إلى منزل والديك

شغل محرك السيارة .. ليرنوا إليها قليلاً وهو ينظر إليها بتمعن

- ربما من الأفضل أن نؤجل اللقاء إلى وقت آخر

هزت رأسها رافضة اقتراحه بالتأجيل الذي تدرك بأنه أراد به أن يوفر لها راحة أكبر

- كلا .. اليوم كي ننتهي من كل شيء ونستطيع أن نبدأ حياتنا

مد يده بسرعة ليوقف المحرك عن الدوران وسط دهشتها ليلتفت إليها قائلاً

- نبدأ حياتنا .. يا الله أجمل كلمة سمعتها منكِ حتى الآن

ارتسمت ابتسامة ذاهلة على شفتيها لتتغير إلى أخرى متوترة عندما اقترب منها

- هل تعرفين .. لقد وافقتِ على الزواج مني واعترفت بأنكِ ستكونين لي أخيراً -أقترب أكثر حتى غرقت عيناها بعسل عينيه الباسمتين لعينيها- دون أن تبردي خاطري بكلمة ..

حاولت الابتعاد قليلاً إلى الوراء لكن ذراعيه اللتان سحبتاها إليه غيرت من أتجاه جسدها .. وقد مال برأسه نحوها

- أ .. أي كمـ .. كلمة !!

تنهد متحسراً على نفسه رغم أن تلكؤها جلب الابتسام إلى شفيته

- أحبك .. لم تقوليها حتى الآن !!

رمشت عيناها بضعف وإحدى يديه أخذت تسرح شعرها حتى حل رباطه لتتوتر أنفاسه وهو يمشطه بأصابعه بينما أخرى استقرت خلف ظهرها تمنع ابتعادها وتزيد اقترابها في محاولة يائسة لإقناعها .. بشوق ترجاها

- قوليها حبيبتي .. أتوسل اليك انطقيها الحروف القصيرة للكلمة الملونة المعاني والتي قدر لها بأن تترجم مشاعر راقية تهد عزيمة أقوى الرجال وتعدم مقاومتهم لسحر بنات حواء ليصبحوا رجالاً من نوع آخر، رجالاً يجلبون الفرح لمن يحيط بهم يزرعون البسمة على شفاه من يحبون

ويتسامحون مع الكل إلا من من يمس قدسية مشاعرهم ..

تجمعت تلك الحروف على ضفاف شفتيها .. لتتموج بنعومة حتى تصل إلى أذنيه وقلبه .. لكن .. وعلى حين غرة برزت على السطح نثى تحب أن تلوع قلب محبوبها ..

- كما انتظرتك طويلاً .. سأجعلك تنتظر بدورك

انسلت من بين ذراعيه بسرعة عندما أحست بارتخاء طوقهما .. وهي تلهث بشدة

- نـ .. نـ .. ناصر .. !!

راقب ابتعادها عنه بعجز .. ليتراجع هو بدوره إلى مقعده وأنفاسه المرتبكة تجيش بصدره متأثرة بمشاعر عنيفة تهدد بالانفلات بأي لحظة .. مسح

وجهه بكفه يحاول أن يستعيد توازنه .. عاود تشغيل محرك السيارة وهو يدرك بأنها تتأمل كل تحركاته قائلاً بصوت مبحوح

- لا بأس .. يومين فقط .. يومين وتكونين زوجتي .. عندها صدقيني لن أرحمك كما لم ترحميني ..

أطلق وعيده الذي اهتز داخلها له .. يومين فقط وتكون أميرة متوجة بحبه كما حلمت دائماً أن تكون .. ارتسمت ابتسامة تشع بسعادة طال انتظارها على شفتيها وقد عادت إليه ذكرى بعيدة تحمل كلمات حكيمة لرجل تبصر بأمور الدنيا وتذوق رحمة الخالق

- قد استهلكتِ حصتك من الألم مبكراً .. سنواتك القادمة ستحمل لك الفرح .. هو عوض من الله عز وجل .. انتظريه

الخاتمة

هناك في شرق العراق وعلى بعد 57 كيلو متراً من بغداد تقع محافظة ديالى وفي بعقوبة تحديداً .. فى إحدى بساتين البرتقال .. كان يسير بصمت مخترقاً أشجاره المزهوة بزهور القداح التي ملأت المكان بعطر يحمل عبقاً من الجنة .. يحمل على كتفه الفأس .. مشط ببصره البقعة الخالية منه يتأكد من خلوّ المكان من متربصين دأب على طردهم ما إن يلمح ظلالهم الصغيرة .. منذ شهر أو يزيد قرر أن يستقر هنا حتى يحين وقت عودته ليرى ما خلفه وراء ظهره .. الفأس على ساقه حل أزرار قميصه أبعده عن كتفيه ليرميه .. تنفس بعمق وقد شعر بلسعات الشمس الحارقة تصيب ظهره .. انحنى ممسكاً فأسه الذي أصبح رفيقه الدائم مؤخراً .. وكيف لا يكون وهو شبه عالق بكفيه منذ شروق الشمس وحتى غروبها .. رفعه إلى الأعلى ليهبط به بقسوة باقراً بطن الأرض .. مرة بعدها مرة .. حتى يشعر بالارتخاء قليلاً وقد بدأت حبات العرق تنزلق على جسده المعاقب

كان يهلك جسده بالعمل الشاق المضني حتى تتفصد حبات العرق منه في محاولة منه لتنقية روحه من رغباتها المارقة كل قطرة عرق التمعت على جسده تمثل رغبة شائنة أفرزتها روحه لترتشفها النسمات الساخنة لتتلاشى كأنها لم تكن يوماً

توقف فجأة بعد أن شعر بأنه لم يعد بمفرده .. تمتم بغضب هادر تباً .. تباً لكم .. رمى فأسهة جانباً لينحني ويلتقط من على الأرض عدداً من

الأحجار الترابية .. بينما عيناه ترصد مكان المتسللين الصغار .. تحرك بسرعة نحوهم وهو يصرخ رامياً الأحجار عليهم

- أبتعدوا .. اتركوني وشأني .. ابتعدوا

أصوات أقدام صغيرة سارعت بالركض مبتعدة تسابقها ضحكات طفولية أطلقها الصغار وهم يصرخون بمرح

- لقد وجدناه .. وجدنا كاره الأطفال .. اهربوا

صوت ضحكاتهم أزال كل سكينة كانت قد حلت عليه بنهاره، رفع ذراعيه يرميهم بالحجارة لتتعثر قدماه ويسقط أرضاً وسط حبات البرتقال التي كانوا ينوون الصغار سرقتها من البستان .. تعفر

وجهه بالتراب واستقر جسده بارتخاء وقد حل عليه الإنهاك الذي كان يصبوا إليه !!

تمت بحمد الله

انتهت رحلة ميول منحرفة .. أتمنى بأنها قد نالت استحسانكم حتى آخر حرف فيها .. .. بعد أن تتطلعوا على أحداث الفصل ستلاحظون بالتأكيد بأن النهاية كانت مفتوحة .. الفصل كان عبارة عن رسمه لخطوط عريضة بواسطتها تتمكنوا من تخمين الطريق الذي سيختار أبطالنا المضي فيه...